العروبة

في

شعر أبي تمام

دكتور

محمود رزق حامد

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٨١٠,٩٠٣٥ حامد ، محمود رزق.
م.ح

العروبة في شعر أبي تمام /محمود رزق حامد .- ط١.- دسوق:
دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
٢٠٤ ص ؛ ١٧,٥ × ٢٤,٥سم .
تدمك : 5-354 - 308 - 977 - 978
١. العروبة في الشعر العربي ٢. الشعر العربي – تاريخ ونقد.
أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٩٤٤٣- ٢٠١٣.

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة
هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس: ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١
E-mail: elelm_aleman@yahoo.com
elelm_aleman@hotmail.com

2013

الفهـرس

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة	٥
التمهيد	١١
الفصل الأول : أضواء على عصر الشاعر	١٥
المبحث الأول : العصر العباسي الأول	١٧
المبحث الثانى : حياة الشاعر	٣٣
المبحث الثالث : المقصود بالعروبة عند أبي تمام	٦١
الفصل الثانى : مظاهر العروبة فى شعر أبي تمام	٦٩
المبحث الأول : مظاهر العروبة فى مدحه	٧١
المبحث الثانى :مظاهر العروبة في رثائه	١٠٤
المبحث الثالث : مظاهر العروبة فى فخره	١١٨
المبحث الرابع:مظاهر أخرى للعروبة في شعره استعماله لغة طيء	١٢٧

الموضـــــوع	الصفحة

الفصل الثالث:الدراسة الفنية لشعر العروبة عند أبي تمام

المبحث الأول : الصورة الأدبية ١٣٩

المبحث الثاني : العاطفة والخيال ١٥٧

المبحث الثالث : الموسيقي الشعرية ١٨٣

خاتمة بأهم نتائج البحث ١٩٣

المراجع ١٩٩

مقدمة

الحمد لله الذي اقتضت حكمته أن يهب ذوي الألباب من الذكر عمراً ثانياً، استطاعوا به ألا تطوي آثارهم أيدي الأحقاب.

فصدق عليهم قول القائل:

* والذكر للإنسان عمر ثان *

وقول الآخر:

* عمر الفتي ذكره لا طول مدته *

وجعل من الأدب صفحة تنطبع عليها فطرهم السليمة وطباعهم المستقيمة فالأدب دائماً موقظ أرواح الأمم الكامنة ودليل جليلها وجميلها ، قديمها وحديثها.

وبعد ....

فيمكن القول بأن الأدب في عصر العباسيين وصل إلي حد "البِطْنَة" وما ذلك إلا لأن أمشاج العقل العربي – آنذاك – قد اختلطت بأخلاط أخري تتمذهب بمذاهب جديدة لم يألفها بعد العقل العربي ، وكان من شأن هذه الأخلاط أن قفزت بالعقل العربي نحو الصدارة في الترف العقلي والوجداني الذي كان ملكاً مشاعاً، لا يخص جنساً، ولا يعوق آخر – ولست بذلك متهماً للفترة التاريخية السابقة لهذه الفترة بالعقم الفكري أو الوجداني - كلا لعمري - ولا ينبغي لي ذلك ، بيد أنني أردت القول، بأن هذه الفترة كانت بمثابة الحرب الضروس التي قامت بين معسكرين هما، العنصر العربي والعنصر الوافد عليه "المولد" والذي لم يعد نفسه دخيلاً بالمعني الحرفي للكلمة، ومن شأن الدخيل أن يكون له حيزه الضيق ، ولغته

وأدبه وطباعه الخاصة، وإنما انطلق كالفرس الجامح، ينافس في كل مجال ، وكأنما ارتضع البلاغة وتوارث أساليب الفصاحة ، وكانت روعة البيان وسحر البلاغة وطرافة التصوير والتعبير بمنزلة الميادين الذي تتسابق فيها الفحول من المعسكرين.

ووجدنا أنفسنا نخرج من هذه الحرب بغُنْم كبير، ببانٍ من بُناة الحضارة الإنسانية في هذه الدولة إلا وهو "أبو تمام" صاحب العبقرية الفذة التي شغلت - وما زالت تشغل - الفكر النقدي مدة طويلة إذ لم يكد الرجل يحتل مكانه بين الشعراء ويندمج في صفوفهم ويسير مع القافلة ويتقدم المجالس حتى رأينا بعض الغيورين منه ، يكافحونه ويتصدون له بأساليب مختلفة.

ولم يكن ذلك منهم - في ظني - إلا لأنه أرَّق أجفانهم وأقضَّ مضاجعهم بفكر جديد ، لم يكن مألوفاً لعامة الناس ولا حتى لخاصتهم.

ولكن الخير قد يكون كامناً في الشر، إذ يمكن القول بأن أبا تمام بذلك قد اتسع ذكره، ودوت شهرته كل أقطار الأرض في زمانه، وهيأ له الله من يذيع صيته حتى بعد موته.

وقد أقدمت علي هذه الدراسة لأسباب دفعتني إلي النهوض بها - منا:

- ✓ إضاءة جانب من جوانب حياة أبي تمام كان غامضاً قبل هذه الدراسة فأردت بهذه الدراسة كشف اللثام عن ذلك الجانب وإبرازه واضحاً جلياً لا تبقي معه شبهة في عدم عروبته وإسلامه خاصة وان هذا الجانب لم يتعرض له احد بالدراسة قبل ذلك.
- ✓ ما وجدته من تهجم علي الرجل أخرجه من حوزة العروبة وخلع ربقة الإسلام من عنقه ، لمجرد كلمات قالها بعض المؤرخين القدامى وتابعهم في ذلك بعض الباحثين بان اتهموه بأنه غيرعربي ، واتهمه البعض الآخر بأنه

غير مسلم وجعلوا من ذلك سببا لهجنة شعره والعيب عليه ، وأن كان ما قالوه محل شك كما سيرد في ثنايا صفحات البحث .

إلا أنه في الوقت نفسه لم يعدم الرجل آن يجد مادحين يرتفعون به إلي عنان السماء ويجعلونه من أصحاب الإبداع والاختراع ، والمتقدمين في الشعر القائلين في أكثر أجناسه وضروبه ، لاسيما وأن الشعراء أجرأ الناس علي الاختلاق

وبعد ....

فلست بهذا الذي أقول أريد أن ابرز للقارئ أو السامع "أبا تمام" في صورة الإنسان الذي لا يطوله خطأ ، أو الشاعر الخنزيز الذي لا يطاوله شاعر ، ولا أغمض من قدر غيره وأحط منه واجعله دونه ، فقط حاولت إظهار أحد جوانب حياة هذه الرجل واضحاً جلياً من خلال العرض والتحليل للآراء المؤيدة والمعارضة مؤيداً ما يستحق التأييد، ومفنداً ما يستحق التفنيد قدر استطاعتي.

..... أما الشاعر نفسه فإنني أمدحه متى كان مستحقاً للمدح ، وأذمه أيضاً متى استحق الذم **ولله در شوقي إذ يقول :-**

وامدح علي الحق الرجال ولمهمو   أو خل عنك مواقف النصـــاح

.... وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن اجعل بحثي هذا في ثلاثة فصول . تسبقها مقدمة وتمهيد ، ويتبعها خاتمة بأهم نتائج البحث وفهرس للأعلام وآخر للاماكن والأيام والوقائع التي ورد ذكرها في البحث ثم ثبت للمراجع والمصادر ثم فهرس للموضوعات التي ورد ذكرها في ثنايا الدراسة.

أما المقدمة :

فقد تحدثت فيها بإيجاز عن طبيعة هذا البحث وبينت فيها أسباب اختياري لموضوعه وما يحتويه من فصول ومباحث.

أما الفصل الأول : فعنونت له بـ "العروبة في عصر الشاعر وحياته ".

وقسمته إلي ثلاثة مباحث.

أما المبحث الأول: فسلطت فيه الضوء علي عصر الشاعر سياسياً ، واجتماعياً وثقافياً وبينت فيه كيف كانت الحياة العباسية ذات أثر كبير في تكوين الشاعر ورسم شخصيته وتعبيره عنها.

وأما المبحث الثاني : فتحدثت فيه عن المقصود "بالعروبة".

وأما المبحث الثالث : فتحدثت فيه عن حياة الشاعر وتشمل مولده ونسبه ونشأته ورحلاته وتنقلاته بين أقطار الدولة وأثر ذلك في حياته وشعره ثم موته، وبعض الذين رثوه.

وأما الفصل الثاني :

فعنونت له بـ "مظاهر العروبة في شعر أبي تمام" وقسمت هذا الفصل إلي أربعة مباحث:

أما المبحث الأول: فتحدثت فيه عن مظاهر العروبة في مدحه ، وتحدثت فيه أيضاً عن أولئك الذين مدحهم لأنهم رموز العروبة وكان من هؤلاء: الخليفة المأمون والخليفة محمد المعتصم وخالد بن يزيد الشيباني والي الموصل للمأمون.

وما المبحث الثاني: فتحدثت فيه عن مظاهر العروبة في رثائه. وبينت في هذا المبحث كيف كان أبو تمام ينعي للعروبة أبطالها ولا يكفكف عبراته حتى تشتفي العروبة لنفسها.

وأما المبحث الثالث : فتحدثت فيه عن مظاهر العروبة في فخره . سواء أكان فخراً بالنفس أم بالقبيلة.

وأمـــا المبحـــث الرابـــع : فتحدثت فيه عن مظاهرأخري للعروبة في شعره .

كاستعماله لغة طيىء واتبعت هذا المبحث بظاهرة عامة لشعر العروبة عند أبي تمام وهذه الأغراض دون غيرها ظهرت فيها ملامح عروبته.

وأما الفصل الثالث: فهو الدراسة الفنية لشعر العروبة عند أبي تمام وقسمته إلي ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تحدثت فيه عن التعريف بمصطلح الصورة الأدبية وأسلوب أبي تمام، ومقومات الأسلوب عنده كاللفظ والمعني ثم بناء القصيدة عنده ويتناول ذلك المطلع ثم الخروج أو التخلص ثم المقطع أو الخاتمة.

وأما المبحث الثاني: فتحدثت فيه عن العاطفة والخيال عند أبي تمام ويشمل هذا المبحث:العاطفة في شعر العروبة عند الشاعر، وبعض الأساليب التي شاعت عنده والتي لها ارتباط بالعاطفة كأسلوب الاستفهام.

ثم الخيال عنده ويشمل ذلك دراسة موجزة لبعض الصور الخيالية كالتشبيه والاستعارة، وبعض المحسنات البديعية كالطباق.

أما المبحث الثالث : فتحدثت فيه عن الموسيقي الشعرية عنده وكيف أنه لم يتخل عن الوزن والقافية لأنهما يمثلان عنده بعداً موسيقياً أثيراً ، وتحدثت فيه أيضا عن موسيقي العبارة والبيت ، ثم اتبعتهما بملحظ آخر مهم في موسيقي الشعر ألا وهو طريقة إنشاد الشعر، وكيف أن الشعراء الذين لم يملكوا زمام حسن الصوت او طريقة الإنشاد كان يتخذ غلاماً لإنشاده شعره .

أما الخاتمة :

فقد ذركت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث والتي منها:-

- غـرام أبـي تمـام بمـديح العـرب دون غيرهـم، وإعلائـه للسـجايا العربيـة وذلك من دلائل عروبته .
- إن وصفه بالنصرانية لا يتنافي مع عروبته.........

تمهيد

- إذا كان الأمويون قريبي عهد بالجاهلية يميلون إلي كل ما كان يميل إليه العربي الأول – لاسيما المباهاة بالدم العربي والآباء والأجداد ، والسجايا العربية من شجاعة وجود ، وإغاثة مستجير – ولذلك وجدناهم يستلهمون هذه الصفات وينسجون علي منوال الأقدمين في حرص بالغ ألا يخرجوا عن الإطار المرسوم – فلن نعدم في العصر العباسي – وإن فتح الباب علي مصراعيه أمام الأجناس الوافدة من غير العرب – من يعلي هذه السجايا ويشيد بناءها ، ويجعلها مناط الإعجاب والتقدير وكأن هذه الطبائع قد ملكت عليه شعوره وتفكيره، لاسيما أن العصر العباسي قد تخلي عن التخلف ، وعوامل الركود ، وأمية التفكير، وجمع القلوب حوله بإزالته وإذابته الفوارق وقطعه الحواجز وتسويته بين الناس عرباً وغيرهم
- وإذا تكلمنا عن الأدب في العصر العباسي فلابد أن نذكر أنه كان خصباً إلي أبعد حدود الخصوبة، خصوبة تركت أثراً لا تطمسه الأعاصير، ودفعته إلي الأمام أشواطاً بعيده ، خصوبة أينع جناها وآتت أكلها بعد أن استوي علي سوقه، وصارت لغة الضاد لا ينقصها صقل ، ولا تفتقر إلي فضل، لأن بني العباس لم يكونوا أقل شأناً من سابقيهم في فصاحة البيان، وحسن الكلام ، وبراعة القول.
- في هذا العصر بما فيه ومن فيه من أساتذة البيان العربي الذي بلغ أسلوبهم القمة ، ينشأ "أبو تمام" بن أوس وكان مرباه في دمشق إحدي دور العروبة من قديم وهو من أبناء "طيىء" القبيلة اليمنية العربية التي نزلت في العصر الجاهلي شمالي "نجد" واتخذت الفصحى لساناً لها.

- ولشيء ما في نفوس شانئيه فقد حاولوا إلقاء ظل من الشك على نسبه فزعموا أن أباه كان نصرانياً اسمه "تَـــدْوُس" وأنه حرَّفه إلى "أوس" وانتسب في "طيىء" ومن هذا ما يرويه أبو بكر الصولي في كتابه "أخبار أبي تمام" من أن قوماً ادعوا علي "أبي تمام" الكفر، بل حققوه وجعلوا ذلك سبباً للطعن علي شعره وتقبيح حسنه.

وتمادي هذا الزعم ببعض المستشرقين من أمثال "مَرْجِليُوث" فقـال : لعـل "تَدْوُس" محرفة عن "تِيُوْدُوس" وقال "كارل بروكلمان" بل هو من النصارى السريان.

واتبع ذلك بعض الباحثين المعاصرين من العرب أمثال "طه حسين" فزعم أنه يوناني.

وهي مزاعم مبنية علي اتهام باطل أشعل جذوتها ونفخ فيها بعض شانئيه ممن عاصروه، وهو اتهام ينقضه نقضاً كل من ترجموا لأبي تمام من المؤرخين الثقات إذ أجمعوا علي أنه طائي الأصل.

يقول الدكتور/ محمد مندور في كتابه "النقد المنهجي عند العرب" :

(وكتب النقد التي بين أيدينا لا تحمل أي صدى لهذه التهمة التي لم نجدها إلا عند الصولي الذي يريد أن ينتصر لأبي تمام بكل الوسائل، وأن يجرح خصومه بكل السبل) .

ويقول أيضاً:

(ونحن عندما ننظر في الشعر الذي هجي به أبو تمام نجده يدور دائماً حول اتهامه في نسبه، فأبو تمام كان يتهم بأنه نبطي، وأنه وُلِد لأب نصراني ، ولربما كان في ذلك ما يفسر اتهامه بالكفر.

وإذا تصفحنا ديوان أبي تمام ، وجدنا شواهد كثيرة تقطع بعروبة هذا الرجل.

يقول أبو تمام في معرض فخره بقومه.

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم ... وسمي فيهم وهو كهل ويافع

مضوا وكأن المكرمات لديهم ... لكثرة ما أوصوا بهن شرائع

بهاليل لو عاينت فيض أكفهم ... لأيقنت أن الرزق في الأرض واسع

وأبو تمام لا يستشعر بمنيته وطائيته في إشعاره فحسب بل يستشعر - في قوة - عروبته التي تجمع قبائل قحطان وعدنان جميعاً لا فرق بين قبيلة وقبيلة وقد كان الشعراء من قبله ألسنة قبائلهم، يسجلون مفاخرها ويذيعون علي الدنيا مآثرها.

اسمع إليه يقول:-

وإن يك من بني أدد جناحي ... فإن أثيث ريشي من إياد

فأدد يرمز بها لـ "طيء" وقد جمع بينها وبين إياد.

هذا، وقد اختار "أبو تمام" في مطالع حياته ممدوحيه ومن يقدم إليهم قصائده إما من طيء "قبيلته" وإما من قبائل اليمن الأخرى.

وظل أبو تمام طوال حياته مدافعاً عن حياض العروبة مفضلاً لها علي غيرها لا يستثني من ذلك أي جنس.

شاعر من هذا الطراز - شديد التعصب للعروبة وشديد الإشادة بها في كل موقف تنتصر فيه علي غيرها - حق له أن يكون شاعرها الكبير وعبقريتها الفذة.

الفصل الأول

أضواء علي عصر الشاعر

- **المبحث الأول:** الحياة العامة في عصره.
- الحياة السياسية .
- الحياة الاجتماعية.
- الحياة الثقافية.
- **المبحث الثاني:** حياة الشاعر وتشمل:
- مولده – نسبه – نشأته.
- رحلاته.
- موته – رثاته.
- **المبحث الثالث:** مفهوم العروبة والمقصود بها .

المبحث الأول

العصر العباس الأول[1] "١٣٢ - ٢٣٢ ".

- يري بعض المؤرخين لتاريخ الأدب أن العصر العباسي ليس سوي هذه الفترة الزمنية التي بدأت عام اثنين وثلاثين ومائة، ثم انتهت عام أربعة وثلاثين وثلاثمائة ، حين تغلب بنو بويه من الديلم علي الدولة، وآل الحكم إليهم وصار السلطان بأيديهم وتلك الفترة الزمنية التي تعدل قرنين من الزمان جرت فيهما الحوادث بكثير من التقلبات التي كان لها أكبر الأثر في أن ينتقل الأدب من حال إلي حال ، ومن طور إلي آخر، وتأثر تأثراً لا يخفي علي ذي فطنة وبصيرة.

إلا أن المؤرخين القدامى دأبوا علي أن يمتدوا بتاريخ العصر العباسي إلي أبعد من ذلك ويسترسلوا به خمسة قرون وربع القرن تقريبا ، كان نهايتها سقوط "بغداد" في أيدي التتار بعد منتصف القرن السابع من هجرة المصطفي "عليه الصلاة والسلام".

ولعل حجتهم التى اعتمدوا عليها فى رأيهم هذا أن فكرة كون الخليفة "ظل الله في أرضه" ربما كانت راسخة في أذهان المسلمين حقبة طويلة ، وكان للخلافة في نفوسهم قداسة ، وفي قلوبهم احترام ، جعل القلوب تجتمع علي حب الخليفة ، وتتطلع إليه الأنظار، ويدعو باسمه الخطباء علي المنابر وتجبي له ثمرات كل شيء ولعل هذا ما جعل الأمر يستقيم لولاته وأمرائه ، ويحسن لهم القرار، حيث

---

١)- ينسب هذا العصر إلي العباسيين علي وجه من التغليب لقوة أثرهم فيه ومبلغ نفوذهم منه ولكن الكلام فيه يتناول العباسيين في بغداد والبويهيين في فارس والحمدانيين في الشام. والفاطميين في مصر والمغرب والأمويين في الأندلس إلا أن هذه الأصقاع علي تباينها وتنائيها إنما كانت تأتم بهدي بغداد وتستمد منها ، فليس لها في الغالب أدب مستقل.

كانوا يسوسون (١) الرعية باسمه ومن أجله، ويزعمون أنهم جنوده الذين يعملون له ، ومن هنا لم يكن أحد ليستطيع أن يكفر بالخلافة ولا أن يميل عنها ولا يشق لطاعتها عصا ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن شباب هذا التاريخ – أعني الخمسة قرون الأولي وربع القرن السادس – وريعان عمره وزهرة حياته في القرنين الأولين ، أما ما عداهما من الأعوام ، فإنه كان احتضاراً تعانيه الدولة ، وهزالاً تقاسيه الخلافة ، ومرضاً يدب في أوصال البلاد في كل أرجاء الممالك ، رغم ما ظهر في بعض الجهات من نشاط علمي او انتعاش أدبي ويقظة عند كثير من أصحاب الفكر.

إن الذين قصروا اسم "العصر العباسي" علي تلك الحقبة الوجيزة من عمر الدولة في القرنين الأولين ، ربما كانوا علي حق واستقام لهم هذا الزعم ، وما ذلك إلا لأن العربية في هذه الفترة كانت في عنفوان شبابها ، وأوج عزها ، وأحسن أيام تاريخها ، وذلك لأن العباسيين الذين خلفوا الأمويين علي كرسي الخلافة وتلقوا منهم الراية ، لم يكونوا أقل منهم شأناً في ذرابة اللسان ، وفصاحة البيان وبراعة الحديث ، وجودة الكلام ، وحسن اللفظ ، وحمل راية الأدب ، لأنهم ارتضعوا – كبني أمية – أفاويق (٢) العروبة، وأخذوا من القرآن والسنة بنصيب.

بالإضافة إلي ذلك – فقد كان العباسيون يمثلون " الحزب المناوئ " والمناهض لسابقيهم ، ومن شأن المعارض أن يكون علي غير قليل من قوة الحجة وسلامة المنطق ، وبراعة القول، ولدد الخصومة ، وكذلك مهارة الإقناع وتصريف مناحي الخطاب.

هذا بالإضافة إلي المزايا التي تمتع بها العباسيون ، فقد أضافوا إلي اللغة مزايا ما عرفوه وغنموه من تراث جديد لعناصر غير عربية ممن دخلوا في الإسلام

---

١)- أي يتكلفون سياستهم ويملكون أمورهم،والسوس:الرياسة.لسان العرب ج ٣/صـ٢١٤٩ط دار المعارف.
٢)- جمع فيقة وهي اللبن.

وامتزجوا في العرب وسارعوا أن تكون لغة (الضاد) هي لسان الخطاب لها، والتي تتفاهم بها، حتى لقد أصبح الإقبال علي اللغة من المغلوبين الفرس أشد وأظهر من الفاتحين الغالبين.

- وهذا صنيع قد عاد بالفوائد الجمة علي اللغة وتراثها ودارسيها ، وحسبنا دليل علي ذلك أن أسماء من سجلهم التاريخ وحفل بهم ، وكانت لهم اليد الطولي علي الثقافة الإنسانية إنما كانوا من غير العرب ، وإن كان الإسلام – الذي اعتقدوه – قد أذاب الفوارق وسوي بين الناس ، فأصبح الناس لا يقولون هذا عربي وهذا غير عربي.
- وكان ذلك ناتجاً من إفساح العباسيين صدورهم لمواليهم من الفرس ، ولعل هذا السبب نفسه الذي أصاب السياسة العباسية بالهزال ، واللغة والأدب بالانتكاس في نهاية الأمر.

الطابع السياسي للعصر العباسي
"عصر الشاعر سياسياً"

إن ما فعله الأمويون من انحراف في الحكم واستبداد في الرأي ، وعسف في السلطان وإثارة للعصبيات ، أشبه ما يكون بالمقدمات المنطقية التي كان من نتائجها، هذا التحفز للوثوب عليهم ، وشق عصا طاعتهم ، وانتزاع الخلافة من أيديهم قسراً والقضاء علي دولتهم قضاءً مبرماً.

حيث كان هناك من الأسباب الكثيرة التي يكفي أحدها أن يأتي علي بنيان هذه الدولة من القواعد ويحيلها فلولاً لا قوة ولا بأس لها يتقي ومن هذه الأسباب:-

السبب الأول: وجود بني هاشم ومن كان يؤازرهم من شيعة الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بجانب الأمويين ، ليس هذا فقط ، وإنما كانوا يعدون الخلافة حقهم المغتصب وتراثهم المسلوب المضيع ، مما كان يجعل معاوية يحس بالارتباك والتخبط في أمره ، فيستعمل الشدة والعنف الغاشم أحياناً وأحياناً أخري يلجأ إلي المدارة واللين المصطنع.

السبب الثاني: إثارة العصبيات بين الطوائف، والتي كان معاوية يزعم – لدهاء عقله ، وكياسة رأيه ، وحسن تصرفه – أنها تشغل المسلمين وتلهييهم حتى لا يجدوا من وقتهم مجالاً ولا متسعاً للحديث في أمر الخلافة ولا في طلبها، بل ولا في التعرض بالنقد للقائمين علي أمر المسلمين باسمها ،وكان يستعين علي إثارة العصبيات ووجود الحزازات بالشعراء الذين يقربهم من مجلسه ، ويمنحهم بره ومعروفه وكل هدفه من ذلك التنغيص علي خصومه وكفي ، فإن تصدي له شاعر مناوئ أغضي عنه وتساهل معه.

دخل عليه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري فقال له : يا أمير المؤمنين – إن عتبة الأسدي يقول:

معاوي إننا بشر فاسجح ... فلسنا بالجبال ولا الحديد(١)

أكلتم أرضنا وجردتموها ... فهل من قائم أو من حصيد (٢)

فهبنا أمة هلكت ضياعاً ... يزيد أميرها وأبو يزيد

أتطمع في الخلود إذا هلكنا ... وليس لنا ولا لك من خلود

ذروا خول الخلافة واستقيموا ... وتأمير الأرازل والعبيد ! (٣)

وما يمنعك – يا أمير المؤمنين – أن تبعث إليه من يحضره إليك لتضرب عنقه ؟ فقال له معاوية : أفلا خير من ذلك – يا أبا بردة – قال : وما هو يا خليفة رسول الله ؟ قال : نرفع أيدينا إلي السماء ، وندعوا عليه.

ولعل في تلك العبارة الأخيرة ما يدلل علي ما ذكر في السبب الأول من تكلفه ولينه المصطنع.

السبب الثالث: قوة النزعة الانتقامية – عند الأمويين – لاسيما من الذين كانوا موالين لغيرهم ممن دال الدهر علي دولتهم وفشلوا وذهبت ريحهم ، حتي لنجد (سليمان بن عبد الملك (٤) بعد أن صارت الخلافة إليه ينتقم من كل من كان هواه مع أخيه الوليد ليس لشيء سوي أن الوليد كان يريد حرمانه من ولاية العهد.

---

١) - معاوي: أصلها معاوية ودخلها الترخيم لأجل النداء لتسهيل النطق بها - والإسجاح: حسن العفو .لسان العرب ج ٣ صـ ١٩٤٠ ط دار المعارف والأبيات من بحر الوافر الذي أجزاءه مفاعلتن مفاعلتن مفاعل (فعولن).

٢)- الشاعر متأثر بقوله تعالي﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾[سورة هود:١٠٠] .

٣) خول الخلافة : خدمه وفي الحديث "إخوانكم خولكم ...." الحديث

٤)- من أبرز رجال الدولة الأموية ، كانت أيامه أيام فتوح وعمران وكان غيوراً علي محارم الله شديد الخوف منه ، وقد أراد في مرض موته أن يبايع لبعض أولاده فنصحه أحد المخلصين له قائلا: (إنما يحفظك الله في قبرك أن تختار للمسلمين رجلاً صالحا ، فقال له : أستخير الله تعالي وافعل ، ثم جعل ولاية العهد لعمر بن عبد العزيز).

يقول الدكتور/ محمود مصطفي:-

(كان شأن الدولة الأموية أنها حكمت الناس بالسيف المسلول والمال المبذول ، فكان سيفها مصلتاً علي أعدائها ، ومالها متدفقاً في أيدي أنصارها واستمرت في حكمها زهاء قرن لم تغمد السيف يوماً ما).

السبب الرابع: ما عرف عنهم من البطش والنعرة العربية العارمة والعصبية العنيفة جداً ضد الأجانب والتي تزعمها الخلفاء أنفسهم ، كل هذا أثار سخط أقوام وأيقظ الإحن(١) في قلوب آخرين ، وحول تفكير المسلمين من الانتظار ليوم الخلاص إلي الالتفاف حول بني هاشم ليس للعطف عليهم والحب لهم – لأنهم ربما كانوا من آل البيت – وإنما علي معنى أوسع من ذلك وهو الرجاء فيهم والتطلع أن يكون الخلاص علي أيديهم.

لهذا وغيره من الأسباب كانت نهاية دولة بني أمية وزوال عهدها وانقضاء زمنها شيئاً مترقباً ونتيجة محتومة.

وقد يظن ظانٌ بعد ما قُدِّم في بني أمية أن بني العباس كانوا يبرزون في مسوح الرهبان ولباس الأبرار الأطهار ، وشعار الأتقياء الصالحين، أقول له: كيف؟! وهم الذين غيروا هوية الاخلافة الإسلامية إلي أخري غير عربية ، وحكومة شبه أحنبية بما استنوه من سنة عدم الثقة – إلي حد بعيد – في الجنس العربي وعدم الاطمئنان إليهم والاستعانة بهم ، وفتح الباب علي مصراعيه ليدخل منه كل أجنبي طامع ولا يزال سلطانهم يتمكن ، ونفوذهم يمتد ، وحكمهم يطغي ، حتي أصبحوا دولة داخل الدولة ، وانطلقت الأيام مسرعة بهم حتي كان منهم الوزراء ورؤساء الديوان وكبار الكتاب والشعراء والمتصدرون للتدريس والإفتاء ، واللغويون ، ولم يكن ذلك كله عن تساهل المتواني وتخلف الكسول بل كان عن دأب وجد وعمل متواصل .

---

(١) الإحن أو الإحنة : الحقد في الصدر – لسان العرب ج ١ – صـ ٣٥ .

إن الدولة العباسية التي تحول بسببها مجري التاريخ وتغيرت بقدومها معالم الخلافة . كان لا بد أن يكون لها طابع سياسي مختلف عن غيره – رضيت أم أبت – وكان لابد – كذلك – ان يكون من وراء هذا الطابع الجديد ؛ نتاج جديد في الأدب المنظوم والمنثور. وربما كان من الغريب أن يصبح الطابع السياسي شيئاً غير مألوف ، أو معني غير معروف مع أن الدولة لا تزال عربية مسلمة ، والخلفاء لا يزالون من دم عربي وعناصر عربية . فقد قامت الدولة العباسية تحمل في أعطافها معارضة سياسية ، هي معارضة الطالبيين أبناء عمومتهم الذين اعتقدوا أنهم أصحاب الخلافة الإسلامية وأن الدعوة كانت باسمهم ، ولكن العباسيين اغتصبوا حقهم ؛ فوقف الطالبيون منهم موقف الشيعة أو الهاشميين قبل ذلك من الأمويين.

وقد كان شعار الدولة الذي نادت به في الناس منذ أول يوم تربع فيه أول خليفة من خلفائها علي كرسي الحكم ، أنها لا تفرق في الحقوق والمعاملات بين مسلم ومسلم ولا بين عربي وأعجمي ، وقد كان لهذه النغمة صدي طيب ، وقبول واستجابة ، وإعلان عن العهد بأنه عهد راشد ، حكومته العدل وشرعته الإنصاف لأنه لا يفرق بين إنسان وإنسان لاعتبارات تافهة ، وأصبح الذين كانوا بالأمس يطأطئون رؤوسهم خزياً وخجلاً لأنهم غير عرب ، يتطاولون بأعناقهم تسامياً إلي السماء لأنهم يعيشون في ظل سلطان يحميهم وخلافة ترفعهم .

ومع هذه الثقة التي منحها العباسيون بسخاء للفرس ، كان هناك رهبة ظالمة ، وقسوة غاشمة ، وضرب علي أيدي الناس بساط من حديد إذا ظن أنهم خارجون علي الدولة أو غير موالين للخلافة.

يقول الدكتور خفاجي – (كان للخليفة العباسي الرأي الأعلي والسلطان الكامل ، والكلمة النافذة ، والرأي القاطع وربما أوجس في نفسه خيفة

من معاونيه من الفرس فيبطش بهم كما فعل المنصور بأبي مسلم الخرساني ، وكما فعل الرشيد بالبرامكة والمأمون بالفضل بن سهل(١) وفي معرض الحديث عن الحياة السياسية في العصر العباسي الأول **يضيف الدكتور/ خفاجي قائلاً:-**

(شهد هذا العصر عظمة الخلافة العباسية وامتد في ظلال سلطانها العظيم ونفوذها الكبير، وكان عهد استقرار وازدهار، وقد ثبتت قواعد الدولة علي يدي المنصور وامتد نفوذها في كل مكان في أيام المهدي، وتألقت حضارتها وعظمت هيبتها في زمن الرشيد والمأمون وتوالت انتصاراتها العسكرية في خلافة المعتصم وظلت في قوة وازدهار في عصر الواثق والمتوكل)(٢) ولكن في خلال ذلك لا نهمل من شأن تلك الثورات التي أشعلها الشيعة ضد العباسيين ، وظهور فرق الشيعة المطالبة بالخلافة،كالزيدية [٣] في البصرة والإمامية الإثني عشرية [٤] في العراق والإسماعيلية [٥] في شمال إفريقيا ، ولكن جيوش الخليفة العباسي كانت تخمدها وتحمي استقرار البلاد ، ومن الثورات الكبيرة التي كادت تعصف بالخلافة – ثورة الزنج التي استمرت أربعة عشر عاماً ، وثورة القرامطة التي أحدثت اضطراباً كبيراً في البلاد وأغاروا علي الكعبة وقتلوا حجاجها.

وضح إذن أن هذا العصر كان مليئاً بالثورات بيد أن الخلافة في أولها كانت قوية استطاعت أن تخمد هذه الثورات وتترك البلاد وقد سادها الاستقرار.

---

١)- تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول / صـ ٣ الطبعة الثانية ، الناشر / مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة سنة ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١م.

٢)- السابق / ٣ ، ٤ .

٣)- الزيدية : نسبة الي زيد بن علي بن الحسن وقد توفي سنة ١٢٢ هـ.

٤)- فرقة من الشيعة الإمامية أتباع محمد الباقر بن علي بن الحسين وعرفوا بهذا الاسم لأنهم يقولون بوجود سلسلة من الأئمة تنتهي بالإمام الثاني عشر محمد المهدي المنتظر.

٥)- نسبة إلي إسماعيل بن جعفر الصادق المتوفي سنة ١٤٣ هـ

الحياة الاجتماعية
في العصر العباسي الأول

كان لاندماج العرب في أهل البلاد المفتوحة ، ورغبتهم في التعرف إلي تلك الانواع التي تقع عليها أبصارهم ، من ضروب الفنون وألوان المدنية والحضارة أثر بالغ في إقبالهم واستجابتهم لمسايرة هذه الألوان ، وتلك الضروب من الحضارات والمدنيات القديمة والحديثة.

يقول أحمد أمين في كتابه (ضحي الإسلام) : (لئن كان خلفاء الأمويين ينقلون إليهم بعض العادات مع صبغها بصبغتهم ، فالعباسيون كانوا ينتقلون بحذافيرهم(١) إلي العادات الجديدة والتقاليد الطارئة) (٢) وهي عبارة علي وجازتها تدل علي ما كان عليه العباسيون من التنازل عن مقوماتهم والتهاون في تقاليدهم ، والتناسي لعاداتهم ، والتنكر لما انحدروا منها من أصول وما كانوا عليه من أخلاق.

وقد ساعدهم علي ذلك ، ما كان يفد إليهم من أموال الفيئ ، وغنائم الحروب والضرائب ، والجزية ، كل هذه الأشياء في مجملها كانت دافعة إلي اقتنائهم الكثرة الهائلة من الرقيق، وحسان الجواري ، حتي زخرت بهم الدور والقصور وتهيأت لهم بتلك الأموال الطائلة كل سبل الترف والنعمة ، فطعموا في أواني الذهب والفضة ولبسوا أفخر الثياب ، وابتنوا القصور والأواوين(٣)ما جسد لهم أبهة الملك ، وعكس سمات الرخاء وأمارات البزخ.

---

١)- الواحد حذفور وحذفار وهو الجانب، أو الأعلي أو الاصلي , وأخذ الشيء بحذافيره أي بأسره وبرمته وفي الحديث "فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها "

٢)- ضحي الإسلام ص ١١ ج ١ الطبعة الخامسة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ م

٣)- جمع إوان : أو إيوان وهو الصفة العظيمة – ومنه إيوان كسري لسان العرب ج ١ / صـ ١٧٨ .

وكما هو معلوم أن أساس الحياة الاجتماعية في أي أمة من الأمم أو في أي مجتمع من المجتمعات هو الحالة الاقتصادية ؛ فقد وجدنا أن الحالة الاقتصادية في ذلك العصر – بوجه عام – لا تكاد تستقر علي أساس قوي ذلك لأن الاختلاف في الثروات التي كانت عند طبقات ذلك العصر تباين تبايناً تاماً، فالمقربون من الخلافة، ارتفع بنيانهم وكثرت إقطاعيتهم وضياعهم ، إما علي سبيل المكافأة أو الهبة من الخلفاء أو الوزراء إلي جانب ذلك فقد عمت الرشوة ، واستشرت بين طبقات الموظفين الكبير منهم والصغير علي حد سواء ، وكما أسلفت فقد ازدانت موائد طبقات الخاصة – فضلاً عن الخلفاء والوزراء – بأطباق الذهب والفضة كما ازدانت قصورهم بالجواري والعبيد ؛ فكثر نسل الجواري واختلطت الدماء وذاع اللهو والمجون ، وشاع الغناء ، وصار علي أبوابهم الشعراء المادحون وطالبو العطايا– إلي جانب الندماء والمغنيين.

وزاد من خيلاء هذا العصر وزهوه أن زالت الحواجز بين الطبقة العليا وبين من يوالونهم من الفرس.

ولكن الناظر بعين الإنصاف إلي الحياة الاجتماعية في هذا العصر ، سوف يجد أن هذا الترف والنعيم لم يكن عاماً وشاملاً لكل الرعية ، وإنما كان مقصوراً علي الخلفاء والأمراء والوزراء.

يقول أحمد أمين: (ونلمس من ذلك أن الترف والنعيم كانا حظ عدد قليل هم الخاصة من الناس ، وبعض رجال التجارة والصناعة حين كان الفقر والشقاء للعامة وهم أكثر للناس)[1].

---

١)- ظهر الإسلام جـ ١ / صـ ٩٧ ط نهضة مصر.

وفي الجانب الآخر وجدت طوائف أخري من الناس يعيشون تحت وطأة الفقر والإملاق، ويتجرعون كئوس المرارة والمذلة ، فنري من يجد ويكدح ويبالغ في هذا الكدح ليصل فقط إلي الكفاف الذي يصون ماء وجهه من ذل السؤال بالطريق المشروعة أو غير المشروعة.

يقول الدكتور / خفاجي : (ولضيق أبواب الرزق علي كثير من الشعب وقصور وسائل الكسب عن أن تفي بمطالب الحياة ، اتخذ بعضهم تكفف الناس حرفة ، وقعدوا للسؤال كل مقعد ولما استرعي هؤلاء نظر رسول ملك الروم إلي المنصور، قال لعمارة بن حمزة – وكان يرافقه من قبل المنصور في طوافه ببغداد – إني أري عندكم قوماً يسألون الناس ، وقد كان يجب علي صاحبك أن يرحم هؤلاء ويكفيهم مؤنهم وعيلاتهم ، فاعتل له عمارة بوجه ، واعتل له المنصور بوجه) (١).

ولعلي لا اكون مخطئاً ولم يجانبني الصواب إذا قلت ، إن تلك الموجات المتباينة من الطبقية بقيت تتدافع في خضم الحياة الاجتماعية ، مما كان له مع قيام الأحزاب ، واشتعال العديد من الفتن والثورات أبلغ الأثر في تواري نجم العباسيين.

وكيف لا ؟ وقد كان بعض الخلفاء ينفق علي بناء المدن أموالاً طائلة ، فقد أنفق المعتصم أموالا كثيرة جداً علي بناء "سامراء" وكذلك فعل المتوكل في بناء "الجعفري" وتناقل الخلفاء عادات الفرس وأخلاقهم فأصبحوا يلبسون ملابسهم ويأكلون أمثال مآكلهم ومشاربهم حتي أصبحت الحياة فارسية أو تكاد ، والخلفاء يعيشون محجوبين عن العالم يخاطبون الناس من وراء حجاب(٢).

---

١)- تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول / ٨ .
٢)- الفن ومذاهبه في الشعر العربي - شوقي ضيف - ٦٠ بتصرف . الطبعة الثانية عشرة ط دار المعارف.

وتنافس الخلفاء والوزراء ومن سواهم من طبقات الخاصة في الترف وتشييد القصور غير مبالين بمن سواهم ، وغير معنيين – وسط ذلك كله – بأخلاق ولا حميد فضائل بقدر ما كان يعنيهم من تثبيت دعائم الخلافة وقوائم الملك ، ولذلك فقد تحدرت الحياة الاجتماعية تحدراً شديداً تبعاً لتنوع الحالة الاجتماعية إلي طبقية مذمومة، وتحول الناس أنفسهم إلي ناسكٍ ولاهٍ ، وأضحت تلك الحياة مخلفة ورائها ما عرف بعد بالامتزاج الديني ، وتحولت البلاد إلي مسرح تظهر عليه جميع النحل والمذاهب الدينية ، فقامت جماعات تدعو إلي التشيع ، وأخري تدعو إلي الاعتزال وثالثة تدعو إلي السنة ، كما شاعت الزندقة ورقة الدين ، وظهر في الناس من يخفف عن الفقراء ، ويستل سخائم صدروهم علي الأغنياء بالدعوة إلي المساواة وتحول الناس – أيضاً – إلي احتراف الغناء والسعي إلي منادمة الخلفاء والوزراء والتقرب منهم باية حال من الأحوال اضطراراً لا اختياراً ، واحتيالاً علي العيش فراراً من ضغط الفقر ، حتي أصبحنا (نجد الغناء في هذا العصر في كل مكان، نجده في قصور الخلفاء ودور الأمراء ، كما نجده في الشوارع ، وعلي الجسور ونجده في البر كما نجده في النهر) [1].

الناحية الثقافية :

لقد انفتحت علي العقل العربي في عهد بني العباس كنوز فكرية ، ومعارف متباينة ، وأخذت الثقافة طريقها إلي عقول الناس وألبابهم ، وعرفت سبيلها إلي قلوبهم وأفئدتهم ، وازدهرت الحياة العقلية تبعاً لامتزاج الثقافات ، إذ كانت الدولة آنذاك مزيجاً من شعوب كثيرة ، ولكل شعب ما يبرع فيه من العلوم ، ومن

١)- السابق / ٦١ .

كانت الغلبة والذيوع للثقافة العربية الإسلامية لأنها – ما زالت – قوام العقل العربي.

إن طفرة عظمي قد طفرت إليها الدولة في عهدها الجديد فلم تعد مقصورة علي علوم الدين واللسان فقط كما كانت من قبل – ولكن ضرورة التوسع في الملك والزيادة في وسائل العمران ، والتقدم في الحضارة ، وانتقال أمة بأسرها لها تاريخ عريق في العلم والسياسة والملك ، لتنضم إلي أمة أخري تكون وإياها مزيجاً جديداً من الحياة الاجتماعية لابد أن يكون وراءه جديد – أيضاً – في الثقافة والمعرفة والعلم والحضارة.

ومجرد تخيل هؤلاء الفحول الذين كانوا يقودون زمام الثقافة في ذلك الوقت، ويتولون أمور الدولة ويظهرون علي مسرح الفكر الإنساني من أمثال الجاحظ وابن المقفع ، والخليل بن أحمد ، والأصمعي ، وأبى عمرو بن العلاء ، وأبي عبيدة وأضرابهم ممن كانوا منارة للناس ، يعكس لنا كيف أن الثقافة كانت مكتملة الوعي ، نشطة الحركة ،قوية الدفع ، دائبة الرقي والتقدم . ولعل من أبرز الأمثلة علي أن الثقافة بلغت أوجها وانتهت الي غايتها ، ان مجالس الخلفاء أنفسهم كانت مدارس علم ، ومواطن معرفة وملتقي أفكار ، حيث تحتك العقول وتتصارع الآراء بين أقطاب الثقافة ، وفحول العلم والمعرفة.

يقول الدكتور / خفاجي ، (ازدهرت الحياة العقلية في هذا العصر ازدهارا كبيراً ، وتلاقت في الحواضر الإسلامية شتي الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العريقة في العلم والثقافة ، وأخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية في شتي جوانبها ويضفون عليها ظلال رعايتهم وتشجيعهم ، وكانوا يبالغون في إكرام الأدباء والعلماء ويجالسونهم ويقربونهم إليهم ، وصار العلم والأدب وسيلة إلي المناصب

العالية والنفوذ والجاه ، وكان كل من نبغ في العلم ، أو شهر بالأدب ترفع منزلته ، ويتنافس العظماء في تكريمه كما يتنافسون في إنشاء دور العلم وترجمة الكتب إلي العربية من مختلف اللغات) (١) .

وهكذا صارت الثقافات التي كان للإسلام كبير الأثر في مزجها تلتقي في تلك المراكز علي مر السنين حتي امتزج بعضها ببعض ، فإن من اعتنق هذا الدين من غير العرب ، كان يري لزاماً عليه أن يتعلم العربية وآدابها ، حتي يتيسر له قراءة القرآن ودراسته ، وبذلك يجمع بين ثقافته القومية والثقافة العربية فنشطت حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي ، وتقدمت صناعة الورق ، وتبع ذلك ظهور الوراقين ، واتخاذ أمكنة فسيحة يجتمع فيها العلماء والأدباء للتزود من العلم، فكثرت تبعاً لذلك المكتبات التي كانت تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية ، وصارت هذه المكتبات فيما بعد أهم مراكز الثقافة الإسلامية ومن أشهر هذه المكتبات (بيت الحكمة) الذي يرجح أن الرشيد هو الذي وضع أساسه وعمل المأمون من بعده علي إمداده بمختلف الكتب والمصنفات ، ويعد من أكبر خزائن الكتب في العصر العباسي ، وقد ظلت هذه الخزانة قائمة حتي استولي المغول علي بغداد في منصف القرن السابع الهجري (٦٥٦هـ) . وكانت تحوي كل الكتب في العلوم التي اشتغل بها العرب.

وكان للناس في ذلك العصر من البحث والتنقيب والترجمة والتأليف حركة قل أن يوجد لها نظير في تاريخ العلم.

وهكذا ظهر النشاط العلمي علي أتمه في كل الفروع وعلي اختلاف الأنواع ، وكان أشهر هذه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية (وكانت هذه الثقافات

---

١)- تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول / صـ ١٣ .

المتعددة تؤلف التراث العلمي في ذلك العصر وفيها زبدة علوم الآشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس والرومان ، وكان لابد للرجل المستنير أن يأخذ بحظ من الثقافات جميعاً)(١).

وههنا سؤال يطرح نفسه مفاده:

لماذا كان الاهتمام بالنقل والترجمة متناولاً للفلسفة والطب والرياضيات وغيرها من العلوم غير متناول للأدب ؟

وربما كان الجواب عن هذا السؤال من ناحيتين،-

الناحية الأول: أن الأدب غير العربي وبالأخص الأدب اليوناني كان يتصدي كثيراً لأسماء الآلهة وما يجري علي ألسنتهم من آراء وفلسفات ، والعرب لم يستسيغوا ذلك ولم يقولوا به.

الناحية الثانية: أن الأدب خاضع للذوق ، والذوق يختلف باختلاف الناس.

ولعلي بعد هذا العرض أكون قد قربت إلي ذهن المتلقي ، كيف كانت الثقافة تأخذ طريقها إلي عقول الناس لدرجة أنه يستطيع – من غير ريبة ولا تردد– أن يدرك أنّ مدارس هذه الثقافة كانت متمثلة في الحلقات التي كانت تعقد في المساجد التي لم يعرف المسلمون قبلها بناء شرفه الله بالعلم وطهره بالعبادة ، ورفعه علي سائر الأمكنة بنسبته إليه وقد قامت هذه المساجد بدورها في الثقافة والمعرفة قبل أن يعرف الناس دور العلم ومعاهده وجامعاته.

وكان إلي جوار المساجد من روافد الثقافة المكتبات – العامة والخاصة – ثم حلقات المناظرة التي تقوم بين الأساتذة والفحول من حملة المشاعل أمثال:سيبويه والكسائي والهمذاني والخوارزمي .

١)- السابق صـ ١٥ .

والفرق الإسلامية كالشيعة والخوارج والمعتزلة وأهل السنة وكبار العلماء وحوارييهم من الطلاب الذين يرغبون في الاختلاف إليهم والأخذ عنهم ، والالتفاف حولهم .

وكان هناك رافد آخر له عظيم الاهتمام والتقدير عند المسلمين منذ زمن بعيد ذلك هو الرحلة التي يتحملون مشاقها في طلب العلم وكانوا يعتقدون أن العلم لا ينقاد إلا لمن يضرب له أكباد الإبل ويشد له الرحال ويطوي له المسافات البعيدة.

المبحث الثاني
حياة الشاعر (أبي تمام)

مولد أبى تمام ، ولد أبو تمام – على ما أخذ من المصادر والنصوص التاريخية بين عام ١٨٨ ، ١٩٢ هـ .

واختلف في السنة التى ولد فيها ؛ فقيل سنة ١٧٢ هـ وقال بهذا " ابن خلكان " وقيل سنة ١٨٢ أو ١٨٨ أو ١٩٠ هـ ويروى ذلك " أبو بكر الصولى " فى كتابه " أخبار أبى تمام " .

فيروى عن عون بن محمد الكندى أنه قال ، (قرأت على أبى تمام شيئا من شعره فى سنة سبع وعشرين ومائتين وسمعته يقول : (مولدى سنة تسعين ومائة).

ثم ينقل رواية أخرى عن تمام بن أبى تمام انه قال : (مولد أبى سنة ثمان وثمانين ومائة) وقيل إنه ولد سنة ١٩٢ هـ وقال بذلك ابن خلكان أيضا . فيقع الاضطراب فى مولد أبى تمام فى عشرين سنة) (١).

وكان مولده فى قرية يقال لها "جاسم" وهو اسم قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ على يمين الطريق الأعظم إلى طبرية كما يقول ياقوت الحموى فى معجمه(٢) .

ويقول الأصفهانى صاحب الأغانى،(مولده ومنشؤه منبج ، بقرية منها يقال لها جاسم)(٣) ومنبج هى تلك القرية التى ولد فيها البحترى .

---

١)- أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره / نجيب محمد البهبيتي ص ٥٠ وقد أفاض في مرجحات سني ميلاد أبي تمام ومن أراد التوسع في ذلك ينظر ص ٥٠ وما بعدها – ط دار الثقافة – الدار البضاء.

٢)- معجم البلدان ج ٢ ص ٩٤ ط دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣)- الأغاني ج ١٦ ص ٣٨٣ ط دار الكتب تحقيق عبد السلام هارون.

يقول الدكتور / محمد نبيه حجاب :-

(ولد فى قرية جاسم بالقرب من منبج ودمشق [١]ومن الملاحظ أن هذه البقعة من الأرض (وأعنى بها منبج ، وجاسم) كان لها كبير الحظ من الشهرة والذيوع فكان من جاسم أبو تمام ، ومن قبله كان عدى بن الرقاع العاملى الطائى[٢] وكان منها البحترى أيضاً .

● يقول صاحب " خزانة الأدب " :

(ولد فى جاسم بالجيم والسين المهملة ، وهى قرية من قرى الجيدور بفتح الجيم وسكون المثناة التحتية ، وهو إقليم من دمشق) [٣].

ويبدو أن جاسما قد اشتهرت بجآذرها [٤] - كما يقول الدكتور البهبيتى

يقول الشاعر الطائى عدى بن الرقاع العاملى :

وكأنها بين النساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم

في هذه البقعة ولد ابو تمام [٥].

● نسب أبى تمام :

جاء فى "وفيات الأعيان " لأبى العباس شمس الدين ابن خلكان ما نصه :

(أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الاشج بن يحيى بن مروان بن مر بن سعد بن كاهل بن عمرو بن عدى بن عمرو بن العوث بن طئ - واسمه

---

١)- معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ص ٢٤٤ الطبعة الثانية ط دار المعارف . وهو أستاذ للأدب في كلية دار العلوم جامعة القاهرة حديثاً.

٢)- هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع،من عاملة ، نسبه الناس إلي الرقاع وهو جد جده لشهرته، وكان شاعراً مقدماً عند بني أمية وتوفي سنة ست وعشرين ومائة(الموشح للمرزباني ص ٣٠٠).

٣)- خزانة الأدب ج ١ ص ٣٥٧ .

٤)- جمع جؤذر وهو ولد البقرة ، او البقرة الوحشية.

٥)- أبو تمام الطائي ص ٤٨ .

جلهمة – بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن يشجب بن يعرب بن قحطان الشاعر المشهور [١] .

وذكر الخطيب البغدادى فى كتابه " تاريخ بغداد " مثل ذلك مع اختلاف بسيط في ترتيب وذكر بعض آبائه ، فجعل بين يحى ومروان " مزينا بن سهم بن ملحان " وجعل بين كهلان ويشجب ، بن سبأ . [٢]

وذكر أبو الفرج الأصفهانى فى " أغانيه " أنه : (حبيب بن أوس الطائى، من نفس طيئ صليبة) [٣] وقال مثل الأول فى التعريف بأبى تمام . عبد القادر بن عمر البغدادى فى كتابه " خزانة الأدب " .

وقال ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب " : (أبو تمام الطائى حبيب بن أوس الحورانى) [٤]

● نشاته :

نشأ أبو تمام وتربى فى دمشق إحدى دور العروبة من قديم ، فقد انتقل به أبوه وهو صغير – إلى دمشق وبها كانت نشأته الأولى ، وإن كانت الآراء قد تضاربت فى نشأته ، فقيل إنه نشأ بمصر يسقى الناس فى مسجدها الكبير" جامع عمرو بن العاص " ولكن الذى عليه أكثر المؤرخين أنه نشأ بدمشق بعد ما نزح أبوه من جاسم إلى دمشق .

نشأ أبو تمام نشأة لم يكن فيها بدعا من أقرانه وأبناء عصره (فقد نشأ أبو تمام بين أبوين فقيرين فلم يرض بعيشة الفقر بينهما ، بل نزح إلى مصر فى

---

١)- وفيات الأعيان ج ٢ ص ١١ / ط دار صادر بيروت.

٢)- تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٤٨ ط دار الكتب العلمية – بيروت.

٣)- الأغاني ج ١٦ ص ٤١٤ وصليبة . أي خالص النسب ليس من مواليها ولا من حلفائها.

٤)- شذرات الذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ج ٢ ص ٧٢ الناشر – مكتبة القدس . وحوران بلد بسورية.

طلب الرزق كما قيل وهو غلام صغير، ولأهل الشام من قديم حبهم فى الهجرة طلبا للرزق لأن طبيعة بلادهم تضيق عنهم) [١].

وهذا نفس ما ذكره الدكتور / البهبيتى فى قوله ، (ولا أظنه نشأ إلا كما ينشأ أبناء الفقراء من أهل عصره ، يرسل إلى مكتب "كتاب" القرية ليتعلم القراءة والكتابة، وليحفظ القرآن الكريم ، ودعك من نصرانية أبيه ، فما كانت إلا افتراء من افتراء خصوم أبى تمام وقد حفظ أابو تمام القرآن كما يبدو ذلك فى شعره ، ولكنا لا نعلم أكان ذلك فى القرية أم بعد نزوله مصر واتصاله بجامعها الأكبر ؟ وأغلب ظنى أنه حفظه فى مصر، فلم يترك أبو تمام طويلا في الكُتَّاب (٢) ولأن أباه كان عطارا فقيرا، يكسب قوته من عمله كان حريصا على أن يتعلم ابنه حرفة يتكسب ويعيش من ورائها ، فما لبث أن أخرج ابنه من الكتاب ليدعه عند حائك كى يحسن حياكة الثياب ، وقضى شبابه مساعدا لنساج فى دمشق – على حد تعبير ابن عساكر فى "تاريخ دمشق "[٣].

حيث قال فى سند ينتهى إلى يحى بن صالح أبى الوليد ، قال :

(رأيت أبا تمام الطائى ، حبيب ابن أوس بدمشق ، غلاما يعمل مع قزاز، وكان أبوه خمارا بها) [٤].

- **شخوصه إلى مصر :**

يبدو أن صنعة الحياكة لم ترق لأبى تمام فترك دمشق ونزح إلى مصر وهو غلام صغير سنه دون السابعة عشرة ، ولم يخيل لأحد أن هذا الفتى سيصبح

---

١)- مدرسة أبي تمام بين قدامي المولدين والمتاخرين لـ / عبد المتعال الصعيدي ص ١٦ نسخة مودعة بدار الكتب المصرية .

٢)- ابو تمام الطائي ص ١٦.

٣)- تاريخ دمشق ج ٤ ص ١٩.

٤)- السابق ج ٨ ص ٢٧٩.

يوما ما سيد شعراء العربية ، ولا حتى لأبيه الذى كان كل أمله ومنتهى تطلعه فى استشراقه لمستقبل ابنه أن يراه صورة مكرورة من هذا الحائك الذى أودعه عنده ولم يزد فيه أمله على ذلك

وتجدر الإشارة هنا إلى أن رحيل أبى تمام فى هذه السن المبكرة ما يقطع بقوة نفسه وعلو همته .

ولا أرى رحيل أبى تمام إلى مصر إلا طلبا للمال والشهرة فى مظانها ، بعد أن خاب أمله أن يجد ذلك حيث كان .

وصل أبو تمام إلى مصر وأقام بمسجدها الكبير " مسجد عمرو بن العاص " ما يقرب من خمس سنوات يقول أبو تمام :

أخمسة أعوام مضت لمغيبه وشهران بل يومان نكل من النكل[1]

والمجمع عليه أنه كان يلازم " مسجد عمرو " يخدم أهل العلم والأدب ويسقى به الماء ، وكأنى بأبى تمام أراد أن يسقى الناس الماء ، ويستقى منهم العلم والأدب ، فكأنه أراد أن يبادلهم كأسا بكأس .

وغنى عن البيان ، أن مصر القاهرة " الفسطاط " في ذلك الوقت كانت مركزا للعلم والأدب ، ومنبع هذه العلوم والآداب هى المساجد .

نزل أبو تمام مصر كغيره من الشعراء الذين سبقوه من أمثال "جميل بن معمر" العذرى صاحب " بثينة " والذى مات بمصر عام ٨٣ هـ وكثير عزة ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، ووردها أيضا ، نصيب بن رياح الشاعر " أبو محجن " وأبو نواس " وأقام بها مدة ثم أمها أبو تمام وجاء من بعده كثيرون أيضاً (٢).

---

١)- شرح الديوان للتبريزي ج ٤ ص ٥٢٢ ط دار المعارف وروي البيت بأكثر من رواية فقيل ، بكل من البكل ، وثكل من لبثكل . والنكل هو القيد الشديد والجمع انكال ، قال تعالي " إن لدينا انكالا وجحيما".
٢)- ابو تمام الطائي / ٦٦ بتصرف.

وكأن مصر تجتذب القلوب إليها وتجرى الشعر على لسان من يردها جريان النيل. (ففى مصر أبدا ذلك القبس الخالد من المعرفة والإلهام والجمال المتفجر نوره ، في سحر يجتذب القلوب ، ومصر التى هددت العالم من قبل على ضوء حضارتها وجهادها فى سبيل البشرية ، وقد ساهمت [١] على مرور الأيام فى بث هذا النور فى قلب كل من أودع الإنسانية ثمرة من عبقرية أو أثرا من هداية) [٢] .

إذن فقد أخذ أبو تمام منذ نعومة أظفاره يختلف إلى حلقات المساجد فهيأ له ذلك فرصة لدراسة الشعر العربى وقواعده ، واستطاع أن يحفظ الكثير من عيون الشعر العربى ، وأخذ يحاكى أعلامه القدامى وأرى أن ذلك راجع إلى موفور حظه من الذكاء والفطنة وصدق الحدث .

أخذ أبو تمام يتردد على جامع عمرو يسقى الماء ويستقى العلم (وكان يلازم حلقات الأدب خاصة . فإذا طلب أحد ما شربة ماء سقاه ثم رجع إلى مكانه الأول يستمع الى إملاء الأديب أو مناقشة أصحابه ، ولعل ذلك في السنوات الأولى من القرن الهجرى الثالث وعمره يومذاك نحو عشرين عاما[٣].

وهكذا حصّل أبو تمام غير قليل من الشعر حتى أثر عنه أنه كان يحفظ أربعة الآف ديوان شعر وأربعة عشر ألف أرجوزة على ما يقول ابن خلكان . ولم يقل الشعر قبل أن يحفظ سبعة عشر ديوان شعر للنساء فضلا عن الرجال ، كما يقول ابن رشيق فى العمدة ، وأنه كان يحفظ القران الكريم ، وأنه حفظ ديوان مسلم بن الوليد وأبى نواس (إلى جانب شئ من القصص وإلى شئ من التاريخ والى شئ

---

١)- الأصح : أسهمت . لأن المساهمة هي الاقتراع . قال تعالي ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [سورة الصافات:١٤١] وقد تكون المساهمة وخيمة العواقب كما هو ظاهر من معني الأية.

٢)- ابو تمام الطائي ص ٦٦

٣)- ابو تمام / عمر فروج ص ١٤ الطبعة الأولي الناشر مطبعة الكشاف . بيروت.

من الفقه وإلى شئ من الحديث وإلى شئ من الفلسفة ويخلط هذا بذاك ويحفظ ما استطاع أن يحفظ) [١].

(وبعد أن سقى أبو تمام الماء فى جامع مصر ، واستقى العلم وفنون القريض؛ترك السقاية واتصل برجل حضرمى يدعى عياش بن لهيعة وأخذ بمدحه)[٢] .

ولعل السبب فى توليته وجهه نحو (عياش) اليمنى صاحب الخراج هو ما بينهما من أواصر النسب والقرابة ، ويعلن إليه ذلك مجاهرا به مفاخرا :

وأنت بمصر غـايتى وقرابتـى	بها وبنو الآباء فيها بنو أبـى

فـابن لهيعـة وكل أفراد اليمن بمصر أهله وقرابته وأشقاؤه فى الأبوة والنسب وابن لهيعة غايته من بينهم ، فأخذ الشاعر بمدحه ويكثر من مدحه له راجيا نوال ما عنده من الأموال مستشفعا بتلك القرابة وذلك النسب . لكن الشاعر قوبل من عياش بما لا يرجوه .

فإن عياشا لم يزد على أنه كان يعده ويمنيه ثم يمطله ، ولم يجد الشاعر منه إلا مطلا فاخذ يستبدل بمدحه هجاء .

يقول / عمرو فروخ ، (فما مر عام حتى ضاق الشاعر ذرعا وعاتب عياشا بقوله ،

الفطر والأضحى قد انسلخا ولى	أمل ببابك صائم لم يفطـر !
عام ولـم ينـتج نـداك وإنمـا	تتوقع الحبلى لتسعة أشـهر !
جش[٣] لى ببحر واحد أغرقك فـى	مدح أجيش له بسـبعة أبحـر
قصّر ببذلك عمر مطلك تحـولى	حمدا يعمر عمر سبعة أنسـر

---

١)- كان رئيسا للشرطة وديوان الخراج بمصر أثناء ولاية عبد الله بن طاهر من سنة (٢١١-٢١٣) وكان ابوه أول قاض بمصر من قبل خليفة، ولاه المنصور قضائها سنة ١٥٥ (وفيات الأعيان ج١ ص ٣١٣).

٢)- أبو تمام / عمر فروج ص ١٤.

٣)- فعل أمر من جاش يجيش ، أي يتدفق ويجري بالماء أو زخر وامتد جدا. لسان العرب ج ١ ص ٧٣٨.

كم من كثير البذل قـد جازيتـه   شكراً بأطيب من نداه وأكثـر
شـر الأوائـل والأواخـر ذمـة   لم تصطنع وصنيعة لم تشكر(١)

ولما لم يجد أبو تمام من عياش سوى مطل على مطل أخذ يجوه هجاء مرا(٢).

وقال بذلك الدكتور / فروخ فى كتاب له آخر(٣).

ومثل ذلك قال به الدكتور / محمد نبيه حجاب فى كتابه (معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسى الأول) (٤).

ولكنا نجد قولاً مخالفاً لما ذكر آنفا قال به الدكتور / نجيب البهبيتى فى كتابه (أبو تمام الطائى) يقول ، (ولكن الصولى يقول لنا نقلا عن البحترى أن أبا تمام قال له : أول شعر قلته .

* تقى جمحاتى لست طوع مؤنبى *

ومدحت بها عياش بن لهيعة فأعطانى خمسة الآف درهم . وقال الدكتور البهبيتى هذا الكلام نقلا عن الصولى فى كتابه (أخبار بى تمام) ص ١٢١ (٥).

والرأى عندى ، أن عياشاً الحضرمى قد كافأ أبا تمام عن القصيدة التى مدحه بها والتى مطلعها .

* تقى جمحاتى لست طوع مؤنبى *

بخمسة الآف درهم كما أسلفت ، حتى إذا ما عاود أبو تمام مدح عياش لينال منه مثل ما نال فى المرة الأولى ؛ وجد غير ما كان ينتظره منه . خاصة وأنه

---

١)- شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي ج ٤ ص ٤٥٤.
٢)- أبو تمام ص ١٥.
٣)- تاريخ الأدب العربي – الأعصر العباسية / ٢٥٢
٤)- ص ٢٤٥ الطبعة الثانية ط دار المعارف.
٥)- أبو تمام الطائي ص ٦٣.

ليس فى ديوان أبى تمام سوى قصيدة واحدة فى مدح عياش غير القصيدة الأولى ومطلع القصيدة الثانية :-

أحيا حشاشــة قلــب كــان مخلوســا　　　ورم بالصبر عقلا كان مألوســـا (١)

سرى رداء الهوى فـــى حـــين جدتـــه　　　واها له منه مسروّاً وملبوســـا ! (٢)

فلما لم يلق منه ذلك العطاء والتكريم الذى لقيه منه فى المرة الأولى أخذ يهجوه .

ويفسر لنا صاحب (العقد الفريد) سبب ذلك الهجاء بوجه اخر هو: أن أبا تمام استسلف عياشا مائتى مثقال ، فشاور فيه زوجته فقالت له :

(هو شاعر، يمدحك اليوم ، ويهجوك غدا ، فاعتل عليه واعتذر إليه ، ولم يقض حاجته) (٣).

وطال المطل من عياش لأبى تمام ، فما ملك أبو تمام إلا أن يعاتبه بقصيدة بدأها بقوله :

صدفت لُهيّـا قلبـي المستهتر　　　فبقيت نهب صبابة وتـذكّر (٤)

وهى نفس القصيدة التى فيها قوله:-

* الفطر والأضحى قد انسلخا *

وظل يهجو عياشا لا ينقطع عن هجائه ، ولا ينسى يده عنده ، حتى مات عياش ، فلم يمسح الموت الجبار ذلك الأثر الذى تركه عياش فى قلب أبى تمام فهجاه بعد موته بقوله :

إنى على مـا نـالنى لصـبور　　　وبغير حسـن تخلـد لجـدير

---

١)- شرح الديوان ج ٢ ص ٢٥٣ / الحشاشة : بقية النفس مخلوس : مخطوف رم : أصلح المألوس / المجنون.

٢)- سري : خلع واها : كلمة تقال عند التعجب . مسروا: مخلوعاً.

٣)- العقد الفريد ج ١ ص ١٤٤ ط الجمالية.

٤)-شرح الديوان ج٤ ص ٤٤٩ .ولهيا : تصغير لهو ثم نسبه إلي نفسه وقيل هو اسم امرأة،وهو تصغير لهوي– ولهيا.

ومنها :

فكت أكف الموت غُلّ قصائدى .عنه وضيغمها عليه يزير

ما زال غل الذم ثانى عطفه حتى أتاه الموت وهو أسير

ومنها :

وأرى نكيرا صد عنك ومنكرا ظنا بأنك منكر ونكير

وتضور القبر الذى أسكنته حتى ظننا أنه المقبور (١)

وهجاه بقصيدة أخرى مطلعها :

لا سُقِيت أطلالك الداثرة ولا انقضت عثرتك العاثرة (٢)

(وهكذا شيع أبو تمام الرجل إلى قبره بالسباب فى غير رهبة لحرمة الموت وجلال القبر) (٣).

ولأبى تمام فى هجاء عياش قصائد غاية فى القذاع ومنها قصيدة بدأها بقوله :

ستعلم يا عياش إن كنت تعلم فتندم إن خلاّك جهلك تندم

أبى لك أن تأبى المخازى كلها أبٌ أندرهلى وجد معلم

ومنها :

وقفت عليك الظن حتى كأنما لديك الغنى أو ليس فى الأرض درهم

وكفكفت عنك الذم حتى كأنما أجارك مجد أو كأنى مفحم

ومنها :

فأيسر من تسآلك العى والعمى وأعذب من إحسانك القيح والدم

فإنك من مال وجود ومحتد لأعدم من أن يستريشك معدم

---

١)- شرح الديوان ج ٤ ص ٣٦٠.

٢)- السابق ج ٤ ص ٣٦١.

٣)- أبو تمام الطائي / ٨٥.

ويخرج أبو تمام عياشا من أهل حضرموت واليمن لا لشئ إلا لأنه غير كريم وكأنما أراد أن يقول (إن أهل اليمن لا سيما حضرموت وطئ قد عرفوا بالكرم وصار ذلك عليهم فمن لم يكن كريما جوادا سمحا فليس منهم ، فيقول ،

ومالى أهجو حضر موت كأنهم	أضاعوا ذمامى أو كأنك منهم؟!(١)

وقصيدة أخرى لا تتجاوز بعض الأبيات يهجو فيها عياشا هجاء ممزوجا بالتهكم والسخرية فيقول :

صدق أليته إن قال مجتهدا	(لا والرغيف) فذالك البر من قسمه !
فإن هممت به فافتك بخبزته	فإن موقعها من لحمه ودمه !
قد كان يعجبني لو أن غيرته	على جرادقة كانت على حرمه!(٢)

وفى قصيدة أخرى قال يهجوه ،

الزنج أكرم منك والروم	والحين أيمن منك والشوم
عياش إنك للئيم وإنني	مذ صرت موضع مطلبى للئيم
السحت أطيب من نوالك مطمعا	والمهل والغسلين والزقوم (٣)

ومنها ،

لما بدا لى من صميمك ما بدا	بل لم يصب بك-لا أصيب-صميم
جرّدت فى ذميك خيل قصائد	حالت بك الدنيا وأنت مقيم
ألحقن بالجميز أصلك صاغرا	والشيح يضحك منك والقيصوم

---

١)- شرح الديوان ج ٤ ص ٤٢٣.
٢)- السابق ج ٤ ص ٤٢٤ - والجردقة معروفة فارسية معربة الرغيف.
٣)- شرح الديوان ج ٤ ص ٤٢٥

وغرضه من البيت أن ينفيه عن العرب لأن الشيح والقيصوم ينبتان في ديارهما ومنازلهما ، يقول إنما ولدت في أرض الجميز وهو كثير في القرى التى يسكنها النبط وأخلاط الناس (١) ومنها :

طبقات شحمك ليس يخفى أنها ... لم يبنها آء ولا تنوم (٢)

يا شارباً لبن اللقاح تعزياً ... الصبر من يقنيه والحالوم (٣)

والمدعى صوران منزل جده ... قل لى لمن أهناس والفيوم؟! (٤)

والشاعر يهجو عياشا بالتوسع فى المأكل ، والعرب ليست كذلك وإنما يصفون أنفسهم بالخمص وقلة الأكل ، **ويقول له** : إنك لست عربى فتميل إلى لبن اللقاح وإنما عادتك أن تأكل الصَبِر.

... وهكذا أصبحت إقامة أبى تمام فى مصر ضنكا فلم تكن على ما يرام ، لأن أمله قد خاب فيها بعد أن ضاقت به الحال ووجدنا أثر ذلك فى شعره الذى قاله فيها ... يقول :

لقد طلعت فى وجه مصر بوجهه ... بلا طالع سعدٍ ولا طائرٍ سهل

وساوس آمال ومذهب همة ... تخيل لى بين المطية والرحل

نأيت فلا مالاً حويت ولم أقم ... فأمتع إذ فجعت بالمال والأهل

بخلت على عرضى بما فيه صونه ... رجاء اجتناء الجود من شجر البخل(٥)

وعلى هذه الوتيرة يسير غالب شعره فى مصر ، نفثات متبرم ، وسخط مستثقل للإقامة فى بلد رجا الجود من شجره ، فاستبان أن شجره لا ينبت إلا

---

١)- السابق ج ٤ ص ٤٢٦.
٢)- الآء والتنوم : ضربان من النبت تأكلهما النعام.
٣)- الحالوم ضرب من الأقط.
٤)- صوران : قرية بالشام – وأهناس والفيوم موضعان بنواحي مصر.
٥)- شرح الديوان ج ٤ ص ٥٢٤.

البخل فأيقن أن ما كان يتوخاه فى مصر لن يلقاه وخاصة بعد نشوب العصبيات فيها ، بعد مقتل عمير بن الوليد الخراساني ، عامل مصر الذى قتل في ربيع الأول سنة ٢١٤ هـ أثناء فتنة داخلية (١) والذى قتله مبارك الأسود مولى حميد بن كوثر الحرشى

فقال أبو تمام :

ألا رزئــت خراســان فتاهــا   غداة ثوى عمير بــن الوليــد

وأيضا عندما تولى عيسى بن يزيد الجلودى على مصر وانهزم أمام أهل الحوف ، **ذكر ذلك أبو تمام فقال :**

الله أرهقـــك الهزيمـــة إذ   جذبتك آجال الردى جذبا (٢)

ومهما يكن هناك من سبب لترك أبى تمام مصر سواء أكان القضاء المعاكس الذي حال بينه وبين الغنى ، أم كانت الفتن الداخلية التي نشبت في ذلك الوقت ، فإن أحدا من الناس لا يستطيع أن ينكر فضل مصر على الشاعر.

(فقد نزلها طفلاً لم ييفع يطلب الغنى ، فوهبت له علما ، وغمرت قلبه نورا وفتحت عينيه على دنيا جديدة ، وأشاعت فيه أملا واسعا ، ولكنها لم تهب له من المال ما كان يطمح إليه ، قذفت به إلى الدنيا بعد أن أعدته أحسن الإعداد وزودته بسراج يستعين به على اقتحام الدهر وأحداثه ، ولكنه كان ممدود اليدين ، يريد أن ينال بهما جميعا . فلم يجد بإحداهما ما طلب ، ألهاه ذلك عما باليد الأخرى فانتقل غاضبا فى شيئ من يأس الشباب ولكنه لم يكن نذلاً ، فلم يخلط بين الوطن الذى آواه ، وبين الرجل الذى ضن عليه) (٣).

---

١)- أبو تمام / عمر فروخ / ١٦.

٢)- حماسة أبي تمام وشروحها– حسين محمد نقشة ص٦٦ ط الهيئة العامة للكتاب.ولكن البيت في الديوان تختلف فيه بعض الألفاظ فهو فيه هكذا:

الله أعطاك الهزيمة إذ   جذبتك آجال الردي جذبا

٣)- أبو تمام الطائي ص ٨٩ - ٩٠

رحيله عن مصر الى الشام

رأينا كيف وصل الضيق النفسي والمادي إلى ذروته عند أبى تمام فأصبح متبرما ضيق الصدر بالإقامة في مصر ، ويبدو - أيضا - أن حنينه قد نازعه إلى أهله وأحبائه لا سيما بعد أن طال أمد افتراقه عنهم وشوقه إليهم فعاد أبو تمام إلى الشام وأمّ دمشق ، ومكث بها وفى العام التالي كان الخليفة (المأمون) [1] مارا بدمشق آيبا من غزو الروم وكان ذلك عام (٢١٥ هـ) فتعرض له أبو تمام بالمديح ولكن المأمون أعرض عنه ووبخه .

ذلك (لأن المأمون في تلك الأثناء كان قد انقلب على آل على وأحنقه أن يرى أبا تمام يمدحهم بعيون القصائد ويعرّض فيها ببنى العباس) [2].

وظل أبو تمام يمدح ثم يعود فيهجو من كان مدحه لأنهم لم يقدروه قدره ولم يمنحوه ما كان يتطلع إليه ، وبعد أن أوصد المأمون الباب في وجهه وخاب أمله في أن يأخذه معه إلى بغداد ويكون ضمن بلاطه (لم يجد بداً من التطواف فى غيرها من البقاع ، فرحل إلى ما بين النهرين وشمال سورية وأرمينية ثم إلى حمص وألقي بها عصا التسيار زمنا وفيها قصده البحتري بشعره يعرضه عليه ويستمع إلى نصائحه ووصاياه) [3].

وقال الدكتور / عمر فروخ (اعتزل إلى شمالي الشام وشمالي العراق وإلى أرمينية وقضى معظم أوقاته في الموصل) [4].

---

١)- الخليفة السابع من خلفاء الدولة العباسية ، ولي الخلافة عام ١٩٨ هـ / ٨١٢م بعد أخيه الأمين وظل علي راس الخلافة حوالي عشرين عاماً.

٢)- معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول / محمد نبيه حجاب ص ٢٤٦.

٣)- السابق ص ٢٤٦.

٤)- تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية ص ٢٥٢

ويبدو أنه ظل مدة يتنقل بين الموصل وحمص ويمكث هنا وقتا وهناك آخر ولكن الثابت أنه زار أرمينية خاصة ، وأنه مدح واليها خالد بن يزيد الشيباني – بعدة قصائد تنضح أبياتها بكرم خالد على أبى تمام من مثل قوله :

يا سائلى عن خالد وفعاله ... رِدْ فاغترف علما بغير رشاء [1]

وقوله :

إلى ملك لولا سجال نواله ... لما كان للمعروف نِقى ولا شخب[2]

من البيض محجوب عن السوء والخنا ... ولا تحجب الأنواء من كفه الحجب

مصون المعالى لا يزيد أذاله ... ولا مزيد ولا شريك ولا الصلب[3]

وقوله:

بجودك تبيض الخطوب إذا دجت ... وترجع فى ألوانها الحجج الشهب

إذا سبب أمسى كهاما لدى امرئ ... أجاب رجائى عندك السبب العضب(٤)

وفى سنة ٢١٨ هـ - ٨٣٣ م توفى المامون ، وجاء من بعده على كرسى الخلافة أخوه (المعتصم) وكأنما كان موت المأمون هو رتاج الباب الذى قد كسر وكأنما الدنيا أرادت أن تقبل علي الشاعر بوجهها ، وفتح المعتصم ما كان أغلقه المأمون وأوصده من أبواب في وجه أبى تمام ، فلقد لمع نجمه ، وبزغ ، وكثر شعره فسمع به المعتصم (فاستدعاه وهو فى سامراء " سر من رأى " ومكث في رحابه زمنا يمدحه ويظفر بجوائزه ، ويبدو أنها كانت دون ما يطمع إليه) [5].

ويبدو أن طبيعة أبى تمام لن تتغير في الإلحاح في الطلب ، واستعجاله فإذا ما أبطأ ممدوحه عليه أو كان عطاؤه دون ما يرجو فما يلبث أن يهدد بالرحيل وهذا

---

١)- شرح الديوان ج ١ ص ١٢ ورد : فعل أمر من ورد والرشاء – هو حبل يشد به الدلو.
٢)- النقي : مخ السمين – والشخب / صوت خروج اللبن من الضرع.
٣)- شرح الديوان ج ١ ص ١٨٢ والصلب : أحد أجداد الممدوح وقيل أسمه قيس.
٤)- السابق ج ١ ص ١٩٦.
٥)- معالم الشعر وأعلامه / ٢٤٦.

ما حدث بينه وبين المعتصم أولاً ، فمكث مدة قصيرة في بغداد ثم رحل عنها إلى خراسان وكأنما استقل ما يجود به المعتصم عليه ، **وفى ذلك يقول :**

بالشام أهلى وبغداد الهوى وأنـــا	بالرقتين وبالفسطاط إخـــوانى
وما أظن النوى ترضى بما صنعت	حتى تطوّح بى أقصى خراســـان
خلفت بـــالأفق الغربـــى لـــى ســكنا	قد كان عيشى به حلوًا بحلـــوان [(١)]

والأبيات توضح مدى تفرقة نفسه بين تلك البلاد فأهله بالشام ، وأحبابه ببغداد ، وهو في الرقة [(٢)] وأخوانه في القسطاط وعينه طامحة إلى الاكتحال برؤية بقية أقربائه في خراسان ، وكأنما كانت إقامته فى الرقة التى أشار إليها في الأبيات إرهاصا منه لإقامته الخالدة بين أهله وخلانه ، فبعد أن ظل أبو تمام متنقلا بين الثغور يمدح ولاتها ويضطرب بين هذا وذاك يبحث عن المال والشهرة زمنا ، نراه يرحل إلى خراسان ، وكان واليها يومئذ (عبد الله بن طاهر بن الحسين)[(٣)] وكان قد التقى به أبو تمام فى مصر أيام كان فيها .

يقول الدكتور /البهبيتى : (ويظهر أن أحداث العراق قد شغلت أبا تمام منذ سنة ٢١٤ هـ حتى هذا العهد سنة ٢١٩ هـ عن الذهاب إلى ابن طاهر ، فماهو الا أن يموت المأمون ويعود المعتصم عن الثغور إلى بغداد حتى يذكر أبو تمام ابن طاهر، فيأخذ فى السير إليه).[(٤)]

---

١)- شرح الديوان ج ٣ ص ٣١٠ – وحلوان : موضع بالعراق.

٢)- الرقة مدينة علي الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي ويقال لها الرقة البيضاء.

٣)- والي خراسان من قبل الخليفة العباسي ، وليها بعد أبيه ثم أخيه وكان ذلك عام ٢١٥ ، وكان جوادا كريم النفس وكان بارع الأدب حسن الشعر ، وتقلد الأعمال الجليلة وأول ولايته مصر – (أبو تمام الطائي ص ١١٨).

٤)- أبو تمام الطائي /١١٩.

يقول صاحب (الأغاني)، لما قدم أبو تمام إلى خراسان اجتمع الشعراء إليه وسألوه أن ينشدهم فقال : وعدني ألامير أن أنشده غداً ، وستسمعونى [1].

فلما دخل على عبد الله أنشده :

أهن عوادى يوسف وصـــواحبه	فعزماً فقدماً أدرك السؤل طالبـــه

فلما بلغ إلى قوله :

وقلقل نـــأى مـــن خراســـان جأشـــها	فقلت اطمئنى أنضر الروض عازبه
وركب كأطراف الأسنة عرسوا	على مثلها والليل تسطو غياهبـــه
لأمر علـــيهم أن تـــتم صـــدوره	وليس عليهم أن تتم عواقبـــه

فصاح الشعراء بالأمير أبى العباس [2]: ما يستحق مثل هذا الشعر غير الأمير أعزه الله ! وقال شاعر منهم يعرف بالريّاحى : لى عند الأمير - أعزه الله - جائزة وعدني بها ، وقد جعلتها لهذا الرجل جزاءَ على قوله للأمير ، فقال له : بل نضعفها لك ، ونقوم له بما يجب له علينا ، فلما فرغ من القصيد نثر عليه ألف دينار ، فلقطها الغلمان ولم يمس منها شيئا ، فوجد عليه عبد الله وقال : يترفع عن برى ، ويتهاون بما أكرمه به . فلم يبلغ ما أراده منه بعد ذلك)[3].

وكما هو واضح من قول (الأصفهانى) أن ابن طاهر قد غضب على أبي تمام لأنفته وكبريائه أن يلتقط الدنانير الملقاة على الأرض فلم يرض ابن طاهر بما فعله أبو تمام فمنع عنه بره ووصله ولعل هذا الفعل من أبى تمام لم يكن السبيل الأوحد لغضب ابن طاهر عليه، فقد روى(الصولى) في كتابه سببين آخرين لغضب عبد الله بن طاهر:

---

١)- الأصح : ستستمعونني .
٢)- أبو العباس : كنية عبد الله بن طاهر.
٣)- الأغاني ج ١٦ ص ٣٨٩ ط دار الكتب وزارة الثقافة والإرشاد القومي تحقيق / عبد السلام هارون ومعني – وجد عليه – أي غضب عليه.

أحدهما: أن أبا تمام حجر[1] على بابه مدة ، هو وجماعة فكتب إليه شعراً يقول فيه ،

أيهذا العزيز قد مسنا الضر	ر جميعا وأهلنا أشتات
ولنا فى الرجال شيخ كبير	ولدينا بضاعة مزجاة
قلّ طلابها فأضحت خسارا	فتجاراتنا بها ترهات
فاحتسب أجرنا وأوف لنا الكيـ	ـل وصدّق فإننا أموات [2]

وكتب هذه الأبيات فى ورقة وأرسلها إلى ابن طاهر فغضب عبدالله بن طاهر من محاكاته القرآن .

* والثانى : (وقيل : بل إن أبا تمام ، لما دخل أبر شهر[3] هوى بها مغنية كانت تغنى بالفارسية ، وكانت حاذقة طيبة الصوت ، فكان عبدالله كلما سأل عنه أخبر أنه عندها فنقص عنده) [4].

وأرى أن هذه الأسباب – سواء أكان الأول منفرداً أو مضموماً إلى السببين اللذين ذكرهما (الصولى) – لا تقوى بحال من الأحوال حتى تصبح سبباً فى غضب عبدالله بن طاهر – وإنما هناك سبب أخر كان هو المسبب لغضب ابن طاهر ثم جاءت هذه الأسباب الأخرى مجتمعة لتقوى ذلك الغضب وتزكى جذوته ألا وهو : أن أبا تمام لما نزل خراسان ومدح عبدالله بن طاهر وأغدق عليه الأعطيات واستقبله شعراؤه استقبالاً جميلاً ، ظن ابن طاهر أن أبا تمام سوف يقصر مدحه عليه ، ولكن أبا تمام خالف ظن ابن طاهر ومدح شخصا آخر

١)- حجر علي بابه: أي وقف ممنوعاً من الدخول.
٢)- أخبار أبي تمام / الصولي ص ١٠٤ ، وهذه الأبيات لم أجدها في ديوانه وما أظنها إلا ضاعت ككثير شعره.
٣)- بلد بخراسان – أو هي نيسابور (معجم البلدان /١/٦٥) .
٤)- أخبار أبي تمام ص ١٠٥.

يدعى (أبا عبد الله حفص بن عمر الأزدى) وكان ذلك الرجل رئيساً من رؤساء العرب في ذلك الأقليم. **ومن مدحه فيه قوله :**

تؤم شهاب الحرب حفصا ورهطه … بنو الحرب لا ينبو ثراهم ولا يكدى

ومن شك أن الجود والبأس فيهم … كمن شك فى أن الفصاحة فى نجد

أنخت إلى ساحاتهم وجنابهم … ركابى وأضحى فى ديارهم وفدى

إلى سيفهم حفص ومازال ينتضى … لهم مثل ذاك السيف من ذلك الغمد

فلم أغش بابا أنكرتنى كلابه … ولم أتشبث بالوسيلة من بعد

فأصبحت لا ذل السؤال أصابنى … ولا قدحت فى خاطرى روعة الرد[1]

ومضى في تلك القصيدة على هذا النحو من مدح حفص ودشنه برائع المديح وألبسه أثوابا من الثناء وبعد هذا المدح الذى لم يمدح بمثله أبو عبدالله حفص بن عمر الأزدى ، نرى أبا تمام ينفض الغبار عن صفحة من التاريخ ويظهرها واضحة جلية ، فى تلك الصفحة يذكّر بالنزاع الذى قد وقع من حين لأخر بين الفرس والعرب ، وأن العرب قد انقسموا على أنفسهم ولكن حفصا استطاع أن يجمع صفوفهم وأن يوحد كلمتهم **وفى ذلك يقول :**

وأنت وقد مجت خراسان داءها … وقد نغلت أطرافها نغل الجلد

وأوباشها خزر إلى العرب الآلى … لكيما يكون الحر من خول العبد

ليالى بات العز فى غير بيته … وعظم وغد القوم فى الزمن الوغد

وما قصدوا إذ يسحبون على المنى … بردوهم إلا إلى وارث البرد

وراموا دم الإسلام لا من جهالة … ولا خطإ بل حاولوه على عمد

فمجوا به سمّا وصابا ولو نأت … سيوفك عنهم كان أحلى من الشهد

ضممت إلى قحطان عدنان كلها … ولم يجدوا إذ ذاك من ذاك من بد

---

١)- شرح الديوان / ٢ / ١٢٢.

فأضـــحت بـــك الأحيـــاء أجمـــع ألفـــة   كما أحكمت فى النظم واسطة العقـد(١)

وهـذه الأبيـات السـابقة مترابطـة المعنـى يقـول فيهـا لحفـص إنـك إذ فسـد الخراسان وأضمروا الغدر وجعل أوباشها ينظرون إلى العرب الأحرار نظرة الوقيعة والتربص لكى يتحكم العبد منهم فى الحر من العرب ، وعندما غُصب العز وتعاظم الأوغاد وهموا باحتلال الخلافة ، وتعمدوا أن يخوضوا دم المسلمين الذى بدأ لهم – بفضلك – كالسم والحنظل ، إنك عندما جرى ذلك كله جمعت بنى عدنان وقحطان وألفت بينهم كواسطة العقد ، وقضيت على أولئك الثوار الغادرين .

يقـــول الـــدكتور / البـــهبيتى : (هـذه الأبيـات ، علـى مـا أرى هـى التـى اغضبت عبد الله بن طاهر على أبى تمام، فقد كان عبد الله ينحدر من أصل فارسى، فأبوه طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن ماهان، وفى رواية أخرى زريق بن أسعد بن راذويه، **وفى رواية ثالثة**: أسعد بن زدان:كما يقول ابن خلكان .

فإذا قال أبو تمام عن فرس خراسان ، وهم الذين كانوا يترقبون الفرصة للوثوب :

وأوباشها خزر إلى العرب .... البيت

أحس عبدالله أمر ما يحسه الإنسان اذا مست قوميته [٢].

ولا ننسى ما فعله أبو تمام أنفا من عدم مس الدنانير التى ألقاها عليه ابن طاهر حينما انتهى من القصيدة التى مدحه بها فكان ابن طاهر اجتمعت في مخيلته تلك الأشياء السابقة : يستنكف أبو تمام أن يمس الدنانير الملقاة عليه ثم يقول عن الخراسان أنهم أوباش بل أوغاد ، فلا شك أن هذه الأبيات لا بد وأن تغضب رجلا حتى ولو كان فارسيا بالولاء ، وهذا ما جعل ابن طاهر يقاطع أبا

١)- شرح الديوان ج ٢ ص ١٢٢ .
٢)- أبو تمام الطائي / ١٢٣.

تمام زمانا ولكن أبا تمام لم ينقطع عن باب ابن طاهر، وخاصة بعد أن حل الشتاء ببرده القارس واشتدت الفاقة بأبي تمام وهو مازال بنيسابور فأخذ يبكي تلك الأمال العريضة التى أملها، حينما ولى وجهه شطر خراسان وأحس بأنه وحيد غريب فأخذ يصف سوء مطلبه بنيسابور ويشكو الدهر ويقول :-

صريع هوى تغاديه الهموم	بنيسابور ليس له حميم
غريب ليس يؤنسه قريب	ولا يأوى لغربته رحيم
مقيم فى ديار نوى شطون	يشافهه بها كمد مقيم [1]
يمد زمامه طمع مقيم	تدرع ثوبه رجل عديم
رجاء ما يقابله رجاء	هو الياس الذى عقباه شوم
فلا عجب وإن كظت ركابى	بأرض طار طائرها المشوم [2]

ويسير في الأبيات إلى آخرها شاكيا دهره ونادما على تركه داره وأهله بالشام، وتوجهه تلقاء خراسان :

فقد فارقت بالغربى داراً	بأرض الشام حف بها النعيم
هى الوطن الذى فارقت فيه	وفارقنى المساعد والنديم
وكنت بها الممنع غير وغد	ولا نكد إذا حل العظيم
فإن أك قد حللت بدار هون	صبوت بها فقد يصبو الحليم
ألومك لا ألوم سواك دهرا	قضى لى بالذى يقضى سدوم [3]
إذا أنا لم ألم عثرات دهر	أصبت بها الغداة فمن ألوم ؟

---

١)- شطون : بعيدة – يشافهه : يحادثه.

٢)- كظت ركابي : جهدت وتعبت   طائرها المشوم: أي إنها بلد نحس وخسارة.

٣)- سدوم: مدينة من مدائن قوم لوط كان قاضيها يقال له (سدوم . وهنا يشير إلي هذا القاضي الظالم المتهتك . وكان يضرب به المثل في الجور فيقال (أجور من قاضي سدوم.) (معجم البلدان / ٣ / ٢٠٠ . ط دار أحياء التراث العربى – بيروت).

وفى الدنيا غنى لم أنـسـب عنـــه ولكن ليس فى الدنيا كريم ![١]

ولعل ما حدث له من شدة الحاجة واستيلاء اليأس عليه ما جعله يسعى إلى إرضاء ابن طاهر ويوسط بينه وبينه شاعره (أبا العميثل)[٢].

يقول صاحب الأغانى . (أخبرنا محمد بن العباس اليزيدى قال : حدثنى عمى الفضل قال : لما شخص أبو تمام إلى عبدالله بن طاهر وهو بخراسان ، أقبل الشتاء وهو هناك ، فأستثقل البلد ، وقد كان عبد الله وجد عليه ، وأبطأ بجائزته لأنه نثر عليه ألف دينار فلم يمسسها بيده ترفعا عنها ، فأغضبه وقال : يحتقر فعلى ويترفع على ، فكان يبعث إليه بالشئ بعد الشئ كالقوت ، فقال أبو تمام ،

لم يبق للصيف لا رسم ، ولا طلـــل	ولا قشيب فيستكسى ولا ســمل[٣]
عدل من الدمع أن يبكى المصيف كما	يبكى الشباب ويبكى اللهو والغـزل
يمنى الزمان انقضى[٤] معروفها وغـدت	يسراه وهـى لنـا مـن بعـدها بـدل

فبلغت الأبيات (أبا العميثل) (شاعر آل عبد الله بن طاهر ، وعاتبه على ما عتب عليه من أجله ، وتضمّن له ما يحبه ، ثم دخل إلى عبد الله ، فقال : أيها الأمير : أتتهاون بمثل أبى تمام وتجفوه ؟ فوالله لو لم يكن له ماله من النباهة في قدره ، والإحسان في شعره ، والشائع من ذكره ، لكان الخوف من شره والتوقى لذمه ، يوجب على مثلك رعايته ومراقبته ، فكيف وله بنزوعه إليك من الوطن وفراقه السكن ؟! وقد قصدك عاقداً بك أمله ، معملا إليك ركابه ، متعبا فيك فكره وجسمه

---

١)- شرح الديوان / ٤ / ٥٣٨.

٢)- هو عبد الله بن خليد بن سعد ، من الشعراء الفضلاء ، كان أبوه خليد مولي لبني العباس اتصل بالأمير طاهر بن الحسين ، فاستكتبه طاهر وعهد إليه بتأديب ولده عبد الله ،فأقام معه في خراسان ، ثم كان كاتب عبد الله بن طاهر وشاعره إلي أن توفي سنة ٢٤٠ هـ - الأغاني / ٤٢٧/١٦ ط دار الكتب العلمية- بيروت.

٣)- الرسم والطل / البقايا من الديار القشيب / ثوب جميل جديد سمل / ثوب بالي.

٤)- في شرح الديوان / طوت ج ٤ / ٥٢٦.

، وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه ، حتى ينصرف راضيا ، ولو لم يأت بفائدة ولا سمع فيك منه ما سمع إلا قوله :-

تقول فى قومس صحبى وقد أخذت ... منا السرى وخطأ المهرية القود[١]

أمطلع الشمس تبغى[٢] أن تؤم بنا ... فقلت كلا ولكن مطلع الجود

فقال له عبد الله ، لقد نبهت فأحسنت ، وشفعت فلطفت وعاتبت فأوجعت ، ولك ولأبى تمام العتبى ، ادعه ياغلام ، فدعاه فنادمه يومه ، وأمر له بالفى دينار ، وما يحمله من الظهر ، وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه وأمر ببذرقته[٣] إلى أخر عمله[٤]......قد أكون أسهبت فى ذكر ما كان من أبى تمام حيال عبد الله بن طاهر ولكن عذرى أن رحلة أبى تمام إلى عبدالله بن طاهر فى نيسابور تعد أشهر رحلاته إلى الأمراء وبعد ... فيبدو أن أبا تمام قد برم بالإقامة فى خراسان فولى وجهه شطر بغداد وأغلب ما كان ذلك أخر سنة ٢٢٧ ، أو أول سنة ٢٢٨ وفى أثناء رجوعه كما يقول الدكتور / شوقى ضيف :

(مر بهمذان ، فأكرمه أبوا الوفاء بن سلمة ، وحبسه الثلج هناك مدة طويلة ، فانكب على خزانة كتبه ولم يلبث أن فكر في تأليف مجاميع من الشعر ، فألف خمسة كتب أهمها الحماسة التى دوت شهرتها)[٥].

---

١)- في شرح الديوان (يقول) ج ٤ ص ١٣٢ ، وقومس : كورة كبيرة واسعة تشتمل علي مدن وقري ومزارع وهي في ذيل جبال طبرستان (ياقوت ج ٤ ص ٤١٤) وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أنها بين العراق وخراسان وطبرستان بالقرب من أصفهان وكانت علي طريق القوافل بين الري وخراسان . والمهرية ؛ الأبل المنسوبة إلي مهرة بن حيدان وهم حي عظيم من اليمن (لسان العرب ج ٦ ص ٤٢٨٧) أو هي المطية التي لها نشاط المهر.

٢)- في شرح الديوان – (تنوي) ج ٤ ص ١٣٢.

٣)- بذ رقته / حراسته.

٤)- الأغاني ج ١٦ ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ ط دار الكتب العلمية – بيروت.

٥)- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٢٠ ط دار المعارف.

وهنا سؤال يطرح نفسه ألا وهو :

كم كان طول المدة التى مكثها أبو تمام حتى يتمكن من قراءة خزانة كتب ثم يفكر في تأليف مجاميع شعريه أو كتب ؟

لم يبين الدكتور / ضيف طول تلك المدة ، ولكنه اكتفى بقوله : (مدة طويلة) بيد أن عبارة (حبسه الثلج) تدل ضمناً على مقدار تلك المدة التى مكثها أبو تمام في همذان حيث لا تتعدى الشهور القليلة ريثما يذوب الثلج ، وهذا كلام يصعب معه تصديق إن أبا تمام قد ألف كتبه الخمسة[1] فى تلك الأثناء ، إذ ليس من السهل تأليف مجموعة من الكتب فى بضعة شهور قليلة كان فيها مرهونا بزوال الثلج إلا إذا كان أبو تمام قد استعذب الإقامة فى همذان فأقام بها مدة تمكنه من تأليف تلك الكتب ، وعلى كل فإن ذلك كان فى أواخر سنى أبى تمام .

يقول الدكتور / عمر فروخ : (فى تلك الأثناء كان الشاعر قد نال حظوة عند المعتصم ، وعند أمراء البلاد ورجال الدولة . كأحمد بن أبى دؤاد ، ومحمد بن عبد الملك الزيات وجعفر الخياط القائد وغيرهم ، وقد عنى الحسن بن وهب [2] به عناية فائقة ، وأراد أن يكرمه ؛ فطلب منه الشاعر أن يجعله فى الموصل ، قيل إختارها لأنه قضى فيها زمنا طيبا بعد انصرافه عن المأمون "[3] وفى الغالب كان ذلك عام تسعة وعشرين ومائتين إذ إن أقدم الآثار التى وردت فى روايات موت أبى تمام تقول : إن أبا تمام قد مات سنة إحدى وثلاثين ومائتين ، وذلك فى كتابى " أخبار الصولى " " وأغانى الأصفهانى

---

١)- لأبي تمام كتب خمسة أو هي علي الأغلب ستة جميعها مختارات ، ومنها الحماسة ، واختيار من شعراء الفحول – واختيار من شعراء القبائل واختيار من شعراء المحدثين.

٢)- كان الحسن كاتباً لابن الزيات ، ثم تولي ديوان الرسائل.

٣)- أبو تمام / عمر فروخ ص ١٨ ، ١٩.

ويؤكد الدكتور / فروخ هذا بقوله :

(في الموصل – ولاه الحسن بن وهب بريد الموصل ، ولكنه لم يمكث طويلا بل توفى بعد عامين من ولايته [1]

وأغلب الظن أن أبا تمام هو الذى طلب من صديقه الحسن بن وهب ، أن يوليه بريد الموصل ، وما ذلك إلا تلبية لفكرة العمل المستقر الذى ينال من ورائه أجراً ثابتا بعد أن تعبت نفسه من أثر طول الصراع مع الدنيا ، ومن عبوس وجهها الذى لازم وجهه منذ تطوافه على أبواب الخلفاء والوزراء والأمراء ، بل قل منذ أن كان طفلا مع أبيه فى دمشق يعمل مع قزاز" حائك " وتركه ذلك ، وهجرته إلى مصر وغيرها من البلدان ليجد ما كان يأمله من الدنيا ، بالإضافة إلى أنه كان يريد جمع ثروة – مْن وراء هذا العمل الثابت – كان يرى كل رجال الدولة يجمعونها من عملهم ، وما ذلك إلا لأنه لم يستطع جمع ثروة من وراء شعره لما اشتهر به من الكرم **وإيثاره على نفسه أليس هو القائل :**

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى ؟!

● موت الشاعر

أردا شاعرنا فى أخريات حياته أن يريح جسمه الكليل ، وأن يستقبل الحياة من جديد بوجه جديد ، وأن تستقبله الحياة والبسمة ملء ثغرها ، بدلا من تلك الضحكات الصفراء الباهتة ، التى كانت تستقبله بها كل مرة يهاجر فيها بيد أن الناس لا يقتسمون حظوظهم فى هذه الحياة ، فقد لبى الرجل نداء ربه وأسلم روحه لباريها فى جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين ومائتين ، وعمره إذ ذاك لا يتجاوز الاثنتين والأربعين سنة ، وبذلك صدقت نبوءة أبي يوسف الكندى الفيلسوف حينما مدح أبو تمام الخليفة المعتصم **بقوله :**

---

١)- السابق ج ١٩.

أقدام عمرو في سماحة حاتم　　في حلم أحنف في ذكاء إياس

وكان الكندى جالسا فقال له (١): أتشبه الأمير بإجلاف العرب ؟! الأمير فوق من وصفت ، فأطرق الشاعر قليلاً ثم رفع راسه **وأنشد** :

لا تنكروا ضربى له من دونه　　مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره　　مثلا من المشكاة والنبراس

ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها هذين البيتين ، فعجبوا من سرعته وفطنته ، فقال الكندى للخليفة : أى شئ طلبه فأعطه ، فإنه لا يعيش أكثر من أربعين يوما لأنه قد ظهر فى عينيه الدم من شدة الفكر ، وقيل : قال أنه يموت قريباً أو شاباً ، فقيل له وكيف ذلك ، فقال : رأيت فيه من الذكاء والفطنة ما علمت أن النفس الروحانية تأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده ، وأن هذا الفتى ينحت من قلبه ، **فقال له الخليفة : ما تشتهى ؟ قال** : الموصل فإعطاه أياها فتوجه إليها وبقى فيها مدة ثم مات سريعاً وقد نيف على الثلاثين .

ودفن بها وبنى عليه (أبو نهشل بن حميد الطوسى) قبة ، يقول ابن خلكان ، أنه رأى قبره بالموصل خارج باب الميدان ، على حافة الخندق والعامة تقول : هذا قبر تمام الشاعر.

ثم يتابع قوله فيذكر أنه سأل شرف الدين أبا المحاسن محمد بن عنين **الشاعر عن معنى قوله** :

سقى الله دوح الغوطتين ولا ارتوت　　من الموصل الحدباء إلا قبورها

لم حرمها وخص قبورها ؟ فقال : لأجل أبى تمام.(٢)

---

١)- قيل إن وزير المعتصم هو من قال ذلك . ولكن الصحيح أنه الكندي.

٢)- وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٧ ط دار صادر بيروت.

يقول الدكتور – البهبيتى : (مات كما يموت العظماء جميعاً لا تذرف الناس عليهم الدمعة من قلب حزين مكلوم ، ولكن الدمعة التى تعبر عن حس بخسارة شئ عظيم ، كان يملأ عليهم حياتهم ، تلك الدمعة الذاهلة لانهيار الطود الشامخ ، لا الدمعة الآلمة الصادرة عن قلب جريح . لم يرث أحد منهم أبا تمام ولكنهم رثوا شعر أبى تمام ، وكان فى نفوسهم أخلد من شخصه)[1].

● **رثاة أبى تمام**

مات أبو تمام ، فبكاه إناس كثيرون ، ولكنهم قلة إذا ما قورنوا بمن رثاهم أبو تمام . يقول صاحب " شذرات الذهب " : (رثاه جماعة منهم أبو نهشل بن حميد الذى ولاه الموصل (٢) **فقال** :

فجع القريض بخاتم الشعراء	وغدير روضتها حبيب الطائى
ماتا معا فتجاوروا فى حفرة	وكذاك كانا قبل فى الأحياء

وأظن أن الشيخ واهم ، ولم يحالفه الصواب ، لأن من ولاه الموصل هو الحسن بن وهب ، **وهو ما ذكره ابن خلكان فقال** : " ورثاه الحسن بن وهب **بقوله** : وذكر البيتين السابقين .[3] وقيل أن هذين البيتين : لديك الجن [4] رثاه بهما .

ورثاه الحسن بن وهب بقوله من قصيدة :

سقا بالموصل القبر الغريبا	سحائب ينتحبن له نحيباً
إذا أطللنه أطللن فيه	شعيب المزن يتبعها شعيباً
ولطّمن البروق به خدودا	وشققن الرعود به جيوباً
فإن تراب ذاك القبر يحوى	حبيبا كان يدعى لى حبيباً

---

١)- أبو تمام الطائي ص ١٧٠.
٢)- ج ٢ ص ٧٤ .
٣)- وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٨.
٤)- شاعر عباسي اسمه عبد السلام بن رغبان.

ومن الذين رثوه أيضاً ، محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم بقوله :

نبأ أتى من أعظم الأنباء   لما ألم مقلقل الأحشاء

قالوا : حبيب قد ثوى فأجبتهم   ناشدكم لا تجعلوه الطائى

وقيل : أن هذين البيتين لأبى الزبرقان : عبدالله بن الذبرقان الكاتب مولى بنى أمية .

ولعل هذين البيتين أكثر ما قيل فى أبى تمام جزعا عليه(1) .

---

1)- أبو تمام الطائي ج ١٧١.

المبحث الثالث
المقصود بالعروبة عند أبى تمام

● مفهوم العروبة والمقصود بها

لم يسلم أبو تمام – كأى رجل موفق موهوب – من الخلاف حوله ، وحول نسبه على وجه الخصوص فقد دار حول نسبه جدل كثير فى الخلاف حول أصله وجنسه ودينه ومؤاده ، من أى أصل ينحدر أبو تمام ؟ وإلى أى جنس ينتمى ؟

أو بعبارة أخرى أدق ، أعربى هو أم يونانى ؟

فقد حاول أن يلقى ظلاً من الشك على نسبه بعض معاصريه ، فزعم أن أباه كان نصرانيا اسمه (تدوس) العطار – ولهذا الاسم قراءات مختلفة منها – ندوس " بدوس " ثاذوس " ثديوس " ولعل أقربها إلى الصواب ما قرأه " مرجليوث " فهى عنده " ثدوس " التى ربما كانت مجزوءة من ثيودوسيوس اليونانية[١] وإنه حرف هذا الاسم إلى أوس وصنع له نسبة فى طيئ يقول " طه حسين " أما نسبه فالخلاف فيه أعظم من هذا جدا [٢] وهو يشير بالعبارة السابقة إلى الخلاف فى مولده فنحن نعرف أنه أبو تمام – حبيب بن أوس الطائى ، وهو يتحدث بذلك ويفخر بأنه طائى ، فهو إذا مدح أحمد بن أبى دؤاد ، وزير المعتصم وزعيم المعتزلة فى عصره فاخره وتحدث كما يتحدث الند إلى الند ، فزعم فى القصيدة التى مطلعها :

* أرأيت أى سوالف وخدود *

---

١)- دائرة المعارف الإسلامية ص ٤٣٨ ط دار الشعب – القاهرة .
٢)- من حديث الشعر والنثر ص ٩٥ ط دار المعارف.

فذكر أن مكانه من أحمد مكان الرجل السرى[1] الذى يستطيع أن يساميه وأن القبيلتين (طيئ وإياد) تتقاربان وتشتركان فى المجد، فلطيئ حاتمها ولإياد كعب)[2] وفى معرض الحديث عن الخلاف فى نسب أبى تمام يضيف (طه حسين) **قائلاً** :

(ولكن قوما كثيرين من الذين عاصروا أبا تمام وكتبوا عنه بعد موته يتحدثون أن أبا تمام لم يكن من طيئ فى شئ ، بل لم يكن من العرب في شئ وأوس هذا اسم صنعه أبو تمام وحرف عن اسم أبيه)[3].

وكأنى بأبى تمام وأنا أنظر إليه من ستر شفيف (إن صح التعبير) لم يكد يتبوء مكانته بين الشعراء ومكانه فى مجالس الأمراء والوزراء حتى هبت زوبعة من الخلاف حوله ، ولكن هذه الزوبعة وكما يقول عبدالعزيز سيد الأهل [4]

(إنها كانت من حظه ، فأذاعت صيت الرجل وذكره فى أقطار الأرض في زمانه وسايرته شهرته حيثما اتجه وأسلمت ذكره ذائعاً إلى العصور التى تلته وألهمتها أن يختلف الناس حوله كما كانوا فى أيامه[5] .

فنحن إذن أمام مذهبين :

أما الأول : فأصحابه يرون أن أبا تمام نصرانى الأصل يدل اسم أبيه على أنه رومى **يقول عمر فروخ** : (نستطيع أن نصل إلى رأى لا يحتاج إلى كثير من

---

١)- السرو: المروءة والشرف – ومعني سرو الرجل أي ارتفع يرتفع فهو رفيع . لسان العرب ج ٣ ص ٢٠٠١ .

٢)- هو كعب بن مامة الإيادي – كان أحد أجواد العرب ، يضرب به المثل في الإيثار (هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام) يوسف البديعي ص ٢٤٩ وما بعدها ط مطبعة العلوم بالسيدة زينب – القاهرة.

٣)- من حديث الشعر والنثر ص ٩٥ .

٤)- المستشار الثقافي للجمهورية العربية المتحدة في بيروت سابقا ص ١٩٦٣.

٥)- عبقرية أبي تمام ص ٥٣ الطبعة الثانية – الناشر دار العلم للملايين – بيروت.

التحفظ فى إبدائه وهو : أن تدوس هذا كان من الجالية الرومية التى كانت في سوريا قبل الفتح الإسلامى ، أو أنه جاء إلى هذه البلاد بعد ذلك [١]

ويقول الدكتور / عبده بدوى :

(والشك فى نسبه وفى دينه قد جاء أصلاً من قول الصولى : قال قوم هو حبيب بن تدوس النصرانى فغيره فصار أوسا كما أنه جاء فى وفيات الأعيان لابن خلكان أن الآمدى ذكر فى الموازنة أن أباه كان نصرانيا من أهل جاسم يقال له : تدوس العطار أو العقاقيرى فجعلوه أوسا[٢] وقد اعتمد على هذا مرجليوث فذكر أنه كان نصرانيا فأسلم .[٣]

وقال كارل بروكلمان (بل هو من النصارى السريان)

فأصحاب الرأى الأول يرون أن أبا تمام نصرانى الأصل كما أظهرنا ومن هؤلاء الآمدى فى (الموازنة) وعمر فروخ ، وطه حسين ، ومرجليوث ، وكارل بروكلمان وغيرهم . من أمثال ابن نباتة المصرى والذى قال (وكان أبوه نصرانيا وكان إذا ذاك أبو تمام بمصر القاهرة فى حداثته يسقى الماء بالمسجد الجامع)[٤]

بل لقد بالغ الأب (لويس شيخو اليسوعى) حينما قال : إن النصرانية لحقت أبا تمام نفسه [٥]

واستند من قال بنصرانية والد أبى تمام إلى أشياء منها ،

- ✓ أن نسبه فى طيئ ليس فيها إلا عشرة أباء ، مع أنه لا يصح أن يكون بينهما أقل من ستة عشر أبا .

---

١)- أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم ص ١٠ الطبعة الأولي مطبعة الكتاب – بيروت.
٢)- أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ص ١٦ – الهيئة العامة المصرية للكتاب.
٣)- دائرة المعارف الإسلامية ج ٦ ص ٣٨ ط دار المعارف.
٤)- سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ص ٢٢٥ . ويقصد بالمسجد الجامع / مسجد عمرو بن العاص.
٥)- مجاني الأدب في حدائق العرب ج ٦ ص ٣٠٥ الطبعة الرابعة – مطبعة الآباء اليسوعيين – بيروت.

- ✓ أن هناك اتفاقا من الصولى والآمدى على نصرانية والده فلا بد أن ابنه حبيباً نشأ على دينه .
- ✓ أن اسم حبيب شائع عند النصارى نادر عند المسلمين ومنها أيضاً :
- ✓ أن النصرانية كانت شائعة فى قبيلة طيئ بعد الإسلام.
- ✓ أن فى مزاولته الحياكة والسقاية وهو صغير ما يدل على خموله بسبب دينه.
- ✓ ثم إنه ليس هناك كلام صريح لمن ترجموا له يستدل منه على أن أبا تمام قد حجد دينه المسيحى.
- ✓ وفى ضوء هذا يكون دخوله الإسلام عن مجاملة وطمع فى الدنيا. (١)
- ✓ ومما يؤكد هذا ما رواه المسعودى فى مروج الذهب من أنه كان ماجنا قليل الدين .

* **أما المذهب الثانى :** فأصحابه يرون أنه عربى من قبيلة طيئ صليبة وليس منها بالولاء ولا بالتلفيق قال بذلك العديد من المؤرخين والأدباء من أمثال أبى بكر الصولى [٢] فى كتابه (أخبار أبى تمام) وأبى الفرج الأصفهانى فى (الأغانى) وابن حزم الظاهرى فى (جمهرته) بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب التى أجمعت على أنه طائى والتى تكتفى بأن تطلق عليه كلمة (الطائى) فيفهم أن المقصود بها هو (أبو تمام).

---

١)- أبو تمام وقضية التجديد في الشعر / عبده بدوي ص ١٦.

٢)- هو أبو بكر محمد بن يحي بن العباس بن صول تكين المعروف بالصولي الشطرنجي ، من الأدباء الظرفاء،حسن المعرفة بآداب الملوك والخلفاء والشعراء كثير التاليف والتصانيف توفي سنة٣٣٥، أو ٣٣٦.

يقول الدكتور / عبده بدوى . (لقد اهتم الكثيرون بهذه القضية ولقد كان من هؤلاء الدكتور نجيب البهبيتى الذى ركز تركيزاً شديداً على عروبة أبى تمام[١] وكذلك الدكتور / عبد المتعال الصعيدى[٢] فى كتابه (مدرسة أبى تمام بين قدامى المولدين والمتأخرين) والذين يقولون بعروبة أبى تمام يحتجون بحجج لا تخلو من قوة يقول الدكتور / عبدالمتعال الصعيدى .

(وعندى أن من يلفق عشرة أباء يمكن أن يلفق الستة الباقية إذا كانت لازمة فى ذلك على أن مثل عدد الأباء لا يمكن القطع بشئ فيه ، لأن العمر يختلف طولاً وقصرا ، وقد يكون عمر عشرة آباء مثل عمر ستة عشر أبا [٣].

وذهب الدكتور / البهبيتى إلى أن القول بنصرانية أبيه لا يتعارض مع طائيته . وقال إن عبارة الصولى لا تقدم ولا تأخر لأنه ذكرها شاكا ، وعبارة ابن خلكان التى استشهد بها ليست تامة .

ونخرج من ذلك إلى أن الآمدى لم يؤكد ما نسب إلى أبى تمام كما لم يؤكد الصولى ذلك[٤] .

ويضيف د/ عبده بدوى قائلا . (ثم إن أحداً من خصومه الكثر لم يقل بنصرانيته ما عدا (مخلد بن بكار الموصلى) .

يقول الدكتور / محمد مندور (ونحن عندما ننظر فى الشعر الذى هجى به أبو تمام نجده يدور دائما حول إتهامه في نسبه ، فمخلد بن بكار الموصلى يقول :

أنــت عنــد عربــى الــــ	أصــل مــا فيــك كـــلام
عربــــــى عربــــــى	أجــأى مــا تــرام[٥]
أنـــا مـــا ذنبـــى إن خـــا	لفنــــى فيـــك الأنـــام

---

١)- أبو تمام ص ١٧.
٢)- أستاذ بكلية اللغة العربية من جامعة الأزهر.
٣)- مدرسة أبي تمام بين قدامي المولدين والمتأخرين ص ١٥.
٤)- أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ص ١٧.
٥)- أجأ- بالتحريك جبل لطيء ، يذكر ويؤنث . لسان العرب ج ٣ ص ٣٠.

وأنـت منـك سـجايا	نبطيـات لئـام
ثـم قـالوا جاسـمى	مـن بنـى الأنبـاط خـام
كـذبوا مـا أنـت إلا	عربـى مـا تضـام
أنـت عنـدى عربـى	عربـى والسـلام

وكان أبو تمام لا يجيب هاجياً له ، وقد سئل يوماً أن يرد على الموصلى فقال: (أن جوابى يرفع منه وأستدر به سبه فإذا أمسكت عنه سكنت شقشقته[1] وما فى فضل عن مدح من اجتديه) (وفى هذا ما قد يشعر بأن أبا تمام قد كانت فيه مواضع ضعف لعل منها نسبه)[2] .

وهذه الجملة الأخيرة قد تفيد أن الدكتور / مندور يؤيد تهمة الكفر التى نسبت لأبى تمام ولكنه وبعد قليل يرد على نفسه ويقول : (ويقول شاعر آخر فى هجائه :

واذكر حبيب بن أوشونا ودعوته	فأين طيا إذا سموا به جزعـوا
لو أن عبد مناف فـى أرومـتهم	تقبلوك لما ضروا ولا نفعـوا

وإذن فأبو تمام كان يتهم بأنه نبطى وأنه ولد لأب نصرانى ولربما كان في ذلك ما يفسر اتهامه بالكفر ولكن هذه التهمة كما قلنا لم ترد فى كتب النقاد الذين ناقشوا شعره ودرسوه .

والرأى عندى ... أن أبا تمام عربى مسلم ، وأن ما قيل فى مجال هجائه لا ينبغى أن يؤخذ مأخذ الحجة فكما هو معروف في علوم الحديث (أن جراحات الأقران لا يعتد بها) وذلك مشهور فى علم الجرح والتعديل ، لما قد يدخل فى ذلك من الحقد والحسد . وذلك لأن مبناه على التنافس .

---

١)- الشقشقة: لهاة البعير والجمع شقاشق ومنه سمي الخطباء شقاشق . قال أبو المنصور شبه الذي يتفيهق في كلامه ويسرده سردا لا يبالي ما قال من صدق أو كذب بالشيطان وإسخاطه ربه . لسان العرب ج ٤ ص ٢٣٠٣ .

٢)- النقد المنهجي عند العرب ص ٨٢ الناشر / نهضة مصر.

ولعلـى لا أكـون مخطئـاً إذا قلـت ، إن الشـعراء كـذلك يتنافسـون فيمـا بيـنهم وخاصـة إذا كـان هـذا التنـافس يوصـل إلى أبـواب الملـوك والأمـراء الـوزراء بـل ومجالسـتهم ومنـادمتهم وحصد الأمـوال مـن وراء ذلـك وقصـته فـى مـدح أحمـد بـن المعتصم معروفـة مشـهورة ولا أرى مقاطعـة مـن قاطعـه وهـو ينشد الشعر إلا حسـداً عليه وغيرة منه .

بالإضـافة إلى أنـه إذا كـان اسـم (أوس) المحـرف – كمـا قيـل – عـن تـدوس جـرت علـى أبـى تمـام النصـرانية بـل والكفـر كمـا قـال (الصـولى) فهـل يلـزم مـن (كاوس) فى قول من هجاه بقوله ،

ولقد طلبت أبا فـأعجز وجـده حتى انبرى لك كاوس الخمار

أن يكون أبوه فارسيا ؟! خاصة وأن اسم كاوس من الأسماء الفارسية .

يقول الدكتور / محمد مندور ، (من الواجب أن نهمل ما يرويه الصولى من أن (قوما قد أدعوا على أبى تمام الكفر بل حققوه وجعلوا ذلك سبباً للطعن على شعره وتقبيح حسنه) وعلى هذه التهمة يرد الصولى نفسه بقوله ،(ومـا ظننـت إن كفـرا يـنقص مـن شـعر ولا أن ايمانـا يزيـد فيـه ، وكتـب النقـد التـى بأيـدينا لا تحمـل أى صدى لهذه التهمة التى لم نجدها إلا عند الصولى الذى يريد أن ينتصر لأبى تمام بكل الوسائل وأن يجرح خصومه بكافة السبل) [1].

وكانى بالدكتور / مندور وهو يريد أن يقول : إن الصولى هو الذى فجر هذه الفكرة وهو الذى رد عليها ليكثر الكلام حول صاحبه إبعاداً لصيته وشهرته .

وأيضـاً : (أن ظـاهرة كـون أبـى تمـام عربـى صـليبة أو عربـى بـالولاء كانـت تجدى ويكون لهـا شـان لـو أن أبـا تمـام ولـد فـى العصـر الأمـوى – حيـث كـان العـرب

(١)- النقد المنهجي عند العرب ص ٨١.

ظاهرين على غيرهم – وحيث كان للنسب العربى ميزة على غيره أى ميزة ، ولكن الرجل ظهر فى عصر كان على العكس تماما من سابقه، عصر يسوى بين العرب وغيرهم وأصبح لا قيمة للتعالى بالنسب بينهم، فقد أفسح بنو العباس صدورهم للموالى من الفرس والترك وغيرهم .

يضيف إلى ذلك الدكتور / عبدالمتعال الصعيدى شيئا آخر فيقول :(وكذلك نزعة أبى تمام إلى تقليد الشعراء الأوائل وإلى إعادة الشعر إلى قوته وفخامة لفظه ترجح أنه كان عربيا صليبة يتعصب لقديم العرب ، ولو سلم أن أباه كان نصرانيا لم يقدح بشئ فى أنه كان عربيا صليبة لأن النصرانية كانت قديمة فى طئ وغيرها من قبائل العرب ، وكذلك لو سلم أن اسم أبيه كان تدوس أو تيودوس ، لأن من نصارى العرب من كان يؤثر هذه الأسماء الرومية بتأثير ديانته النصرانية)[1].

من العرض السابق ندرك أن مفهوم العروبة عند أبى تمام . هو انحدار أبى تمام من أصول طائية يمنية ، ومدى تأثير ذلك فى شعره ، ذلك لأن طئ قبيلة يمنية عربية نزلت فى العصر الجاهلى شمالى (نجد) واتخذت الفصحى لسانا لها.

وأن ما أتهم به أبو تمام إنما هى مزاعم مبنية على اتهام باطل لبعض شانئيه ممن عاصروه وهذا الاتهام ينقضه نقضا كل من ترجموا لأبى تمام من المؤرخين الثقات إذ أجمعوا على أنه طائى صليبة لا حليفا ولا بالولاء .

وإذا تصفحنا ديوانه وجدنا شواهد كثيرة تقطع بعروبته ، ومن ذلك أنه كان شديد الفخر بطائيته ، وانه أختار فى مطالع حياته ممدوحيه ومن يقدم إليهم قصائده إما من طئ قبيلته الدنيا وإما من قبائل اليمن الأخرى .

ولعل في هذا وما سوف يرد فى ثنايا البحث ما يدلل بل ويقطع بعروبة هذا الرجل.

---

١)- مدرسة أبي تمام بين قدامي المولدين والمتأخرين ص ١٥.

الفصل الثانى

مظاهر العروبة في شعر أبى تمام

المبحث الأول
مظاهر العروبة فى مدح أبى تمام

* المديح :

فن من فنون الشعر العربي ، وباب من أبوابه التى يطرقها الشعراء فى كل عصر من العصور ، وفى كل بيئة من البيئات ، ويكاد يدور المديح عامة ، ومديح الشعراء خاصة فى محور متقارب ، وهدف لا يتبدل – فى الغالب – إلا تبديلاً غير جوهرى .

(والمديح بصورته المعروفة هو أبراز الصفات الحسنة لدى اللمدوح وتصويرها بشكل فنى ، حتى يصل إلى الغلو فى أحيان كثيرة . ويستغل الشاعر أدوات مهمة فى إبراز تلك الصور الحسنة، يستخدم الماضى والحاضر، والحسب والنسب ، والأصول والأعراق ، والإسلام والدين ، والإيمان والتقى والخير والبر والكرم والجود، والخبرة والوفاء ، والإباء والشمم ، والأمن والأمان ، والعلم والمعرفة . وفيه كل الصفات التى تجعل الممدوح رمزاً من رموز الحياة)[1].

* ولقد عرف الإنسان المديح منذ أن عرف أن الناس متفاوتو الحظوظ في هذه الدنيا فلم يقف مشدوها مكتوف الأيدى ، معقود اللسان ، بل وقف موقف المحترم لمن علوه ، المتودد إليهم وإن دل ذلك على شئ ، فإنما يدل على ذكاء فطرى قد أودعه الله فى الإنسان وعلى اعتراف بالفضل لذويه ، ليمكنه معه من السعى إلى خطب ودهم والسعى إلى رضاهم ، والتجمل لهم بالفعل ؛ فإن لم يستطع فبالقول المعبر عن مديحه – صادقاً كان أو كاذباً – خارجاً هذا المديح من قرارة نفسه أو من طرف لسانه .

---

١)- أبو تمام . عصره – حياته – شعره لـ / محمد رضا مروة ص ٧٣ دار الكتب العلمية – بيروت.

و(المدح فن الثناء والإكبار والإحترام)[1] والإجلال يجسد فيه المادحون صفات ممدوحيهم الطيبة ، ومزاياهم الرفيعة وأخلاقهم السامية ليخفوا بذلك ما كان مرزولاً من صفاتهم وأخلاقهم ، قاصدين من وراء ذلك رفع ذكر الممدوح أو الرغبة فى استفتاح خزائنهم ، وأيا كان هدف المادح ؛ فقد رفع بمدحه لواء الممدوح بين العامة والخاصة .

وقد اصطبغ فن المديح خلال عصوره المختلفة بأصباغ كثيرة فكلما استجد عصر ؛ ارتدى المديح ثوب العصر الذى يعيش فيه (فقام بين فنون الأدب العربى مقام السجل الشعرى لجوانب من حياتنا التاريخية)[2].

فتارة يرتدى ثوب الكرم وتارة أخرى يرتدى ثوب الشجاعة ، وثالثة يرتديهما معاً مضموماً إليهما صفات أخرى مثل نقاء العرض ، وقوة البأس وجمال الطلعة ، والتمسك بالدين والعدل ، إلى غير ذلك من الصفات التى ينبغى توافرها فى الممدوح ، خليفة كان أو غيره ممن يستحقون المدح والثناء .

يقول : سامى الدهان : فإذا رأيت مديحاً فاعرف أن ورائه يدا أسداها الخليفة إلى الشاعر ، أنقذه من بؤسه ، أو خلصه من حبسه أو أقطعه فحبب إليه الدنيا وحرك لسانه بالثناء والشكر)[3] والمديح من الأغراض القديمة التى عرفها العرب ، ونظموا فيها – ولا سيما – فى العصر العباسى فقد أكثر منه الشعراء وافتنوا فى معانيه ، وخلعوا عليه من أذواقهم ما جعله ذا طابع خاص يميزه فى هذا العصر عنه فى العصور الأخرى ، فقد أرخى الشعراء لأنفسهم العنان فى

---

١)- المديح – سامي الدهان ص ٥ ط دار المعارف.

٢)- السابق ص ٥ .

٣)- المديح – سامي الدهان ص ٢٢ ، ويقصد بكلامه هذا : حال المديح في عصر بني أمية ومشابهته للمديح في العصر الجاهلي – إذ ليس كل مديح موجه إلي خليفة ، بل قد يوجه إلي وزير او شريف، او وجيه ، او أي إنسان آخر قد يكون من عرض الناس.

المبالغة إلى درجة الانحراف والزيغ والإلحاد بل والكفر، لمجرد أنه يتغيا بلوغ المال، وقضاء المأرب والسعى فى لقمة العيش.

* مديح أبى تمام.

والمديح من السجايا العربية الأصيلة التى أعلاها أبو تمام، فقد صدر أبو تمام فى مدحه صدوراً طبيعياً عن ذات نفسه، وعن دخائل وأعماق قلبه، الأمر الذى كان بمنزلة الدليل الحى على أرومته الطائية اليمنية الأصيلة.

وعلى عادة الإنسان - من احتفائه بأهله والثناء عليهم - سار أبو تمام فاختار ممدوحيه إما طئ قبيلته، وإما من قبائل اليمن الأخرى، إذ نراه يرحل إلى (حمص) ويلزم بنى عبد الكريم الطائيين، ويقدم إليهم قصائده مادحا إياهم يقول من قصيدة بدأها بقوله:

أرامة كنت مـألف كـل ريـم	لو استمتعت بالإنس القديم[1]
أدار البؤس حسـنك التصـابى	إلى فصـرت جنـات النعـيم
أنخنـا فـى ديـار بنـى حبيـب	بنات السير تحت بنى العـزيم[2]
وما إن زال فى جرم ابن عمرو	كريم من بنى عبد الكـريم[3]

فيذكر أنه أناخ رحله فى (حمص) بعدما ترك (دمشق) عند بنى عبد الركيم وهم أهله من الطائيين، حيث نسب نفسه إليهم فقال (بنى حبيب) وما أظنه يقصد إلا نفسه فهو (حبيب بن أوس) أو لعله يقصد حبيبه من بنى عبد الكريم الذى صرح باسمه فى البيت التالى وهو (ابن عمرو) والذى كان مكرما

---

١)- شرح الديوان للتبريزي ج ٣ ص ١٦٠ ، ورامة : أسم موضع ، ويجوز ضم التاء وفتحها ، فالضم علي النداء والفتح علي الترخيم .

٢)- بنات السير: الأبل والعزيم : العزم.

٣)- جرم – هو القطع او الخر – أو زورق من زوارق اليمن ، أو بطن في طيء ، وقال الليث جرم : قبيلة من اليمن – لسان العرب ج١ ص ٦٠٧.

لدى أهله يأخذ من أدبهم وجودهم ، فكان من أجل ذلك خليقاً بأن ينيط بهم ويمنحهم ولاءه ، وينتسب إليهم فنراه يمدحهم بالكرم ويقول :

فلو شاهدتهم والزائريهم لما مزت البعيد من الحميم

أولئك قد هدوا في كل مجد إلى نهج الصراط المستقيم

أحلهم الندى سطة المعالى إذا نزل البخيل على التخوم[1]

فروع لا ترف عليك إلا شهدت لها على طيب الأروم[2]

ويمدحهم بالشجاعة وقوة الباس ممثلين فى شخص (ابن عمرو) فيقول ،

تراه يذب عن حرم المعالى فتحسبه يدافع عن حريم

غريم للملم به وحاشى نداه من مماطلة الغريم

سفيه الرمح جاهله إذا ما بدا فضل السفيه على الحليم

ويمدحهم بالحكمة أيضاً فى شخص (ابن عمرو) فيقول ،

إذا ما الضرب حش الحرب أبدى أغر الرأى فى الخطب البهيم[3]

فإن شهد المقامة يوم فصل رأيت نظير لقمان الحكيم

والأبيات تضع بنى عبد الكريم فى مصاف النجوم بهذا المدح الذى لم تمدح بمثله قبيلة بنى عبدالكريم الطائيين وهو يصرح بذلك ويقول :

لهم غرر تخال إذا استنارت بواهرها ضرائر للنجوم

ولطيئ فى نفس الشاعر منزلة لا تدانيها منزلة وكذلك لكل من ينتهى نسبه إليها أسمع إليه يقول :

لكل من بنى حواء عذر ولا عذر لطائى لئيم

---

١)- شرح الديوان ج ٣ ص ١٦١ وسطة : مصدر وسط يسط سطة مثل وعد يعد عدة ومعناها الوسط والتخوم : الحد .

٢)- ترف : من رف النبات إذا اهتز وتنعم – والأروم : جمع أرومة وهي الأصل.

٣)- شرح الديوان ج ٣ ص ١٦٢ (بتصرف) – وحش الشيء أي جمعه ، وكذلك حش الشيء بالشيء أي طلاه به.

أحق الناس بـالكرم امـرؤ لـم يزل يأوى إلى أصل كريم[1]

فكل امرئ معذور – فى رأيه – حر فى تصرفه ، بخيلا كان أو كريم ، إلا إذا كان من طيئ ، فإنه غير معذور ، ولذلك سماه لئيما ، وإن الإنسان المستحق للكرم هو من يرجع أصله إلى نسب كريم ، ثم يتابع أبو تمام مدحه لبنى عبد الكريم وبعض أبناء – كندة [2] اليمنيين في قصيدة أخرى ، ويصور شعوره المضطرم حينئذ بيمنيته وطائيته فى قصيدة يمدح بها (عمر بن عبدالعزيز الطائى) من أهل حمص بدأها بقوله :

يا هذه أقصرى ما هـذه بشـر ولا الخرائد من أترابها الأخر

وفيها يقول :

نعم الفتى عمر فى كـل نائبـة نابت وقلت له(نعم الفتى عمر)

يعطى ويحمد من يأتيـه يحمـده فشكره عوض ومالـه هـدر

وسائل عن أبى حفص فقلت لـه أمسك عنانك عنه إنه القـدر

هو الهمام هو الصاب المريح هو الـ حتف الوحى هو الصمصامة الذكر

فتى تراه فتنفى العسـر غرتـه يمناً وينبع من أسرارها اليسر(٣)

فعمر نعم من يمدح ، ألا تراه يعطى العافى ثم يشكره بعد الإعطاء اغتناما لمجيئه طالباً معروفه ، فحمده له عوض من حمد العافى له ، والعطاء فضل ونافلة ليس لها ثواب بحمد وثناء، ثم يقول: يا سائلى عن (أبى حفص) وهى كنية (عمر) أمسك لسانك عن الخوض فى سيرته فإنه القدر ، لأنه رجل عظيم الهمة و (همام) اسم من أسماء الملك لعظم همته وهو الشجاع السخى إذا همّ بشئ أمضاه لا يرد

١)- السابق ج ٣ ص ١٦٤.
٢)- كندة : أبو قبيلة من العرب ، وقيل أبو حي من اليمن ، وهو كندة بن ثور / لسان العرب ج ٥ ص ٣٩٣٦.
٣)- شرح الديوان ج ٢ ص ١٨٨.

عنه بل ينفذ كما أراد ، وهو الصاب ، والصاب (شجر مر كالحنظل) أو عصارة شجر مر[1]، هذا الشجر أخرج سنبله ، وهو النبات الذى سالت عصارته الشديدة المرارة ، وكذلك هو الموت والهلاك ، وهو السيف الصارم الذى لا ينثنى و (الصمصامة) اسم سيف عمرو بن معد يكرب ويقال للرجل مجتمع الخلق ، والذكر هو اليابس الحاد الشفرة ، فصمصامة ذكر أى سيف يابس صارم حاد الشفرة ، ومع كل تلك الأوصاف السابقة التى أثبتها شاعرنا للمدوح التى ما يكاد يسمعها سامع إلا ويقع فى نفسه قوة ذلك الرجل ، والخوف منه ، يعود أبو تمام فيقول : إنه بمجرد رؤية غرته ينتفى العسر ، ويخرج من خطوطها (أساريرها) اليسر والكرم .

ثم يستفهم متعجبا :

يا ليت شعرى من هاتـا مـآثره	ماذا الذى ببلوغ النجم ينتظر ؟!

وكأنه قال : أى أمر ينتظر ببلوغ النجم ؟ فلم لا يبلغه ؟ !

ثم يقول :

سافر بطرفك فى أقصى مكارمنا	إن لم يكن لك فى تأسيسها سفر
هلى أورق المجد إلا فى بنى أدد	أو اجتنى منه لو لا طيئ ثمـر
لـولا أحاديـث بقتهـا مآثرنـا	من الندى والردى لم يعجب السـمر(٢)

وبنو أدد هم أبناء كهلان القحطانيون يرمز بهم إلى جميع القبائل اليمنية ، فلولا تلك القبائل جميعا التى سارت بها الركبان فى الكرم والشجاعة ما وجد السمار مادة لأحاديث السمر الطريفة .

ومن الذين مدحهم أبو تمام من أبناء عبد الكريم ، أحمد بن عبد الكريم الطائى الحمصى ، ومدحه بدالية بدأها قائلاً :

---

١)- لسان العرب ج ٤ ص ٢٥٢٠ وما بعدها.
٢)- شرح الديوان ج ٢ ص ١٩٠.

يا دار دار عليك إرهـــام النـــدى ... واهتز روضك فى الثرى فترأدا

وكسيت من خلع الحيا مستأســـداً ... أنفا يغادر وحشه مستأســـدا[١]

وفيها يقول :

من كان أحمد مرتعـــا أو ذمـــه ... فالله أحمد ثم أحمد أحمـــدا[٢]

أضحى عدوا للصديق إذا غـــدا ... فى الحمد يعذله صديقا للعـــدا

ولتنظر إلى صور أبى تمام التى ينتظمها خيط واحد وتخرج من مشكاة واحدة، وكيف أن الإنسان يصير عدوا لصديقه إذا عذله على بذل ما له لاكتساب الحمد ، صديقاً لعدوه إذا عذره على الجود **ثم يقول :**

أفنيت منه الشعر فـــى متمـــدح ... قد ساد حتى كاد يغنى السؤددا

عضب العزيمة فى المكارم لم يدع ... فى يومه شرفاً يطالبـــه غـــداً

برّزت فى طلب المعالى واحـــداً ... فيها تسير مغـــوّراً أو منجـــداً

عجباً بأنك ســـالم مـــن وحشـــة ... فى غاية ما زلت فيها مفـــرداً

وأنا الفداء إذا الرماح تشـــاجرت ... لك والرماح من الرماح لك الفدا

وسلمت أنّـــا لا تـــزال ســـوا لمـــا ... آمالنا لك ما سلمت من الردى[٣]

يقول الدكتور / عبده بدوى :

(نحن نميل إلى القول بأن أبا تمام – بصفة خاصة – ما كان يمدح ممدوحيه بقدر ما كان يمدح المثل الأعلى للإنسان الكامل كما تتمثله الحضارة العربية ، وكما يتمثلها هو ، فهو يمدح جوهر الإنسان أكثر مما يمتدح تلك الأسماء التى يمتلئ بها

---

١)- شرح الديوان ج ٢ ص ١٠١ : وإرهام : من ارهمة وهي المطرة الصغيرة القطر وترأد : أي تمايل – ونبت مستأسد : أي طال واتصل ، وحشة مستأسد اي صار مثل الأسد.

٢)- في إشراك الشاعر لأحمد مع الله في الحمد مبالغة تؤخذ عليه ، ولكن حمده له بمعني الشكر ، ويستفاد ذلك من تقديمه للفظ الجلالة علي الفعل وهو ما يفيد (التخصيص) والقصر وعلي أية حال فلو قال : ثم أشكر أحمدا لكان أكثر توفيقا.

٣)- شرح الديوان ج ٢ ص ١٠٤.

ديوانه ، ولهذا لا نراه يركز على الجانب الحسى من الممدوح ، ذلك لأن تركيزه الحقيقى على الفضائل الكبرى ، وعلى الجانب الروحى فى الحياة)[١] .

مصداق ذلك تلك الأبيات السابقة من مدحه إذ كان تركيزه على السجايا والفضائل التى أظهرها عند ممدوحيه فلم يركز على صفات جسدية مثلاً .

ويضيف الدكتور / بدوى قائلاً :

(ومع أن قدامة ذكر أن صفات المدح هى العقل والشجاعة والعدل والعفة إلا أن هناك من يقدمها فقط على الصفات الجسدية ، ذلك لأن الوجه الجميل يزيد فى الهيبة ، ويتيمن به ، ويدل على الخصال المحمودة ، وعلى هذا الطريق سار أبو تمام)[٢].

... ونحن نميل لهذا الرأى لأننا عندما نقرأ أى قصيدة من قصائد المديح لأبى تمام نتمثل تلك القيم والصور التى يرسمها والصفات والسجايا التى يحبها فى ممدوحه قبل أن يذكر اسمه ، **فقبل أن يقول :**

* من كان أحمد مرتعاً أو ذمه *

نراه يقول :

متهللا فى الروع منهلا إذا   مازند اللحز الشحيح وصردا

فلنتأمل هذه الصورة التى تمثل أعلى السجايا العربية وهو (الكرم) قبل أن تمثل (الممدوح) فيذكر أنه ينسكب بالجود وهو ضاحك ، فى حين يضيق الشحيح على نفسه ، ويمنع عنها الطعام والشراب .

---

١)- أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ص ٦٨ – ط الهيئة العامة للكتاب.

٢)- السابق ص ٦٨ ، والأصح أن يقول (وعلي هذه الطريق) لأن الطريق مؤنثة ففي الحديث "إياكم والجلوس في الطرقات" فجمعها (ﷺ)بالألف والتاء وقال أيضا "فإن أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقها".

ويسير أبو تمام في مدحه لأحمد حتى يصل بنا إلى بيت القصيد :
فيقول :

لا تعـــدمنك طـــئ فلقلمـــا   عدمت عشيرتك الجواد السيدا

وفيه يصرح ويجاهر بأعلى صوته أن ابن عبد الكريم فعل ما فعل لأنه من طئ التى قلما تخلو من أمثاله كحاتم وغيره من الأسخياء ، وكأنه أراد أن يمدح طئ – قبيلته – في شخص أبن عبد الكريم.

ولا أظن رجلاً غير طائى يمدح (طيئاً) بمثل ما مدحها به أبو تمام وهو كذلك على علم بكل مشاهيرها من جاهليتها إلى إسلامها وهو يعرض بذلك كثيراً في شعره .

*** أبو تمام في مصر :**

هجر أبو تمام (حمص) والشام وولى وجهه تلقاء مصر طلبا للمال ، ولم يكن قد بلغ من الشعر رتبة تلفت إليه الأنظار ، فيولى وجهه نحو (عياش بن لهيعة الحضرمى اليمنى)[1] صاحب الخراج بمصر دون سواه لما بينهما من أواصر النسب ، فابن لهيعة يمنى من حضرموت ، وأبو تمام من طئ ، وكل من حضرموت وطئ متجاورتان بحكم الموقع فى الجنوب .

ولنا أن نتخيل رجلاً غريباً فى مكان لا يعرف فيه أحداً ولا يعرفه فيه أحد، يفجؤه القدر برجل من جلدته يجلس على رأس الخراج ، فصار أبو تمام كمن وجد ضالته التى بات ينشدها طويلاً – لا سيما – وقد ضاقت به السبل ، ولم يجد مبتغاه من الأموال التى باتت نفسه تمنيه بها ، فذهب إليه يمدحه بقصيدته التى بدأها **بقوله :**

---

١)- حضرموت : مقاطعة في جنوبي جزيرة العرب ، وطيء أيضاً من عرب الجنوب ، أو هي قبيلة من اليمن – شرح الديوان ج ١ ص ١٥٣.

* تقى جمحاتى لست طوع مؤنبى *[1]

والتى يقول فيها مادحا عياشا :

رأيت لعياش خلائق لـم تكـن	لتكمل إلا فـى اللبـاب المهـذب
له كرم لو كان فى الماء لـم يغـض	وفى البرق ما شام امرؤ برق خلب[2]
أخو أزمات بذله بـذل محسـن	إلينا ولكن عـذره عـذر مـذنب

فأبو تمام يرى عياشاً وقد اجتمعت فيه خصال لم تكن لتجتمع فى أى رجل من عرض الناس ، بل فى رجل كريم مهذب خالص ، وأخذ يفصل تلك الخلائق بعد إجمالها فقال :

له كرم .... الأبيات

ومعلوم أن الكرم من أشهر السجايا العربية ، وأبرز الفضائل ، والصفات المثلى على عادة العرب الذين كانوا يعجبون بالكرماء ويقدرونهم ، ويرسمون لهم صوراً شتى فى قصائدهم ويلبسونهم – بمديحهم إياهم – أثوابا من الثناء والإعجاب

... وكأنى بأبى تمام وقد أصاب هدفين برمية واحدة ؛فمدح عياشاً اليمنى العربى الأرومة مثله ، ثم علل مدحه له بالكرم ، والكرم من أجل الصفات التى يمدح من أجلها العربى ، وفى ذلك ما يوحى بعروبة شاعرنا وتتجلى عبقرية أبى تمام فى أنه خص الكرم وبدأ به مدحه لعياش دون غيره من الصفات ، ليلفت نظر

---

١)- شرح الديوان ج ١ ص ١٤٦ : تقي : فعل أمر من تقاه يتقيه (مخففا) (وجمحاتي) من جمح الفرس إذا عز فارسه وقوله (لست طوع مؤنبي) أي لست مطيعه ، والمعني اتقيني فيما أتصعب فيه فإني لا أطاوع المؤنب إذا أذنب.

٢)- البرق الخلب: الذي لا غيث فيه ، كأنه خادع يوم حتي تطمع بمطره ثم يخلفك. لسان العرب ج٢ ص ١٢٢٠.

عياش فى رفق إلى أنه فى حاجة إلى كرمه وموفور عطاياه ثم ذكر فى أعقاب الكرم صفات أخرى كالجرأة والشجاعة وقوة البأس والهيبة **فيقول** :

يهولك أن تلقاه صدرا لمحفل ... ونحراً لأعداء وقلبا لموكب

مصاد تلاقت لوذا بريوده ... قبائل حى حضرموت ليعرب

بأروع مضاء على كل أروع ... وأغلب مقدام على كل أغلب

كلوذهم فيما مضى من جدوده ... بذى العرف والإحماد قيل ومرحب[1]

فيذكر أنه كالجبل العالى الذى تحتمى بحروفه الناتأة أحياء حضرموت ويعرب ، وهو كذلك رجلاً يروعك بجماله على أروع وأغلب ، ويلوذ الناس ويحتمون به كما كانوا يلوذون في الماضى بأجداده ذوى المعروف والحمد (قيل ومرحب) وهى أسماء جدوده .

ويتابع أبو تمام مدحه لعياش إلى أن يقول :

وما ضيق أقطار البلاد أضافنى ... إليك ولكن مذهبى فيك مذهبى

فيقول : كما أورد التبريزى شارح الديوان :

(لم يلجئنى ضيق البلاد على ، وكساد بضاعتى عند الناس ، ولكن مذهبى **ألا أسأل إلا الكريم)**[2].

وقال المرزوقى: (لم يلجئنى ضيق البلاد على ، وكساد بضاعتى عند الناس لأن فى الأرض فيحة ، وفى أهل الفضل والأفضال كثرة ، ولكن قضاء حقك والقصد إليك والثناء عليك لفضلك وكرمك ، وهو مذهب أعتقده ودين **أتدين به)**[3].

---

١)- شرح الديوان ج ١ ص ١٥٣.

٢)- شرح الديوان ج ١ ص ١٥٤ .

٣)- نقلاً عن ما ذكره د / محمد عبده عزام محقق الديوان في هامش ص ١٥٥ ج ١ .

ولعلى لا أتفق مع أبى تمام فى قوله هذا ، ولا أظنه إلا مبالغاً مدعياً ما ليس عنده ، إذ من الثابت أنه قصد مصر طلباً للمال فى مظانه بعد أن ضاق رزقه فى الشام.

ولا أدل على مبالغته وادعائه إلا هجاؤه عياشاً ، حيث أنه هجاه حينما وعده وماطله ، فلما لم يجد عنده ما كان يأمله هجاه هجاء مراً وظل يتابعه بهجائه حتى بعد موته .

ثم يعلن أبو تمام لعياش أنه ما مدحه إلا لأنه بمنزلة ومكانة الأهل والعشيرة ببلد لم يكن له فيه أحد **فيقول** :

وأنت بمصر غـــايتى وقرابتـــى بها وبنو الأباء فيها بنـــو أبـــى

فيقـول : أنت غاية مناى بمصر ، وأنت قرابتى لأنى أمت إليك بحرمة الأدب ووسيلته ، وإن لم يكن بيننا قرابة النسب بها ، أو أنت غايتى بمصر مع قرابتى بها ولذلك حق له **أن يقول** :

فقومت لى ما اعوج من قصد همتـــى وبيضت لى ما اسود ومن وجه مطلبى

وهاتا ثياب المجد فـــاجرر ذيولهـــا عليك وهذا مركب الحمد فاركب[1]

ولأبى تمام قصيدة أخرى فى مدح عياش الحضرمى بدأها بقوله :

أحيا حشاشة قلب كـــان مخلوســـا ورم بالصبر عقلا كان مألوســـا[2]

وفى هذه القصيدة يبوح أبو تمام بخلجة من خلجات نفسه – قبل مدحه عياشا – وشعور لا أشك فى أنه كان يثقله كثيرا فيقول للائمته .

لو تشهدين أقاسى الدمع منهمـــرا والليل مرتتج الأبواب مطموسا

استتبت القلب من لوعاته شـــجرا من الهموم فأجنته الوساويســـا

---

١)- شرح الديوان ج ١ ص ١٥٦ .

٢)- السابق ج ٢ ص ٢٥٣ : والحشاشة : بقية النفس من حش الشيء إذا يبس ومخلوسا : من خلست الشيء إذا أخذته كالخاطف ؛ والمألوس : مثل المجنون يقال في عقله ألس إذا وصف بالخفة والجنون .

فتحس وكأنما يشكو الحياة التى أوصدت الأبواب فى وجهه فأصبح وحيداً في جهاده معها وقد حرم فيها المعونة من معين فأخذ يسكب العبرات ولكنه ما يلبث أن يجففها سريعاً ويشرع فى مدح عياش . **فيقول** :

لى حرمة بك أمسى حق نازلها ... وقفاً عليك- فدتك النفس - محبوسا

كم دعوة إذا مكروهة نزلت ... واستعجل الخطب يا عياش يا عيسى

فاضت سحائب من نعمائه فطمت ... نعماه بالبؤس حتى أجتثت البوسا

فلم ينس شاعرنا أن عياشا حضرمى ، وهو طائى تجاوروا فى الجنوب فكإنما يناشده بذلك الأصل الذى انحدرا منه وهو اليمن ويختم قصيدته **بقوله** :

شامت بروقك آمالى بمصر ولو ... أصبحت بالطوس لم أستبعد الطوسا

ويخبره بأنه لو كان في أقصى البلاد لضرب إليه أكباد الأبل ولم يستبعد مكانه لما بينهما من قرابة .

● أبو تمام فى الشام

ترك أبو تمام مصر وعاد إلى الشام بعد أن ضاق رزقه بمصر، ويبدو أن أهله قد أوحشوه أيضاً فهتف **يقول** :

ما اليوم أول توديع ولا الثانى ... البين أكثر من شوقى وأحزانى

دع الفراق فإن الدهر ساعده ... فصار أملك من روحى بجثمانى

خليفة الخضر من يربع على وطن ... فى بلدة فظهور العيس أوطانى

بالشام أهلى وبغداد الهوى وأنا ... بالرقتين وبالفسطاط أخوانى

وما أظن النوى ترضى بما صنعت ... حتى تطوّح بى أقصى خراسان[1]

---

١)-شرح الديوان ج ٣ ص ٣١٠ .

فأهله في الشام وأحبابه فى بغداد وهو فى الرقة وإخوانه فى الفسطاط ولا يزال به النوى حتى يصل به إلى أقصى خراسان لرؤية أقربائه هناك .

وأبو تمام يصدر فى ذلك عن شعور متأصل فى طواياه بوحدة العرب مهما اختلفت بلدانهم وتباينت أوطانهم فقد جمع بين بلدان العالم العربى من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، وهو بذلك يصبح السابق غير منازع إلى الإحساس بهذا الشعور العام ، الذى يؤمن به كل عربى ، فجميع البلدان العربية حصون ضخمة للعروبة ، وكل من يعيش فيها من أبناء " الضاد " التى تصل الروح بالروح .

● مدح أبى تمام لأصحاب البطولات العربية

بعد ما ترك أبو تمام مصر وعاد إلى الشام كان من الذين مدحهم فى تلك الأثناء الخليفة (المامون) وله فى مدحه أكثر من قصيدة أحداها مقطوعة لا تتعدى أربعة أبيات بداها **بقوله** :

يا وارث الملك إن الملك محتـبس	وقف عليك إلى أن تنشر الصـور
ما ضر من أصبح المأمون سائسـه	إن لم يسسه أبو بكر ولا عمـر[1]

وأما الثانية: فهى سجل تاريخى ، يبدى لنا فيها أبو تمام صفحة من صفحات التاريخ ، ناصعة لا تشبه فى أسلوبها أسلوب المؤرخين ، ولكنها تمتاز بالبسط وطول النفس – كعادته فى قصائده التى امتزجت بالتاريخ العام – وتبين الانفعالات النفسية التى كانت تعمل فى نفوس قومه يوم ذاك .

وغدا أبو تمام منذ ذلك التاريخ لسانا للعروبة التى كانت ينابيعها تتفجر في قلبه ، لسانا يعبر عن انتصاراتها الحربية ، ويصوغ تلك الانتصارات للعروبة أناشيد مجلجلة ، أناشيد كالرعد القاصف تنذر الأعداء بالويل والثبور والهلاك

---

١)- شرح الديوان ج ٢ ص ٢٢١ والأبيات من بحر البسيط وتفعيلاته هي مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن.

والدمار وكان نافذ البصيرة فرأى ألا ينظمها بعيداً عن ساحات الحرب إعمالاً للمثل العربى (فما راء كمن سمع) . وكأنه بذلك يصنع صنيع مكاتبى ومراسلى الصحف والإذاعات الحربيين فى عصرنا الحاضر، فيرافق الجيوش حتى يرى الوقائع تحت بصره ويرى ما يأخذ به قوادها البواسل أنفسهم من الصبر والجلد واحتمال ما يطاق، وما لا يطاق حتى يذيقوا الأعداء بأسهم ويمزقوهم شر ممزق، ويبدأ أبو تمام تلك القصيدة المأمونية **بقوله** :

دمن ألم بها فقال سلام ... كم حل عقدة صبره الإلمام !

نحرت ركاب القوم حتى يغبروا ... رجلى ، لقد عنفوا على ولاموا

وفيها يقول :

لما رأيت الدين يخفق قلبه ... والكفر فيه تغطرس وعرام

أوريت زند عزائمٍ تحت الدجى ... أسرجن فكرك والبلاد ظلام[1]

فأبو تمام يمدح المأمون لأنه حام للدين زائد عن حياضه ضد الكفر، والدين وهو (الإسلام) ممثل بالضرورة فى العرب ، أما الكفر فممثل فى الروم فكنى الشاعر عن العرب بالدين وعن الروم بالكفر، ويقول للمأمون: أعملت فكرك وأخرجت نار عزمك بليل ، كما يقال هذا أمر دبر بليل والمعنى إنك بيت الرأى ، وقوله و (البلاد ظلام) أى قد استولى عليها ظلمة الظلم وظلمة الكفر، ويأخذ أبو تمام في النظم ، نظم المشاهد المعاين مبتهجا بالنصر المبين، وأولى معارك المأمون. مع (تيوفيل) إمبراطور الروم ، وما أخذ ينزله به منذ سنة ٢١٥ للهجرة من هزائم ساحقة كال له فيها هو وجنوده ضربات قاصمة ، وكان أكبرها وأشدها هولا معارك سنة ٢١٨ هـ إذ لم يكد المأمون يبلغ نهر (البدندون) في الجنوب الغربى لأسيا الصغرى حتى

---

١)- شرح الديوان ج ٣ ص ١٥٤ .

وفد عليه رسول من(تيوفيل)جاءه مسرعاً يعرض عليه فى ذلة وانكسار- إحدى ثلاث:

أما الاولى : إما أن يرضى بأن يأخذ كل ما أنفقه فى طريقه على جيشه ويعود دون حرب.

والثانية : أن يرضى بأن يرد له ما لدى الروم من أسرى المسلمين دون فداء .

والثالثة : أن يرضى بتعهد الروم أن يصلحوا كل ما أفسدوه من ثغور المسلمين.

ويجيب المأمون غاضباً :قل لتيوفيل:أما قولك ترد على نفقة الجيش فإنى سمعت الله تعالى يقول فى كتابنا حاكيا عن (بلقيس) :

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾

[سورة النمل ٣٥: ٣٦]

وأما قولك : تخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم فما فى يدكم إلا أحد رجلين إما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة فقد صار الى ما أراد، وإما رجل يطلب الدنيا فلا فك الله أسره .

وأما قولك : تعمر كل بلد للمسلمين خربته الروم ، فلو أنى قلعت أقصى حجر في بلاد الروم ما اعتضت ذلك بامراة عثرت عثرة فى حال أسرها فصرخت : وامحمداه ، وامحمداه ثم صاح برسول (تيوفيل) عد إلى صاحبك فليس بينى وبينه إلا السيف والتفت إلى من معه قائلاً اضربوا الطبول ايذانا بتحرك الجيش الجرار إلى الحرب ، وضرب الطبل ، وتقدم الجيش يزلزل الأرض زلزالاً عنيفا بما أشاع المأمون فى روحه من الحماسة .

يقول أبو تمام :

فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه حسن اليقين وقاده الإقدام

مثعنجر لجب ترى سلافه ... ولهم بمنحرف الفضاء زحام
ملأ الملا عصبا فكاد بأن يرى ... لا خلف فيه ولا له قدام
بسواهم لحق الأياطل شزب ... تعليقها الإسراج والإلجام[١]
ومقابلين إذا انتموا لم يخزهم ... فى نصرك الأخوال والأعمام
سفع الدعوب وجوههم فكأنهم ... وأبوهم سام أبوهم حام[٢]

بهذا الجيش العالى الصوت الذى لا يعرف أوله من آخره ، ويمتطى فرسانه جياداً متغيره الوجوة، ضامرة الكشوح – وتلك سمة الخيل العربية – ومن المبالغة في السير فقد اسودت وجوههم فصاروا كما يقول التبريزى شارحه (فكأنهم وهم من ولد البيضان من ولد السودان وسام هو أبو البيض وحام أبو السود)[٣] يجتاح المأمون حصون الروم ويسقطها حصنا وراء حصن،وهم لا يملكون له رداً و(تيوفيل) ينتفض خوفاً وهلعاً، وكل ذلك بمرأى من أبى تمام ومسمع ، وكأنما عاد إلى العروبة مجدها الحربى القديم فى الفتوح ، وتغمره نشوة هذا النصر العظيم ويتغنى به وببسالة تلك الجموع العربية التى محقت الروم عند كل حصن محقاً ذريعاً **قائلا** :

تخذوا الحديد من الحديد معاقلاً ... سكانها الأرواح والأجسام
مسترسلين إلى الحتوف كأنما ... بين الحتوف وبينهم أرحام
آساد موت مخدرات مالها ... إلا الصوارم والقنا آجام
حتى نقضت الروم منك بوقعة ... شنعاء ليس لنقضها إبرام
فى معرك أما الحمام فمفطر ... فى هبوتيه والكماة صيام[٤]

---

١)- السواهم : المتغيرات الوجوه , لحق الأياطل شزب – مضمرة الكشح والمعني يركبون خيولاً ضامرة الكشح ويعلق عليها بالإسراج والألجام بدلاً من القضيم (الشعير).
٢)- سفع : سود الدؤوب : المبالغة في السير – لسان العرب ج ٢ ص ١٣١٠ .
٣)- شرح الديوان ج ٣ ص ١٥٦ .
٤)- السابق ج ٣ ص ١٥٦ .

فهم دائماً يعيشون تحت ظلال السيوف والرماح ، ودائماً يقتحمون ميادين الحروب للفتك والإقدام ومنازلة الأقران ، وكأنما بينهم وبين الموت وشائج قرابة فهم دائماً يسقون أعداءهم كؤوسه وسمومه القاضية الفتاكة ، وكأنهم أسود أجماتها[1] رماح وسيوف مشرعة ما تنى أن تنشب أظفارها فى فرائسها حتى تلفظ الفرائس أنفاسها ، أسد صائمة لا تعبأ بطعام ولا شراب ، بينما الموت فاغرا فاه مكشراً عن أنيابه يلتهم الأشباح .

وأخذ أبو تمام يردد هذا المديح الممزوج بالفخر الذى يكتظ بمشاعر العروبة التى تروق وتروع ، وهو ما دفعه الى استظهار أمجادها فى القديم والحديث والتغنى بها غناء لا يجف معينه ، وكأنما أراد بمدحه هذا أن يشفى حقد العروبة المتأجج في دخائله ضد (تيوفيل) وأتباعه ، ولذلك نراه يقول شعراً يشبه بالتمام ذلك السيف الذى يتقلده الفارس المغوار ، فصار أبو تمام بقوله ذلك ، ومن الوقوف في مصاف الفرسان ، تستوى أقدامهم مع قدمه ، لأن التفاضل بينهم وبينه غير حاصل يقول :

والضرب يقعد قرم كل كتيبة	شرس الضريبة والحتوف قيام
ففصمت عروة جمعهم فيه وقد	جعلت تفصّم عن عراها الهام
ألقوا – دلاء فى بحورك أسلمت	ترعاتها الأكراب والأوذام[2]
ما كان للإشراك فوزة مشهد	والله فيه وأنت والإسلام

فشدة الضرب تقعد كل قرم وهو (السيد العظيم) في الكتائب وجعلت الهامات تتطاير ، وكأنما تنفصم من عراها حينئذ كما يقول التبريذى شارحه

---

١)- أجمات : جمع أجم وهو كل بيت مربع مسطح والمعني أنهم أسود بيوتهم الرماح والسيوف- لسان العرب ج ١ ص ٣٤ .

٢)- شرح الديوان ج ٣ ص ١٥٦ – الكرب : خيط يفتل ويشد بوسط العرقوتين والأوذام : جمع وذم : وهو سير من جلد أو خيط أو ليف يدخل في العروة ثم يدخل في ثقب رأس العرقوة.

(كادوك برأى خانهم كما خانت هذه الدلاء المملوءة أوذا مها وأكرابها)[1] فلم يتحقق للشرك فوز وإنما لله ثم للمأمون ثم للإسلام وأبو تمام ذو عاطفة صادحة صادقة ولذلك جاءت الأبيات تنضح بالعاطفة المتعاطفة مع بنى جنسه (العرب) ومتعاليه على أعدائهم ، وينفخ الشاعر أيضاً في الأبيات روح القداسة إذ يجعل الحرب هنا ملحمة إسلامية ، حرباً تدور بين شرك وإسلام لا بين أمير وأمير أو عظيم وخليفة ، والغلبة فى هذه الحرب لدينه .

ويمضى أبو تمام في قصيدته حتى النهاية واصفا للحرب منضوياً تحت لوائها يناضل ويدافع وكان لا يملك من الأسلحة سوى شعره فاستحال في يده قوسا ينزع عنه أبياتا مصمية يسددها إلى صدور الأعداء الغاشمين حتى يذيقوهم كل ما يمكن من ألوان الفتك والبطش والنكال واشتعلت في صدره حينئذ الغريزة العربية غريزة (الأخذ بالثأر) أقوى اشتعال مما جعله يستشعر في صدق وإخلاص فرحة غامرة مع كل نصر وكل ثأر يشفى غليل العروبة المجيدة التى كانت تتوهج في ميراث أعراقه وظلت تتوهج فى دمه وقلبه وروحه وحسه وشعوره وظل يقدسها ويمجدها ويرتل لها انتصاراتها المظفرة أناشيد حربية خالدة .

- **مدح أبى تمام لخالد بن يزيد الشيبانى [2]**

على نحو ما رأينا من امتداح أبى تمام للمأمون وجدنا مدحه لخالد بن يزيد الشيبانى وكلما أنعمنا النظر فى ديوان أبى تمام وجدنا صفحات أمجاد العروبة تتجلى صفحة تلو الأخرى ويصور شاعرنا ذلك من بعض الوجوه فنراه يمدح خالداً بن يزيد الشيبانى والى الموصل للمأمون وأحد قواد جيشه المغاوير بقصائد عدة منها قصيدة بدأها **بقوله** :

لقد أخذت من دار ماوية الحقب   أنحل المغانى للبلى هى أم نهب ؟![1]

---

١)- السابق ج ٣ ص ١٥٦ .

٢)- هو خالد بن يزيد الشيباني والي الموصل للمأمون ويتصل نسبه بقبيلة شيبان العربية.

وفي هذه القصيدة ينفض أبو تمام الغبار عن صفحة من التاريخ قبل الإسلام إذ في مدحه خالد تلمع في مخيلته موقعة أسلافه الشيبانيين في يوم (ذى قار)[٢] الذى انتصرت فيه شيبان على الفرس قبل الإسلام وكأن ذلك كان إيذانا بما سيحدث عما قليل من تقويض العرب لدولتهم (الفرس)ويرفع أبو تمام الموقعة شعارا لهذا المجد الحربى القديم قائلا :

لهم يوم (ذى قار)مضى وهو مفرد ... وحيد من الأشباه ليس له صحب

به علمت صهب الأعاجم أنه ... به أعربت عن ذات أنفسها العرب

هو المشهد الفصل الذى ما نجا به ... لكسرى بن كسرى لا سنام ولا صلب

أقول لأهل الثغر قد رئب الثأى ... وأسبغت النعماء والتأم الشعب[٣]

يقول : يكفى الأعاجم هذا اليوم (ذى قار) الذى ظفرت فيه بنو شيبان بجيوش كسرى وبهذا اليوم علمت الأعاجم ما كانت تنطوى عليه العرب لها من طلب الفرصة فى الوثوب عليهم حتى إذا تمكنوا من ذلك لم يتركوا لكسرى من جيشه شيئاً ، ومن الواضح من كلمات أبى تمام و قصائده فى ذلك أنه لا يضع هذا النصر الحربى العظيم على مفرق شيبان وحدها بل على مفرق العرب قاطبة ، إنه يوم فخار من أيام العروبة المجيدة روعت فيه الفرس بما أذاقتهم من البطش والنكال وما صبته على ملكها كسرى من الهزيمة والاندحار.

وفي القصيدة نفسها وبعد بيتين فقط من الأبيات السابقة يسجل أبو تمام (لخالد) مجدا حربيا ظفر به وأبلى فيه هو وجنوده بلاء حسناً ، فقد تبع خالد

---

١)- شرح الديوان ج ١ ص ١٧٧ : وماوية : من أسماء النساء ، والحقب: الدهر أو البرهة الطويلة التي لا حد لها . والمعني أصيرت المغاني للبلي نحلا أم نهبا ؟ .

٢)- وكانت هذه الواقعة بين بكر بن وائل والهرمزان صاحب كسري أبرويز . وهو اليوم الذي قال فيه النبي ﷺ "هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونصرت عليهم بي" . مروج الذهب ج ١ ص ٢٨٩ ط دار الفكر بيروت.

٣)- شرح الديوان ج ١ ص ١٨٨ . وأصل (الراب) الإصلاح و (الثاي) الفساد.

بجنوده (تيو فيل) حين ولى على وجهه هارباً من بين يدى المأمون وأوغل وراءه في بلاد الروم يأسر ويغنم ويراسله (تيو فيل) مذعنا خانعاً يطلب الصفح والصلح ولا يجيبه خالد فيوغل في فراره وقد أخذه الرعب والهول من كل جانب ويمجد أبو تمام خالدا وانتصاراته فيقول :

ولما رأى توفيل راياتك التي … إذا ما اتلأبت لا يقاومها الصلب[1]

تولى ولم يأل الردى في اتباعه … كأن الردى في قصده هائم صب

كأن بلاد الروم عمت بصيحة … فضمت حشاها أو رغا وسطه السقب[2]

بصاغرة القصوى وطمين واقترى … بلاد قرنطاووس وابلك السكب[3]

غدا خائفاً يستنجد الكتب مذعناً … عليك فلا رسل ثنتك ولا كتب

وما الأسد الضرغام يوماً بعاكس … صريمته إن أنّ أو بصبص الكلب[4]

فبمجرد أن رأى (تيوفيل) طاغية الروم رايات خالد وجموعه التى لا يثبت لها أعتى العتاة أمعن فى الهروب والردى يلاحقه يريد أن يغنم منه فرصة أو يصيب منه غرة وكأنما عمت بلاد الروم صيحة خلعت القلوب وكأنها الصيحة التى أنذرت ثمود من قبلهم حين رغا ولد الناقة التى عقروها عصيانا لله وكفرانا ، وتتبع جيش خالد الذى يشبه الوابل (تيوفيل) في كل مكان فصار يستعين عليه بإنفاذ الكتب والرسل فلا يرده ذلك عن نيته إذ ليس من طبيعة الأسد أن يرجع عما اعتزم فعله ، مهما توجع الكلب أو حرك ذيله تقرباً ومداراة ، ولما علم العدو أنه لا مفر من الحرب التى تطحن بين قطبى رحاها عظام جنوده وعظامه من قبلها

---

١)- اتلأبت : تتابعت هزتها ، واصل (اتلأب) استقام.
٢)- السقب: يعني ولد الناقة التي عقرها ثمود فصارت شؤماً عليهم.
٣)- صاغرة – وطمين وبلاد قرنطاووس أسماء أماكن في بلاد الروم واقترى أي تتبع.
٤)- العكس : قلب الشيء – وصريمته : ما يصرمه من عزمه أي يمضي عليه فلا يرجع ويقال بصبص الكلب : إذا حرك ذنبه تقرباً ومداراة . شرح الديوان ج ١ ص ١٩٠ .

أخذ يولى الأدبار وهو يرى كل شئ أمامه عدواً له حتى نفسه التى بين جنبيه لا تأمن من سوء ظن نفسه لذلك :

مضى مدبر شطر الدبور ونفسه ... على نفسه من سوء ظن بها إلب [١]

جفا الشرق حتى ظن من كان جاهلا ... بدين النصارى أن قبلته الغرب

أما رجالك وجنودك فهم :

كماة إذا تدعى نزال لدى الوغى ... رأيتهم رجلى كأنهم ركب

فهم يقاتلون قتال الفرسان وهم رجلى لطولهم والعرب تمدح بالطول ولذلك قالوا (طويل النجاد) وقالوا :

● وأن أعزاء الرجال طيالها ●[٢]

أما أنت أيها الممدوح فـ :

جعلت نظام المكرمات فلم تدر ... رحا سؤدد إلا وأنت لها قطب

. إذا افتخرت يوما ربيعة أقبلت ... مجنبتى مجد وأنت لها قلب[٣]

فإذا افتخرت ربيعة بأن منها شجعان القوم لم تقل شيبان إنك منها بل جاءت ميمنة وميسرة الجيش لتشهد بشجاعتك وأنت فى قلب الجيش لأن ذلك هو مكان عميد الجيش وذلك لأنك الخيط الذى انتظم المكرمات فلم تدر رحا سؤدد ومجد إلا كنت أنت شقاً لها .

● مدح أبو تمام لبعض قواد العرب.

ونطوى صفحة الحروب المأمونية التيوفيلية إلى حروب المأمون مع بابك الخرمى[٤] ومن بعد المأمون المعتصم ، تلك الحروب التى كان من ضحاياها (محمد بن حميد الطوسى الطائى) والذى أفتك به بابك وكان قائداً من قواد

---

١)- إلب : يقال هم ألب عليك أي قد تألبوا.
٢)- الأصح طوالها.
٣)- شرح الديوان ج ١ ص ١٩٤ .
٤)- هو رجل ادعي الألوهية وعكر صفو الدولة في عهد المامون وكذلك في عهد المعتصم إلي أن قتل ويسمي بابك الخرمي نسبة إلي (خرما) زوجة مزدك الذي أسس الحركة المزدكية في عهد كسري وتفرع منها الخرمية البابكية نسبة إلي بابك.

العرب العظام[1] امتدت تلك الحروب آماداً متطاولة وكان من أبرز القواد الذين أبلوا فيها بلاء حسنا (أبى سعيد الثغرى)[2] ومما يجلى وجه العروبة عند أبى تمام كثرة مدائحه لذلك القائد وآله ، جاعلاً له الحظ الأوفر فى انتصارات المعتصم على بابك الخرمى ، ومعه من القواد (أبو دلف العجلى)[3] وكثيراً ما تغنى أبو تمام بهذه الانتصارات ، وردد الحديث عنها فى مدائحه لأبى سعيد الثغرى **كقوله** :

فتى هز القنا فحوى سناء — بها لا بالأحاظى والجدود

إذا سفك الحياء الروع يوما — وقى دم وجهه بدم الوريد

وقوله :

رآه العلج مقتحماً عليه — كما اقتحم الفناء على الخلود

فمر ولو يجارى الريح خيلت — لديه الريح ترسف فى القيود

شهدت لقد أوى الإسلام منه — غداتئذ إلى ركن شديد[4]

وهو في تلك الأبيات السابقة يصور أبا سعيد الثغرى كأنما نذر نذوراً لربه أن يحارب بابك الخرمى وأتباعه ويقضى عليهم قضاء مبرماً ، وقد وفى بها نذراً وراء نذر، وتلك سيوفه المفللة تشهد له بنكايته فى أصحاب بابك حتى أصبحوا لحماً على وضم،حينئذ شفت النفوس من حقدها الذى كان قد تراكم عليها منذ مقتل (ابن حميد الطوسى) لا نفس أبى سعيد الثغرى وحده بل – أيضاً - نفس أبى تمام وغيره من العرب ، فكلهم كان يريد أن يشفى حقد العروبة المتأجج فى دخائله ضد بابك وأتباعه ، وحينئذ أيضاً أصبح الإسلام فى عزة ومنعة إذ يرى عدوه يسابق الريح هلعاً وفزعاً ، حتى لو قيست سرعته فى الهروب بالريح ، لكانت الريح إزاء ذلك ترسف فى قيودها .

---

١)- سوف أفصل القول في ذلك في مبحث (الرثاء) التالي لهذا المبحث.

٢)- أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري من كبار القادة في جيش المعتصم في حروبه مع بابك ، وهو من طيء ويلقب بالثغري نسبة إلي عمله معظم أيامه في ثغور المسلمين.

٣)- أبو دلف القاسم بن عيسي العجلي الشيباني قائد كبير من قواد المسلمين وصاحب الكرخ.

٤)- شرح الديوان ج ٢ ص ٣٧ .

فالخوف والفزع قد ملك على بابك كل أقطار نفسه، وذلك البطل المغوار (أبو سعيد) يضرب ضربا ترقص له الأحشاء فى الأجساد وتطرب له القلوب إذ ناشت سيوفه شطر أعدائه، والشطر الآخر ناشته حرائق المجانيق، فهم بين مقتل، وبين محرق، وهى قسمة لا يخص شرفها أبا سعيد وحده، بل يعم العرب جميعاً وهذا هو معنى قولنا: إن نفس أبى تمام كانت تكتظ بمشاعر العروبة فإذا انتصر أحد قواد تلك الحرب أحس بقوة يحسها كل عربى إذا انتصر بنو جنسه وكأنما يشاركه فى هجماته وضرباته وانتصاراته، ويذيب أبو تمام فى ذلك غريزة الأخذ بالثأر المكتنة فى نفوس العرب منذ العصر الجاهلى، ومنذ كانوا لا يتنادون بشئ ندائهم بطلب الثأر، حتى غدا ذلك عندهم وكأنه عقيدة دينية لها شعائرها وطقوسها من تحريم الخمر والنساء والطيب على أصحاب القتيل، حتى يأخذوا بثأره، مما ولد فيهم نزعة قوية لسفك الدماء من واتريهم.

ويكرر أبو تمام ذلك النصر في غير ما قصيدة متلذذاً بذكره إذ نراه يقول في قصيدة في مدح أبى سعيد:

فتى يوم بذ الخرمية لم يكن	بهيابة نكس ولا بمعرد[1]
قفا سندبايا والرماح مشيحة	تهدى إلى الروح الخفى فتهتدى[2]

ويقول أيضاً:

وقائع أصل النصر فيها وفرعه	إذا عدد الإحسان أو لم يعدد
فمهما تكن من وقعة بعد لا تكن	سوى حسن مما فعلت مردد [3]

فأبو سعيد لم يكن جباناً ضعيفاً يفر يوم الزحف، وكيف يفر ورماحه تبصر قلب (بابك) ولكن ستر القضاء حال بينها وبينه، فنجا وإن هلك من معه، وفى كل تلك

---

١)- البذ : اسم تل والمعني يوم الحرب ببذ الخرمية – والهيابة : فعالة من الهيبة وزيدت التاء للمبالغة – والمعرد : الفار الذي يبعد في الهرب.
٢)- قفا : أي خلف.
٣)- شرح الديوان ج ٢ ص ٢٩ .

الوقائع كان النصر حليف أبي سعيد ، ومهما تكن هناك من وقعة بعد تلك الوقائع فما هي إلا مرددة مكرورة لما فعله الثغرى أولا ولذلك حق لشاعر العروبة أن يتساءل :

تــالله نــدرى : أألاســلام يشــكرها ... من وقعة أم بنو العبـاس أم أدد ؟[1]

فهذا الفخار حائر بين الإسلام، وبني العباس، وأدد وهم قوم الممدوح (لأنه من طئ) فإذا ما نسبت تلك الانتصارات لأى من الإسلام أو بنى العباس أو طئ كانت بمثابة التاج يأتلق على مفرقه ، وحق لكل منهم أن يشرئب عنقه ويتطاول زهوا بتلك الوقائع على أعدائهم .

وامتداح أبى تمام لأبى سعيد الثغرى وافتخاره بذلك النصر على الخرمية احتل موقعا كبيراً وجانباً عريضاً من شعره [2] .

---

١)- الأصح – آلاسلام بقلب همزة الوصل حرف مد مجانس لحركة همزة الاستفهام مثل – (الله أذن لكم) و (قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ .... [سورة الأنعام:١٤٣]) وذلك لأن همزة الاستفهام إذا دخلت علي همزة الوصل المفتوحة قلبت همزة الوصل حرف مد مجانس لحركة همزة الاستفهام.

٢)- ذكر في ذلك قصيدة له في مدح الثغري أيضا بدأها بقوله:

أبــي فــلا شــنبا يهــوي ولا فلجــا ... ولا احــورارا يراعيــه ولا دعجــا

وفيها يقول :

كانت حوادث في موقان ما تركت ... للخرميــة لا رأســا ولا ثبجــا

لما قرا الناس ذاك الفتح قلت لهم ... وقــائع حــدثوا عنهــا ولا حرجــا

شرح الديوان ج ١ ص ٣٢٩ وما بعدها.

وفي قصيدة أخري بدأها بقوله:

امــا إنــه لــولا الخلــيط المــودع ... وربــع عفــا منــه مصــيف ومربــع

لــردت علــي أعقابهــا أريحيــة ... مـن الشـوق واد بهـا مـن الهـم متـرع

وفيها يقول:

لــدي سـندبايا والهضــاب وأرشــق ... وموكــان والسـمر اللــدان تزعــزع

وابـر شـتو بـم والـذاج وملتقـي ... سـنابكها والخيـل تـردي وتمـزع

غـدت ظلعـا حسـري وغـادر جـدها ... جـدود أنـاس وهـي حسـري وظلـع

شرح الديوان ج ٢ ص ٣٣٢ .

وفي قصيدة أخري وهي من المنحول بدأها بقوله:

ملامـك عنـي لا أبـا لـك واقصـدي ... كفـاك ملامـي وعـظ شـيب ومفنـد

وفيها يقول:

أيـا سـندبايا لا نسـيت محمـدا ... وإقدامـه بـين القنـا المقتصـد

صـبيحة غبـر الخرمية والضـحي ... طريـد دجـي ليـل مـن النقـع أربـد

شرح الديوان ج ٤ ص ٦٥١ .

وتظل شاعرية أبى تمام تستمد فيضها من هذه الوقائع ، بين الثغرى وبابك ، فكلما أبلى أبو سعيد فى موقعة تجدد عزم أبى تمام ، ومتلأ عزماً وأملاً عل العروبة تشتفى من أعدائها وقاتلى أشجع قوادها .

ومن ممدوحى أبى تمام أيضاً (أبو دلف العجلى الشيبانى) وهو من أشهر قواد المعارك التى دارت رحاها بين المعتصم وبابك (وكان أبو دلف كريما مشهوراً بكرمه، شجاعاً تتمثل فيه صورة العربى بإبائه وأنفته ، فنال منه أبو تمام كثيراً يقول صاحب الأغانى: إنه أعطاه خمسين ألف درهم، وهو يعتذر إليه لما أنشده قصيدته:

على مثلها مـن أربـع وملاعـب ... أذيلت مصونات الدموع السواكب

وكان الأفشين يحسده لحسن سيرته مع عروبته)[1]

ويصور أبو تمام النزعة العربية العتيقة في مديحه لأبى دلف ، إذ يقول في تهنئته بالانتصار هو ومن معه من القواد على بابك .

إن الخليفـة والأفشـين قـد علمـا ... من اشتفى لهما من بابك وشـفى[2]

فى يوم أرشق والهيجاء قد رشـقت ... من المنية رشـقا وابـلاً قصـفا

نضوته دلفيـا مـن كنانتـه ... فأصبحت فوزة العقبى له هدفاً[3]

ومر بابك مر العيش منجذمـا ... محلوليا دمه المعسول لـو رشـفاً

حيران يحسب سجف النقع من دهـش ... طودا يحـاذر أن يـنقض أو جرفـاً

فكل من المعتصم وقائده الأفشين يعلمان من جلب لهما النصر واشتفى لهما من بابك فى يوم (أرشق) إذ كانت السهام تتابع كتتابع الوابل المصحوب

---

١)- أبو تمام الطائي ص ١٣٥ .

٢)- قائد تركي تسمه (خيذر بن كاوس) وكان الأفشين عبدا للمعتصم ، فاصطنعه ، ورفع شأنه ثم قتله بعد ذلك ، وكان الأفشين من أهل أشروسنة فسماه المعتصم الأفشين لأن ملك ذلك البلد جرت عادته بأن يسمي الأفشين كما يسمي ملك الروم قيصر يقول د / البهبيتي (وأغلب الأمر أنه من الفرس وليس من الأتراك ، فإن أفشين كلمة فارسية معناها الكريم ، واسم أبيه كاوس وهي كلمة فارسية معناها الكريم والقاهر والفاتح) ص ١٥٣ .

٣)- نضوته: أي استخرجته والضمير راجع علي الرأي في البيت السابق . شرح الديوان ج ٢ ص ٣٦٧ .

بالرعد القاصف،حينئذ قلت رأيا مثل السهم كان فوز العاقبة هدفاً له ، وأبو تمام يصور هروب بابك لرعبه وفزعه بأن أصبح يخال الغبار الكثيف جبلاً يخشى أن ينقض عليه ، ويتصور شاعرنا دم بابك حلو المذاق ويتمنى لو رشفه هو وأمثاله من العرب ليشتفوا مما انطوت عليه نفوسهم له من حقد دفين ، ويعدد أبو تمام تلك الوقائع التى انتصر فيها العجلى على بابك وأتباعه إلى أن يقول :

وظل بالظفر الأفشين مرتدياً — وبات بابكها بالذل ملتحفاً

أعطى بكلتا يديه حين قيل له — هذا أبو دلف العجلى قد دلفا

تركت أجفانه مغضوضة أبدا — ذلا تمكن من عينيه لا وطفا[1]

وطفا[1]

ويختم قصيدته قائلا :

نامت همومى عنى حين قلت لها — حسبى أبو دلف حسبى به وكفى

● مديح أبى تمام للخليفة (المعتصم)

في تلك الأثناء – من انشغال جيوش الدولة فى القضاء على بابك الخرمى وانشغال أبى تمام بمدح الخليفة وقواده فى حروب بابك – كان (تيوفل بن ميخائيل) طاغية الروم قد انتهز الفرصة ، فأغار على مدينة (زبطرة) وهى من ثغور الجزيرة على الحدود الفاصلة بين الدولتين العربية والرومية وخربها ، وكان ذلك حدث جلل طار نبؤه إلى (المعتصم) فهاله ما حدث لأهلها من أسر الرجال وسمل أعينهم ، وتقطيع أذانهم وأنوفهم وسبى الكثير من النساء ، فضج العرب في الأمصار ، واستصرخوا الدولة في المساجد ، يقول ابن الأثير (فخرج توفيل في مائة ألف ، وقيل أكثر ، منهم الجند نيف وسبعون ألفا ، وبقيتهم أتباعه ، ومعهم من

---

١)- شرح الديوان ج ٢ ص ٣٧٥ . والوطف : كثرة الشعر في الحاجبين وأهداب العينين . والمعني أن هذا هذا المنهزم قد غض أجفانه من الذل لأن الشعر غشيهما.

المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال ، فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب جماعة فبلغ زبطرة ، فقتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء، وأغار على أهل (ملطية) وغيرها من حصون المسلمين ، وسبى المسلمات ومثل بمن صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم ، وقطع أنوفهم وآذانهم ، فخرج إليهم أهل الثغور من الشام والجزيرة ، إلا من لم يكن له دابة ولا سلاح)[(١)].

ويقول المسعودى : (فضج الناس فى الأمصار ، واستغاثوا فى المساجد والديار ، فدخل إبراهيم بن المهدى على المعتصم فأنشده قائماً قصيدة طويلة يصف فيها ما نزل بالناس ، ويحثه على الجهاد فيها :

يا غارة الله قد عاينت فانتهكى — هتك النساء وما فيهن يرتكب

هب الرجال على إجرامها قتلت — ما بال أطفالها بالذبح تنتهب

طار نبأ الكارثة إلى المعتصم (ببغداد) وطار معه أن امرأة من بين الأسيرات كانت لا تنى تصيح: وامعتصماه، واسلاماه يقول ابن الاثير :

(وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهى أسيرة في أيدى الروم: وامعتصماه : فأجابها وهو جالس على سريره لبيك لبيك:ونهض من ساعته ، وصاح في قصره:النفير النفير،وثم ركب دابته ، وسمط خلفه شكالاً ، وسكة حديد ، وحقيبة فيها زاده ، فلم يمكنه المسير إلا بعد التعبئة ، والعساكر ، فجلس فى دار العامة)[(٢)].

---

١)- الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٤٧٩ ط دار بيروت – بيروت.

٢)- الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٤٨٠ والسمط : الدرع يعلقها الفارس علي محجز فرسه ، وقيل السمط هي سيور تعلق من السرج – لسان العرب ج ٣ ص ٢٠٩٣ – والشكال العقال وشكلت الفرس بالشكال ، وشكلها : شد قوائمها بحبل واسم ذلك الحبل الشكال ، والشكال في الرجل ضيط يوضع بين الحقب والتصدير لئلا يلح الحقب علي ثيل البعير فيحقب: أي يحتبس بوله . لسان العرب ج ٤ ص ٢٣١١ ولعل المعني أنه شد الخيل بهذا الحبل حتي يحتبس بولها فلا تبول كثيرا وهذا كناية عن شدة الإسراع والتعجل، وسكة الحديد : الدرع الضيقة الحلق . لسان العرب ج ٣ ص ٢٠١٥.

وبلغ من ثورة نفسه وعزيمته على التضحية أنه استحضر القضاة والشهود فأشهدهم أنه قد وقف أملاكه وأمواله أثلاثا (وأحضر قاضى بغداد وهو عبدالرحمن بن اسحاق ، وشعبة بن سهل ومعهما ثلاثمائة وثمانية وعشرون رجلا من أهل العدالة فأشهدهم على ما وقف من الضياع ، فجعل ثلثا لولده، وثلثا لله تعالى، وثلثا لمواليه)[١].

وثار به الغضب ثورة عنيفة ، فجهز لحرب تيوفيل جيشا جراراً لم يسبق لخليفة أن جهز جيشا مثله ، يقال إنه بلغ مائتى ألف أو يزيدون ، يقول ابن الأثير (وتجهز جهازا لم يتجهزه خليفة قبله قط من السلاح والعدد ، وحياض الأدم ، والروايا والقرب وغير ذلك)[٢].

يقول المسعودى : (خرج المعتصم من فوره نافرا وعليه دراعة بيضاء من الصوف وقد تعمم بعمامة الغزاة ، فعسكر غربى دجلة وذلك يوم الأثنين لليلتين خلتا من جمادى الأولى سنة ٢٢٣ ، ونصبت الأعلام على الجسر ، ونودى في الأمصار بالنفير مع أمير المؤمنين ، فسارت إليه العساكر والمطوعة من سائر بلاد الإسلام)[٣].

يقول الدكتور / نجيب البهبيتى: (في هذا كله ما يرى مبلغ ما كان لغارة تيوفيل البربرية على المسلمين فى ديارهم من أثر في نفوس الناس يومئذ ، وفي وصف التاريخ لنفرة المعتصم ، واضطراب الأقطار الإسلامية لهذا الخطب ما

---

١)- الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٤٨٠ .

٢)- السابق ج ٦ ص ٤٨١ وحياض الأدم هو ما يؤكل بالخبز أي شيء كان . لسان العرب ج ١ ص ٤٥ . والروايا : جمع رواية وهو : البعير أو البغل أو الحمار الذي يستقي عليه الماء . لسان العرب ج ٣ ص ١٧٨٤ .

٣)- مروج الذهب ج ٤ ص ٦٤ .

يجعلنا نحس مدى انفعال النفوس بهذا الحادث ومقدار ما أحفظها على من لم يرع في غارته حرمة النساء ولا براءة الأطفال)[١] .

وسأل المعتصم : أي بلاد الروم فى آسيا أمنع وأحصن ؟ فقيل له عمورية ، فأمر أن يكتب اسمها على البنود والأعلام وكان المنجمون قد تنبؤا له بأن لن يفتحها حينئذ، فأخذ كلامهم مأخذ الهزل وضرب به عرض الحائط، وسار الجيش الكثيف وجد في المسير وقطع البلاد حتى إذا كان فى الموصل ، انقسم قسمين كبيرين ، قسم إتجه الى الشمال فدخل أرض الروم من درب الحدث، وقسم كان المعتصم على رأسه دخل أرضهم من الشام من درب طرسوس شمالى سورية ، وأخذ القسمان المغيظان الموتوران يبيدان من يلقونهم من الروم ، إلا من نجا بنفسه وهرب مع (تيوفيل) في البلاد ، ويلقى المعتصم بكلاكله على أنقرة فتصبح أثرا بعد عين ، ويتحول إلى عمورية ، ويرى أسوارها الشاهقة ، فيأمر ببناء عرادات[٢] كبيرة توضع على منصات تحملها عجلات ، ويأمر بأن يوضع فوق العجلات أبراج توازى السور في ارتفاعه ، وتتسع لعشرة رجال، حتى تجتمع قوتهم على الرمى البعيد بالمجانيق – وقد نمى إليه أن فى سورها مكانا ضعيفا، فسلط منجنيقاته عليه، وما زالوا يرمون بها حتى احترق أكثر عمورية ، وحتى انصدع سورها واشتد الحصار على الروم وكانوا قد ارسلوا إلى ملكهم يطلبون نجدته ، ولكن المعتصم أخذ رسلهم ، فأرادوا خديعة المسلمين وتخذيلهم عنهم ، عسى أن يصل اليهم مدد ، فبعثوا إلى المعتصم يقولون : إنا نرى فى كتبنا أن مدينتنا هذه لا تفتح قبل نضج التين والعنب ، وأنها لا يفتحها إلا أبناء زنا ، فضحك المعتصم وقال :

---

١)- ابو تمام الطائي ص ١٤٠ .
٢)- جمع عرادة: وهي شيء صغير يشبه المنجنيق – لسان العرب ج ٤ ص ٢٨٧٢ .

أما فتحها قبل نضج التين والعنب فذلك ما سأفعله – إن شاء الله – وأما إنها لا يفتحها إلا أبناء الزنا ، فمعى من أبناء الروم الكفاية ، وكان أن فتحها [1].

ودخل الجيش الفاتح يقتل ويأسر ، ويقال إن عدد القتلى فى هذه المعركة بلغ تسعين ألفا ، واستأسر للعرب عشرات الألوف كانوا يباعون خمسة خمسة وعشرة عشرة .

وكان كل ذلك بمرأى من أبى تمام ومسمع ، وأحس بابتهاج لا حد له كما أحس كل عربى هناك ، وذاق للنصر حلاوة لاتماثلها حلاوة ، فقد أخذ المعتصم وجنوده ثأر مدينة (زبطرة) وأطفالها ونسائها ، ورجالها ، من الروم الأوغاد وحطموا أكبر مدنهم في أسيا الصغرى حينئذ تحطيما ، لم تبق فيهم بعده قوة ولا قدرة على المقاومة .

وياله من أخذ للثأر أبرأ قلوب العرب الكليمة ، وهبط على أفئدتهم الجريحة هبوط البلسم الشافى ، إذن فليصدر أبو تمام عن هذه الفرحة الهنيئة ، وليجلجل بصوته القوى فيها جلجلة تدوى في كل الآفاق ، فقد انتصرت العروبة انتصارا عظيما ، وحق على شاعرها أن يمجده ، ويمجد قائده (المعتصم) وجنوده ، وسرعان ما ينظم فى عمورية فريدته وقصيدته الكبرى :

السيف أصدق أنباء من الكتب	فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى	متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الأرماح لامعة	بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
اين الرواية ام اين النجوم وما	صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

[1])- أبو تمام الطائي ص ١٤٠ – ويعني بأبناء الروم الذين معه من الأتراك الذين كانوا في جيشه أو من أسرهم من الروم وهو فى طريقه إلى عمورية – شرح الديوان ج ١ ص ٦٩ .

تخرصـــــا وأحاديثـــــا ملفقـــــة ليست بنبع إذا عدت ولا غرب[1]

وهى ليست قصيدة مديح كما تعودنا فى القصائد العربية ؛ بل هى ملحمة رائعة تصور هذا المجد الحربى الخالد الذى حققه العرب لعهد المعتصم ويعلن الشاعر في فاتحتها ايمانه بالقوة وأنها فوق العقل وفوق الكتب مشيرا بذلك إلى المنجمين وحساباتهم الفلكية وتنبئواتهم التى طاشت وفتح الله للمعتصم هذا الفتح العظيم ، ويطيل أبو تمام فى سخريته بعلم التنجيم وما يذكره المنجمون من أيام السعد والنحس ومن تحكم الأبراج في طوالع الناس . فكل ذلك كذب وافتراء وأن الأمر موكول لحسن التدبير والإعتصام بحبل الله والرغبة في الإنتقام لدينه ولذلك يقول :

تـــدبير معتصــــم بــــالله منــــتقم لله مرتقب فى الله مرتغــب[2]

لقد تحققت أمنيةُ طالما حلم بها العرب ، إذ استسلمت لهم أعظم مدن الروم فى آسيا الصغرى ، عمورية العتيقة منذ عهد الإسكندر المقدونى بعد استعصائها على كسرى ، وملوك العرب العظام ، وإذا هى تسقط مهيضة تحت أقدام المعتصم وجنوده البواسل ، وكأنما أصابها سريعاً جرب الخنوع والانكسار الذى فشا فى أنقرة ، فإذا شجعانها وبطارقتها يتهاوون مخضبين بدمائهم خضاب الإسلام الدموى الذى طالما خضب به رؤوس أعدائه وأجسادهم ، ويتحدث فى ابتهاج ما بعده ابتهاج عن حرق (عمورية) وكل شئ فيها بعد العزة قد ران عليه الذل وغطاه سواد الاحتراق وغمرته حسرتة الاكتئاب ، وألسنة النار تندلع فى ليلها البهيم ، حتى صار كأنه صبح مضيئ وكأن الظلام رغب عن لونه أو كأن الشمس لا تزال طالعة أو كما يقول أبو تمام :

---

١)- شرح الديوان ج ١ ص ٤٢ ، والنبع : شجر صلب ينبت في رؤوس الجبال وتتخذ منه القسي ، والغرب : شجر ينبت علي الأنهار ليست له قوة.

٢)- السابق ج ١ ص ٥٨ .

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها وكأن الشمس لم تغب[١]

وهو يستغل في البيت قصة (يوشع) وما يقال فيها من أن الشمس تأخرت له عن مغربها[٢] فكأن يوم عمورية من أيام يوشع .

ومضى أبو تمام يتغنى ببطولة العرب فى هذا - النصر الباهر مصوراً هزيمة (تيوفيل) وجموعه المندحرة ، حتى قال والفرحة تغمر قلبه وكيانه :

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم موصولة أو زمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بنى الأصفر الممراض كاسمهم صفر الوجوه وجلّت أوجه العرب

وهو دعاء للخليفة يصور التحام العروبة عنده بالدين الحنيف ، ويدعو الله أن يكافئ المعتصم على ما بذله فى سبيل إعلاء كلمة الدين والعروبة ويصور فيه همة الأسلاف البعيدة وكيف كانوا لا يترددون فى التضحية بحياتهم ، والتعرض للخطر مصبحين وممسين يبتغون أجر الأخرة، ويقرن موقعة (عمورية) إلى موقعة (بدر) الكبرى التى كانت فاتحة انتصارات الدين الحنيف يأمل فى أن تكون وقعة (عمورية) وهزيمة الروم فيها هزيمة ساحقة فاتحة انتصارات عربية جديدة لها شأن أى شأن ، ويصور الروم وقد نهكهم العرب وأنشبوا فيهم أظفارهم فنضب الدم من وجوههم فاستحالت شاحبة باهتة ، حتى أصبحوا بحق خليقين باسمهم (بنى الأصفر) بينما استدارت من حول أوجه العرب هالات جلال ومهابة رفيعة .

---

١)- شرح الديوان ج ١ ص ٥٣ .

٢)- ذكر أبو تمام ذلك في مدحة لأبي سعيد الثغري فقال :

فوالله ما أدري أأحلام نائم ألمت بنا أم كان في الركب يوشع ؟ !

يقول المعري (وهو أستاذ التبريزي) (هذا المعني محمول علي ما يحكيه أهل الكتاب أن الشمس ردت ليوشع ابن نون . شرح الديوان ج ٢ ص ٣٢٠ .

المبحث الثانى
مظاهر العروبة فى رثاء أبى تمام

● الرثاء :-

(فن من فنون الشعر وغرض من أغراضه ، يشبه المديح إلى حد كبير ، لكن المديح يكون فى الأحياء ، أما الرثاء ففى الأموات ، أى أنه مديح الأموات وفيه يذكر الشاعر الصفات والمواقف ، والحسنات للمرثى)[١] وهذا الغرض يدور بين الذاتية والقبلية والقومية [٢] .

ولا توجد أمة مهما أوغلت فى البداوة أو صعدت في مراقى الحضارة إلا وهى تبكى موتاها بكاء يصور حزن الإنسان على أخيه الإنسان ، بل لم نحسب مغالين إذا قلنا إنه يصور حزنه على نفسه فالقصة واحدة ، وكل يوم يسقط فصل من فصولها ، ومن يبكى اليوم غيره يصبح بعد قليل من الزمن محمولا إلى نفس المصير.

يقول الدكتور / شوقى ضيف :

(عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلى ، إذ كان النساء والرجال جميعا يندبون الموتى كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبنين لهم مثنين على خصالهم وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت وأن ذلك مصير محتوم)[٣] وقد اصطبغ فن الرثاء فى عصور الأدب بصبغات مختلفة ما بين رثاء للنفس أو رثاء للغير أو رثاء للمدن والممالك الزائلة وذلك الأخير

---

١)- أبو تمام – عصره – حياته – شعره / محمد رضا مروة ص ١٠٩ .

٢)- حين يعبر الشاعر عن حزنه لفقد أحد أهله يكون الرثاء (ذاتيا) وحين يبكي فقيدا من قبيلته يكون قبليا أما حينما يبكي شهيداً في سبيل الأمة فإنه يكون قومياً.

٣)- الرثاء – شوقي ضيف ص ٧ ط دار المعارف.

نهض به أكثر شعراء الأندلس ، عندما اقتطع الفرنجة بلادهم . ونم ذلك عن عاطفة قوية وحزينة نحو بلادهم .

(ولا نرتاب فى أن الرثاء بدأ عند العرب كما بدأ عند كثير من الأمم الأخرى بصورة تشبه أن تكون سحراً حتى يطمئن الميت فى مرقده ، ولا تصيب روحه الأحياء من ورائه بشر ، ثم أخذ يفقد هذه الغاية مع الزمن ، وما زال حتى انتهى إلى الصور الجاهلية من الإفصاح عن إحساس الناس العميق بالحزن ، قبل الموتى ومحاولة ذكراهم بتمجيدهم وبيان فضائلهم التى ماتت بموتهم مع التفكير فى القدر وقصور الناس أمامه وعبثه بهم ولعبه بحياتهم وموتهم)[1] وإن أصابها بعض النمو وبعض التطور لتطور العقل وتطور الحياة ، إلا أنها فى جملتها تعود إلى تلك الصورة الأولى وتشتق منها كما يشتق الفرع من أصله ، بيد أن أضواء الإسلام لما عمت فى النفوس أخذت تصاحب تلك الصورة نزعة جديدة تقوم على التسليم لله والرضا بقضائه ، والصبر على امتحانه احتساباً وطلبا للمثوبة من عنده ، فالرثاء إذن غرض يلبس ثوب العصر الذى يحياه .

● **الرثاء عند أبى تمام :**

وكما كثرت مدائح أبى تمام كثرت كذلك مراثيه فمن المعلوم أن أبا تمام كان كثير السفر لا يكاد يستقر بمكان إلا ويتركه إلى آخر ، ولقد ساعدت هذه التنقلات والعلاقات الواسعة في إكسابه الخبرة والتجربة، وغدا شعره سجلا حافلا بالأحداث التى كانت تدور على ساحة الوطن العربى من مصره إلى عراقه فضلاً عن ثغوره ، فهو مسجل لتاريخ عصره لم يترك حادثة ذات أثر إلا وقال فيها .

---

١)- السابق – ص ٧

(ومراثـى أبـى تمـام لا تقـل عـن مدائحـه روعـة ، وإذا كـان قـد بلـغ ذروة الإحسان فى أناشيد النصر وملاحمة ؛ فإنه بلغ أيضاً هذه الذروة فى مراثيه)[1]

ويقول أحد النقاد المحدثين في هذا الصدد :

(كـان البحترى موفقـاً كل التوفيـق حـين قـال عن أبـى تمـام إنـه (مدّاحـه نوّاحه) فقد أعطى هذين الغرضين حياته .... ثم موته !)[2].

(والرثاء عند أبى تمام رقيق العاطفة ، وأقل تكلفا من مدحه ، وفيه يظهر أبو تمام ، ذلك الإنسان الجبار على الخطوب ، القوى أمام المآسى ، ونوب الدهر القاسى في الشدائد ، رقيق الحس ، وثيق الوداد ، ثم هو لا يفقد رشده عند المصيبة مهما كانت كبيرة ، وتعاظمت ولا يشتبه رأيه فيمضى في التفجع ، ويصف ما يدل على التأوه فى مبالغات لا جدوى تحتها ، إنه يبالغ ولكن في استعارات وكنايات وتشابيه كما يفعل فى مدحه ، ثم يبقى على هدوئه فيستطيع طرق الأغراض على نحو ما ترى فى بعض مدائحه)[3] .

ومن المعروف أن شاعرنا كان على صلة حميمة بالموت ، فقد كان إنساناً مرزأً عرف الموت فى أوقات مبكرة ، فقد مات أبوه وهو صغير وأغلب الظن أن أمه قد غادرت - كذلك - الحياة وهو فى سنه المبكرة كما ماتت زوجته وأولاده فى حياته ما عدا (تماماً) فعاش حياته لا يكف عن الأنين .

حتى لقد أصبح كما يقول / ماجد فخرى عن حد الأنسان :

(الحى الناطق المائت)[4]

---

١)- الشعراء المحدثون في العصر العباسي / العربي حسن درويش ص ١٥٤ ط الهيئة العامة للكتاب.
٢)- أبو تمام وقضية التجديد في الشعر / عبده بدوي ص ٧٤ .
٣)- أبو تمام – محمد رضا مروة . ص ١١٠ .
٤)- دراسات في الفكر العربي / ماجد فخري ص ٤٠ ط بيروت.

وعن الرثاء عند أبى تمام يقول الدكتور / عمر فروخ :

(وفنون أبى تمام البارعة الرثاء ، ثم المديح ، وله حكم كثيرة منثورة فى ثنايا القصائد ولأبى تمام وصف وعتاب وهجاء ، ولكنها لا تدانى شعره فى الرثاء ولا في المديح وكان أبو تمام يجيد المدائح والمراثى فى الأشخاص)[١] .

ويقول الدكتور / محمد نبيه حجاب عن الرثاء عند أبى تمام :

(كان ميدانه العاطفي الأصيل ، فإذا كان العطاء يستهوي الشعراء بالمديح ، فإن الحزن يعتصر المرائر ؛ فتسيل دموعاً ونحيباً وقصيداً)[٢].

وكان أبو تمام من الشعراء المعدودين فى إجادة الرثاء كما يقول ابن رشيق[٣] وليس فى ابتدائات المراثى المولدة مثل قوله :

أصم بك الناعى وإن كان أسمعا	وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا[٤]

يرثى بها محمد بن حميد الطوسي :

ويقول الآمدى : (هو أشعر الناس فى المراثى ، وليس له فيها أجود من قوله :

ألا إن فى ظفر المنيـة مهجـة	تظل لها عين العلى وهى تدمع
هى النفس إن تبك المكـارم فقـدها	فمن بين أحشاء المكارم تنـزع[٥]

قال أبو دلف : ما مثل هذا القول إلا ما رثيت به (محمد بن حميد) قال : وأى ذلك أراد الأمير ؟ قال : قصيدتك التى مطلعها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر	فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

---

١)- تاريخ الأدب العربي – الأعصر العباسية ص ٢٥٣ ط دار العلم للملايين – بيروت.

٢)- معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ص ٢٥٨ ط دار المعارف.

٣)- العمدة ج ٢ ص ١٤٩ ط دار الجبل – بيروت .

٤)- البلقع: الأرض الكفراء الخالية – المختار من كتاب الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ص ١٦٤ ط وزارة الثقافة.

٥)- الموازنة ص ٣٦ والأبيات في رثاء إدريس بن بدر الشامي القرشي شرح الديوان ج ٤ ص ٩٧ .

وددت والله أنا لك فيّ : **فقال** : بل أفدى الأمير بنفسى وأهلى وأكون المقدم قبله ، **فقال** : إنه لم يمت من رثى بهذا الشعر[١].

● **رثاء أبى تمام لأبطال العروبة**

يمضى أبو تمام في رثائه وكأن العروبة هاتف في بؤرة شعوره لا يكاد يبارحه حتى يعود إليه ، ويلمع في مخيلته ، ولا يستطيع الفكاك من أسره فتنبجس نفسه بالرثاء الموجه إلى أولئك الأبطال المغاوير الذين كانوا فرساناً يذودون عن حياض العروبة وحصونها ، ويفدونها بالمهج والأرواح .

ومن أولئك الأبطال الذين خلدهم أبو تمام بمدحه ثم عاد فخلدهم برثائه (خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى) أحد أبطال المعارك المأمونية في حروبه مع الروم، والتى أبلى فيها بلاء حسنا، وله في رثائه قصيدتين الأولى منهما بدأها **بقوله**:

نعـــاء إلـــى كـــل حـــى نعـــاء فتى العرب احتل ربع الفناء[٢]

أصبنا جميعـــا بســـهم النضـــال فهلا أصبنا بسهم الغـــلاء ![٣]

وفيها نرى أبا تمام وقد هجم على غرضه دون تقدمة ، وكأنى به ينعى للعروبة ، بله شيبان فارسها المغوار صاحب الانتصارات والأمجاد الحربية المظفرة ولذلك حق له أن يلقبه (بفتى العرب) وقد هلك هذا الفتى وأصبنا منه بالخطر الجليل الذى كنا نعده لدفع الأعداء وهذه القصيدة إذا ما تقرأها لا تشك قط في أن

١)- الأغاني ج ١٦ ص ٣٩٠ .

٢)- نعاء كلمة في معني الأمر ، وهي مبنية علي الكسر ، ونعاء فلان أي انعوه فقد هلك ، وأصل النعي : رفع الصوت بالشيء , والربع : المنزل.

٣)- سهم النضال: هو الذي يرمي به العدو والرامي ، وقد تستعمل النضال في معني ترامي القوم لينظروا أيهم أجود . وقد تستعمل المناضلة في المفاخرة وسهم الغلاء: من قولهم غاليت الرجل إذا رمي ورميت لننظر أيكما أبعد موقع سهم في الأرض . شرح الديوان ج ٤ ص ٨ .

الشاعر تسيل نفسه لوعة وأسى ، وأن الأسى كان في نفسه في قرارتها ، ويشف عن عاطفة متأصلة تكاد تعرفها في قوله :

ألا أيهـــا المــــوت فجعتنـــــا بماء الحياة ومــاء الحيــاء[1]

فماذا حضــرت بــه حاضـرا وماذا خبأت لأهــل الخبــاء[2]

نعـــاء نعـــاء شـــقيق النـــدى إليــه نعيّــا قليــل الجــداء[3]

وكثير شعره في الرثاء على هذا النمط فقد أجاد في أكثر مراثيه إظهار الحزن والأسى لدرجة توحي أحياناً للقارئ أن من يرثيه بمنزلة ولده الوحيد، أو أن عاطفة الحزن والأسى عند ذلك الرجل دائمة التوهج – لا سيما وأنه كان رجلاً ذا صلة حميمة بالموت ، ويتحين الفرصة لإظهار تلك العاطفة (ويتخذ موت الميت سببا ليعرب عن أحزان نفسه لأنه من أولئك الذين صحب الحزن نفوسهم)[4] اسمع إليه يقول :

سل الملك عن خالــد والملــوك بقمع العــدى وبنفــي العــداء

ألـــم يـــك أقـــتلهم للأســـو د صبراً وأوهــبهم للظبـــاء ؟

فلا ينسى وسط هذا النحيب المتواصل أن ينشر مآثره ويذكر بشجاعته وكيف أنه استطاع إخضاع العدا لكلمة سيفه فيقول :

طوى أمرهم عنــوة فــي يديــه طي السجل وطــي الــرداء[5]

---

١)- قال الصولي: ماء الحياة : يعني من كان الناس يقيمون حياتهم به ، وماء الحياء : يريد أنه يعطي بلا سؤال فيصون وجوه الناس عن الطلب بسبقه بالعطية.

٢)- أهل الخباء : هم البدو.

٣)- قليل الجداء : أي الغناء.

٤)- أبو تمام – محمد رضا مروة ص ١١٩ .

٥)- طي السجل : مأخوذ من قوله تعالى "يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ." سورة الأنبياء – الآية ١٠٤ .

ويظل على ذلك ، تارة يتماسك ويتصبر ، وأخرى يتهاوى ويجزع حتى يأتي على **قوله** :

غليلـــي علـــى خالـــدٍ خالـــدٌ وطيف همومي طويل الثـواء

فيعلن صراحة أنه أمام فداحة تلك الخسارة لا يستطيع إلا أن يكون دائم الحزن والغليل لفقدان ذلك الفارس.وأما القصيدة الثانية في رثاء خالد فبدأها **بقوله**:

أألله إنـــي خالـــدٌ بعـــد خالـــدٍ وناسٍ سراج المجد نجم المحامد

ونراه في تلك القصيدة أيضاً على غرار السابقة يستغيث الدمع ويستنجد الشعر ناصرين له على أساه وحزنه **فيقول** :

ألا غرب دمع ناصر لـــي علـــى الأســـى ألا حر شـــعر فـــى الغليـــل مســـاعدى

فلم تكرم العينـــان إن لـــم تســـامحا ولا طاب فرع الشعر إن لم يساعد

وكل بيت من المرثية يفيض بالدمع والأسى ليس لشئ إلا لأن خالدا كان من القواد الذين غمروا العروبة بانتصارهم على أعدائها حتى غدا اسمه مشهوراً على كل لسان ، ووقف أبو تمام من أولئك القواد موقف المقيم في قبة زجاجية يرى كل ما يحدث من حوله ، حتى إذا قلبت الدنيا لأحدهم ظهر المجن ؛ كان من أسرع من يحوطون أولئك الاشاوس بهالات التمجيد لذكراهم ، المسجلين لمناقبهم ، فصارة مراثي الشعراء فى أولئك الأبطال سجلات حافلة بمن لمعوا في عصورهم ، ثم اختفوا وراء ظلمات الموت فتركوا بموتهم جروحاً لا ترقأ في قلوب الناس – ولا سيما الشعراء فظهرت في نبرات أصواتهم آلام الفجيعة **يقول أبو تمام** :

على أى عرنين غلبنـــا ومـــارنٍ وأية كف فارقتنا وســـاعد(1)

---

1)- العرنين: هو أول الأنف حيث يكون فيه الشمم (ما بين العينين من الأنف) لسان العرب ج ٤ ص ٢٩١٦. والمارن : طرف الأنف اللين – لسان العرب ج ٦ ص ٤١٨٧ .

كأنا فقدنا ألـف ألـف مـدجج | على ألف ألف مقرب لا مباعد
فيا وحشة الدنيا وكانـت أنيسـة | ووحدة من فيها لمصرع واحد

ويقول :

أشيبان لا ذاك الهـلال بطـالع | علينا ولا ذاك الغمـام بعائـد
أشيبان عمت نارها مـن مصـيبة | فما يشتكى وجد إلى غير واجد(١)

وهكذا فإن شاعرنا من أولئك الشعراء الذين جللوا دواوينهم وأشعارهم بسواد الحزن على من سبقوهم إلى دار الخلود .

● رثاء أبى تمام لابن حميد الطوسى :

كان من الحوادث الدامية فى عصر أبى تمام أن قتل فى بعض حروب العباسيين بطل من أشهر أبطالهم ، ففى سنة ٢١٤ للهجرة يفاجأ أبو تمام ويفاجأ معه العالم العربى بفتلك بابك الخرمى بقائد من قواد العرب العظام وهو (محمد بن حميد الطوسى الطائى)

فيروى ابن الأثير في أخبار عام ٢١٤ هـ ما يلى :

(... ووقف محمد بن حميد خلفهم فى جماعة ينظر إليهم ، ويأمرهم بسد خلل إن رآه فكان بابك يشرف عليهم من الجبل ، وقد كمن لهم الرجال تحت كل صخرة فلما تقدم أصحاب محمد وصعدوا فى الجبل مقدار ثلاثة فراسخ ، خرج عليهم الكمناء ، وانحدر بابك إليهم فيمن معه ، وانهزم الناس ، فأمرهم أبو سعيد محمد بن حميد بالصبر فلم يفعلوا ، ومروا على وجوههم، والقتل يأخذهم ، وصبر محمد بن حميد مكانه ، وفر من كان معه غير رجل واحد ، وسارا يطلبان الخلاص فرأى جماعة وقتالا فقصدهم ، فرأى الخرمية يقاتلون طائفة من أصحابه ، فحين

١)- شرح الديوان ج ٤ ص ٧١ .

رآه الخرمية قصدوه لما رأوا من حسن هيئته ، فقاتلهم ، وقاتلوه ، وضربوا فرسه بمزراق[1] ، فسقط إلى الأرض وأكبوا على محمد بن حميد فقتلوه وكان محمد ممدحاً جواداً شجاعاً ، فرثاه الشعراء وأكثروا ومنهم الطائى ، فلما وصل خبر قتله إلى المأمون عظم ذلك عنده)[2] - هذا الحادث آلم أبا تمام وآلم معه الأمة العربية كلها فنصبت له المآتم فى كل مكان ، وأخذت تبكيه بدموع غزار ، وتهول أبا تمام الكارثة ، ويمتلأ قلبه حسرة وحزنا ولوعة ، فيغمس طرف ردائه فى مداد شديد السواد ويضرب به وجهه وكتفيه وصدره كما يقول (يوسف البديعى) صاحب (هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام)(٣) وما ذلك إلا لوجده وجزعه على ذلك البطل العربى ، ثم شرع يرثيه برائيته الخالدة التى تمنى أبو دلف العجلى لو كان هو المقتول وقيلت فيه والتى بدأها بقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر	فليس لعين لم يفض ماءها عذر[4]
توفيت الآمال بعد محمد	وأصبح فى شغل عن السفر السفر[5]

وفيها يقول :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة	تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه	من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده	إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنه	هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

---

١)- المزراق من الرماح : رمح قصير - وقد زرقه بالمزراق إذا طعنه أو رماه به - لسان العرب ج ٣ ص ١٨٢٨ .

٢)- الكامل في التاريخ - ج ٦ ص ٤١٢ وما بعدها حوادث سنة ٢١٤ هـ

٣)- هبة الأيام - ص ١٤١ .

٤)- يجل :يعظم ، يفدح : يثقل ويصعب.

٥)- شرح الديوان ج ٤ ص ٨٠ - السفر: قطع المسافة ، السفر: المسافرون.

فأثبت فى مستنقع الموت رجلــه   وقال لها من أخصمك الحشر[١]

وليس هذا رثاء وإنما هو تمجيد لا يدانيه تمجيد لأبطال العروبة الذين يفدونها قبل شعوبهم بمهجهم وأرواحهم فيكتبون لها بذلك نصراً مؤزراً ، فابن حميد لم يهزم ولم يفر جبناً أمام هجوم بابك ، بل أقدم إقداماً لا يشبهه إقدام حتى تقصفت السيوف والرماح فى يده وهو ثابت فى مستنقع من الدماء حتى الموت ، وابن حميد بذلك مثلٌ للشجاعة التى ليس دونها شجاعة ، والبطولة التى ليس بعدها بطولة ، بطولة تحل محل النصر الذى فاته وحتى تتمنى كل روضة مزهرة لو أنها ضمت في ثراها جثمانه الطاهر **وحقا ما قاله : أبو دلف لأبى تمام :**

(لم يمت من رثى بمثل هذا الشعر) وأى رثاء ! لقد أحال استشهاد ابن حميد في تلك المعركة الخاسرة نصراً باهراً حتى يتأسى به الشباب العربى المعاصر وتنتقل إليه العدوى فيبذل روحه ويضحى بنفسه فى سبيل قومه وكان جزاء وفاقاً لأبى تمام أن بنى بنو حميد أبناء الشهيد وأهله (قبة) بعد وفاته على قبره ، أداء لبعض حقه .

وكان مقتل ابن حميد الطوسى الطائى في حروب بابك لا يبرح خيال المأمون وصمم على أن يأخذ بثأره وأن يكسر حد بابك وجنوده الخرمية وانتدب لذلك (اسحق بن إبراهيم المصعبى) أحد قواده المغاوير فمضى إليه وأخذ ينازله في الإقليم الجبلى (بأذربيجان) وأرمينية حيث كان يحتمى وراء الجبال الوعرة وظل المصعبى في نزاله – وفى تلك الأثناء يتوفى المأمون[٢] ويتولى المعتصم بعده

---

١)- وقف كثيرون عند هذا البيت . فمثلا سأل القاسم بن عيسي في مجلس حاشد اجتمع له , عن أشجع بيت قالته العرب فانشد لعنترة ، وقيس بن الخطيم ، وعمرو بن الأطنابة، وعباس بن مرداس السلمي ورجل من بني مزينة، حتي ذكروا نحواً من مائتي بيت شعر في هذا المعني فقال مشيراً إلي أبي تمام – وكان جالساً عنده – هذا والله أشعر من مضي ومن بقي ثم أنشد بيته (تاريخ الموصل للأزدي – تحقيق د/ علي حبيبة ص ٣٩٢ ، ٣٩٣). وحين تحدث ابن عربي عن رجال المطلع وهم الذين لهم التصرف في الأسماء الإلهية ، عرض للحديث عن الشيخ أبي السعود ثم قال : كان أبو السعود منهم ، وكان كثيراً ما ينشد بيتاً لم يسمع منه غيره ، وهذا البيت هو (فأثبت في مستنقع الموت .... إلخ) (الفتوحات المكية ج ٣ ص ١٩٢ تحقيق د / عثمان يحي).

٢)- من العجيب أني لم أجد لأبي تمام أبياتاً في رثاء المامون من ديوانه !

مقاليد الخلافة – حتى حانت له فرصة من جموع غفيرة لبابك فلم يبق منهم ولم يذر وأمر أن تحز أذن من كل قتيل ، حتى إذا بلغت عدة الأذان ستين الفا أرسل بها إلى المعتصم ليريه مدى تنكيله بهم ومقدار من سفك دماءهم منه أخذا بثأر ابن حميد ومن جاهدوهم معه جهاداً شاقاً ، ودقت البشائر في كل مكان ابتهاجا بهذا النصر وتغنى أبو تمام – كعادته حينما يتحقق نصر العروبة على أعدائها – بمثل قوله :

لقيــــتهم بحـــــلاب المنايـــــا	بعيد الرزّ نائى الحجــرتين[1]
فمــا أبقيــت للســيف اليمــانى	شجا فيهم ولا الرمح الردينــى
وقــائع أشــرقت مــنهن جمــع	إلى خيفى (منى) فــالموقفين
رددت الدين وهو قرير عيـــــن	بها والكفر وهو سخين عين[2]

فجمع والخيف ومنى والموقفان بالمزدلفة وعرفة كل تلك الأماكن المقدسة التـى يهـل بهـا الحجـيج ويلبـون كأنمـا انسـاب مـن هـذه الوقـائع فـى أرمينيـة وأذربيجان نور تألق فوق جبالها وكأنما أهرق فى تلك الوقائع من الدماء ما يهرق فى أيام النحر والتشريق ويذكر هنا معظم وقائع الجاهلية وأيامها المشهورة ليقول إنها ليست شيئاً مذكوراً بجانب هذه الوقائع العربية الجديدة وكأنها نسختها نسخاً ومحتها محواً .

وفي ذلك يقول :

محوت بها وقــائع مــن ملــوك	وكــن وقــد مــلأن الخــافقين
صبيحة خازر أنســت ومهــوى	عبيد الله فيهــا والحصــين[3]

١)- الأبيات في مدح اسحاق بن إبراهيم – شرح الديوان ج ٣ ص ٢٩٨ ، والرز : الصوت والحجرتان – الناحيتان.
٢)- شرح الديوان ج ٣ / ص ٣٠٧ .
٣)- خازر/ مكان بناحية الموصل – شرح الديوان ج ٣ ص ٣٠٠ .

يقول التبريزى شارحه :(إنما يعنى وقعة إبراهيم بن الأشتر، والمختار بن عبيد الله بن زياد، والحصين بن نمير السكونى، فقتل عبيد الله والحصين **يقول** : وقعتك أربت على وقعات من كان قبلك، وأنست حروب الملوك المتقدمة .

ثم أخذ يعددها فقال :

وفيف الريح إذ دلفت معد   بأجمعها وأسرة ذى رعين[1]

وهو إنما يعنى حرباً قديمة كانت بين معد واليمن . ويقول:

وأيام الذنائب زعزعتها   ويوم مهلهل والشعثمين

يقول المرزوقى : هذه الأيام من حرب البسوس، وكانت بين بكر وتغلب بسبب قتل كليب[2] وائل الذى قتله جساس بن مرة الشيبانى بسبب ناقة جار له تسمى (بسوسا) وكانت رعت فى حماه، فرمى كليب ضرعها فأحقد ذلك جساسا فأمهل كليبا إلى أن ركب يوما فى عقب مطر، فتبعه جساس مع عمرو بن الحارث، وطعنه جساس وأذراه عن ظهر فرسه، ونزل عمرو، وكان كليب يطلب ماء فقدر أن عمرا يسقيه، فدنا منه وأجهز عليه، فلذلك قيل .

المستجير بعمرو عند كربته   كالمستجير من الرمضاء بالنار

وأما الشعثمان (فقيل هما رجلان يقال لأحدهما (شعثم) وللأخر (شعثب) وقيل كان الآخر (لعثما) وهما ابنا معاوية بن ذهل قتلهما مهلهل فى طلب دم كليب)[3] .

ومن أيام العرب أيضاً قوله :

وأيام الكلاب غداة هزت   مراريين فيها مترفين

أخ تركت أسنته أخاه   تليلا للجبين ولليدين

---

١)- وفيف الريح / اسم موضع – وذو رعين من حمير.

٢)- إنما سمي بكليب فيما حكي : لكلب كان له جعل نباحه وأثر قوائمه سبباً فيما يجعله حمي من البقاع فكان أي موضع سمع نباح كلبه فيه من حماه ، يتجنب ويتحامي إلا بإذنه.

٣)- شرح الديوان ج ٣ ص ٣٠١ بتصرف.

يقول شارحه نقلا عن المرزوقى(١) :

(هذا يوم هزمت ربيعة فيه تميما ، **والكلاب** : ماء بين الكوفة والبصرة وهذان الأخوان من بنى آكل المرار واسمهما شرحبيل وسلمة ابنا الحارث بن عمرو آكل المرار)(٢).

وظل أبو تمام يعدد تلك الوقائع التى تدلل على علمه الجيد الملم بأيام العرب ووقائعهم وانتصاراتهم ويقارن بينها وبين تلك الوقائع الحديثة ولم تقتصر تلك الوقائع والأيام على ما كان فى الجاهلية **وفقط بل قال** :

ولكن أذكرتنا يوم بدر ... ومشتجر الأسنة فى حنين

فذكر خلال ذلك أيضاً أشهر وقائع الإسلام التى كان للمسلمين فيها الغلبة على عدوهم .

ولأبى تمام فى ابن حميد مراثى كثيرة تصور تصويراً دقيقاً جزع ذلك الرجل على ذلك المرثى ، ويعلو فيها صوته بالنواح حتى يبح ، ولا ضير فى ذلك إذ رأى أبو تمام عضواً من أعضاء العروبة وقد بتر بتراً وسقط سقطة لا إقالة له منها فأضحت العروبة من بعده هو وأضرابه كالأعمى يضع يده ويتحسس فلا يجد له من يمد كف العون – **وأول مرثية له في ابن حميد بدأها بقوله** :

أى القلوب عليك ليس ينصدع ... وأى نوم عليك ليس يمتنع ؟

يقول :

من لم يعاين أبا نصر وقاتله ... فما رأى ضبعاً فى شدقها سبع !(٣)

---

١)- السابق ج ٣ ص ٣٠٢ .

٢)- سمي بآكل المرار : فيما ذكر بعض الناس لأن ملكا من قضاعة أغار علي رحلته وأخذ امرأته وكان يقال لها (هند الهنود) فقالت للملك الذي أخذها : كأني بالحارث وقد اتبعك كأن بعيرا أكل المرار ! والأبل إذا رعت المرار تقلصت مشافرها ، أرادت أنه قد كلح وقلصت شفتاه. قال قوم : إنما سمي بذلك لأنه كان في غزو ففني زاده وزاد أصحابه فماتوا ، وأكل هو المرار فسلم . وقيل غير ذلك.

٣)- شرح الديوان ج ٤ ص ٩١ – أبو النصر : كنية محمد بن حميد .

فيم الشماتة إعلاناً بأسد وغى ... أفناهم الصبر إذ أبقاكم الجزع ؟

لا غرو أن قتلوا صبراً ولا عجب ... فالقتل للصبر فى حكم القنا تبع

وكأنه أراد أن يقول للشامتين من الأعداء : من لم يدركه الموت اليوم ، يدركه غداً ، فيشطر منه أصله أو فرعه ، وتقرح جفونه فى أهل مودته ، وأبو تمام وإن قال ذلك محاولاً التجلد أمام ما حدث من موت ابن حميد إلا أنه قد يخونه هذا التجلد أحياناً فينعى إلى طيئ هول ما ألم بها بل وباليمن كلها **فيقول** :

رزء على طيئ ألقى كلاكله ... لا بل على أدد لا بل على اليمن[1]

ولأبى تمام فى ابن حميد مراثى أخرى وكلها لا تفتر فيها عاطفته حيال فقد ذلك البطل المفقود .

---

١)- شرح الديوان ج ٤ ص ١٤٠ .

المبحث الثالث
مظاهر العروبة فى فخر أبى تمام

● **الفخر:-**

وهو تعداد الصفات وتحسين السيئات ، وهو رفيق الآداب كلها منذ كان للشعوب آداب[1] وهو باب واسع من أبواب الشعر العربي ، عرفته النفس البشرية ، منذ أول يوم لها على وجه البسيطة ، بل لعله وجد قبل ذلك ، إذ ما الذى أخرج أبليس من رحمة الله ، وجرعليه اللعائن إلى أبد الآبدين غير الفخر والكبر والاعتداد بالنفس؟!

والفخر هو الغرض الوحيد الذى ينبت في النفس تلقائياً إذ ليس أعز على الإنسان من نفسه وإن ادعى غير ذلك .

يقول حنا الفاخورى : (الفخر من أدل فنون الأدب على فطرة الإنسان فهو صدى تطلع النفس إلى ذاتها والتعبير عن الأثرة أشد النزعات فيها ، والإنسان – كما لا يخفى – سجين ذاته منذ الولادة ، يديم النظر في مرآتها ، مستجليا محاسنها صابغا قبائحها بما يجعلها في ميزانه دون قبائح الناس أجمعين مقارنا فيما بينها وبين غيرها ، وهذا الأيثار للنفس ، إذا تجسم فى عبارات شعرية كان الفخر وكانت الحماسة)[2].

والفخر من الأغراض التى لازمت الشعر جاهلية ، وإسلاما وهو خلال ذلك يتلون بلون العصر الذى يحيا فيه ، واحتال لذلك حتى تبقى له تلك المكانة بين فنون الشعر وأغراضه . ففي الجاهلية عظم شأن الكرم وصار مفخرة عند العربى وذلك لأن شبح الفاقة يلوح في البادية كل حين لقسوة الأرض ، وقسوة السماء

---

١)- الفخر والحماسة – حنا الفاخوري ص ٥ ط دار المعارف الطبعة الخامسة.
٢)- السابق ص ٥ .

أحياناً ، فراح الشعراء يتغنون بالكرم ، ويفخرون بالبذل والغسراع فيه ، بالإضافة إلى الافتخار بالإباء والشرف ، والعفو مع المقدرة ، والوفاء بالوعد ، ونجدة الملهوف وإغاثة المكروب ، والدفاع عن المرأة .

ومع كل تلك الخلال المحمودة التى افتخر بها العربى الأول ، نجد على النقيض وفي الجانب الأخر بعض الشعراء – ولعل ذلك من الغرابة بمكان – يفخرون بظلمهم وبغيهم ومقابلتهم الجهل بالجهل لا بالحلم والعفو ، وأخذوا يجاهرون بذلك غير مبالين ، ولا متحسبين لملامة ، ويصيحون بأعلى صوت :

ألا لا يجهلن أحد علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا	وماء البحر نملؤه سفينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا	ويشرب غيرنا كدرا وطينا
بغاة ظالمين وما ظلمنا	ولكنا سنبدأ ظالمينا
إذا بلغ الفطام لنا رضيع	تخر له الجبابر ساجدينا(١)

فإذا جاء الإسلام قام بتهذيب الشخصية العربية ، وانتهج لها نهجا قويما وأخذ بيديها إليه وخلع عليها من حلله ، ونصب من الفخر محامياً عن الدين وجعل من الفخر بالدين وبالأسبقية إليه والدفاع عنه وعن أصحابة ، وبذل النفس فضلاً عن المال والأهل والولد فى سبيل إعلاء كلمته بطولة يتغنى بها كل من انتصر للدعوة وجند نفسه لها ولكل ما يتعلق بها .

وظل الفخر في العصر الأموى على معنى قريب من ذلك ، وقد يداخله أحياناً معنى قريب من العصبية ، فنرى الشاعر يسعى أبدا إلى إعلاء قومه ونفسه فيخلع

---

١)- الأبيات من معلقة عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي ، سيد تغلب وقائدها وقطب رحا الحروب التي دارت بين بكر وتغلب ، وهو شاعر غمر البديهة ، رائق الأسلوب نبيل الغرض ، إلا أنه مقل. تاريخ الأدب العربي – أحمد حسن الزيات ص ٦٥ بتصرف .

عليهم صفات المكارم والفضائل ، وقد لا يتورع عن إيذاء غيره بالهجاء وكلما زادت هجنة الشاعر لأعدائه وذمة إياهم ؛ انطلق جناحاه في أجواء الثناء على نفسه وعلى قومه وكان من أشهر شعرائه الفرزدق[١] المتوفى سنة ١١٠ هـ .

فلما انتهى مطاف الفخر إلى بنى العباس ، كانت مظاهره مختلفة ، وثيابه التى اكتسى بها متنوعة ، ودار في فلك جديد غير الذى كان يدور فيه .

يقول حنا الفاخورى : وإذا الفخر يدور حول العقل والرأى والحكمة ، وحول الانفلات والتحرر والشجاعة الحكيمة والحزم في الأمور والأصل العريق فى الحضارة والرقى ، والشاعرية الخلاقة والزخرفة الحافلة بالفن ، والأصباغ المتماوجة فى أجواء الجمال ، وحول الوقار والتعالى في سلم المجد المعنوى ، وما إلى ذلك مما نلمسه بقوة فى الأدب العباسى ، ولئن عثرنا بعض الأحيان على فخر بدوى يشبه الفخر القديم ، فما ذلك إلا نفحات صحراوية في بلاد اليمن والرخاء وما ذلك إلا أصوات ناشزة فى عالم من الأنغام المتناسقة)[٢].

وفى الفخر يكمن المدح الذى يتوج به الشاعر نفسه وآله وقومه ويشيد بذكرهم .

يقول ابن رشيق : (والافتخار هو المدح نفسه ، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه ، وكل ما حسن فى المدح حسن فى الافتخار ، وكل ما قبح فيه قبح فى الافتخار)[٣].

ولعلنا لا نجد غضاضة من ذكر مدحه فى موضع فخره أو العكس .

---

١)- هو أبو فراس همام بن غالب التميمي ، ولد ونشأ بالبصرة ، كان فخورا باصله مدلا باهله ولوعا بتعداد مآثر آبائه حتي أمام الخلفاء ، فاغلب شعره في الفخر "تاريخ الأدب العربي " – أحمد حسن الزيات ص ١٦٤ بتصرف .

٢)- الفخر والحماسة ص ٢٤ .

٣)- العمدة ج ٢ ص ١٤٣ .

● الفخر عند أبى تمام

إن الناظر فى شعر أبى تمام يرى فخره العارم بنسبه وبقومه ، فهو كثير في ثنايا ديوانه ، تشع منه روح الاعتزاز بأصالة النسب إلى القبيلة ، بل إلى العروبة ذلك الاعتزاز الذى يعكس انتماءه إلى إصوله الطائية اليمنية ، ويرد مزاعم شانئيه وحاسديه ممن ادعوا أنه يونانى الأصل ، أو سريانى ، أو رومى رداً لا تبقى معه شبهة فى أنه غير عربى ، **اسمع إليه يقول** : من قصيدة يفخر فيها بنفسه **وبقومه** :

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم ... وسمى فيهم وهو كهل ويافع

سما بى أوس فى السماء وحاتم ... وزيد القنا والأثرمان ورافع[1]

وكان أياس ما أياس وعارق ... وحارثة أوفى الورى والأصامع[2]

نجوم طوالع جبال فوارع ... غيوث هوامع سيول دوافع

مضوا وكأن المكرمات لديهم ... لكثرة ما أوصوا بهن شرائع

فأى يد فى المجد مدت فلم تكن ... لها راحة من جودهم وأصابع ؟

فلا يكاد إنسان يشك في عروبة هذا الرجل خاصة حينما تسمع أذنه هذا الشعور القوى الذى يمتح من معين العروبة الطائيية اليمنية وينضح به أيضاً ، وأنى لرجل دعى أو حليف معرفة بهؤلاء الأعلام الذين مدحهم بعد بقوله :

بهاليل لو عاينت فضل أكفهم ... لأيقنت أن الرزق فى الأرض واسع[3]

إذا خفقت بالبذل أرواح جودهم ... حداها الندى واستنتقتها المطامع

---

١)- أوس: يعني أوس بن حارث بن لام ، وحاتم مشهور ، وهو حاتم بن عبد الله بن مسعود بن الحشرج ، وزيد القنا يعني "زيد الخيل" وقد أدرك الإسلام ووفد علي النبي "ﷺ ثم انصرف فمات قبل أن يصل إلي أهله ، والأثرمان : رجلان من طيء ، ورافع : يعني به رافع بن عميرة وكان أبذل العرب.

٢)- إياس : هو إياس بن قبيصة الطائي وكان كسري ولاه الحيرة بعد النعمان بن المنذر , وعارق : هو قيس بن جروة الطائي ، وحارثة : هو أبو حنبل الطائي واسمه حارثه بن مر . والأصامع من طيء أيضاً ومنهم سدوس بن أصمع. شرح الديوان ج ٤ ص ٥٨٥ .

٣)- البهاليل: جمع بهلول وهو العزيز الجامع لكل خير وقيل الحيي الكريم – لسان العرب ج ١ ص ٣٧٥ .

وهؤلاء الرجالات من طئ من أمثال (أوس بن سعدى ، وحاتم الطائى وزيد الخيل أو (زيد الخير) كما سماه الرسول " صلى الله عليه وسلم " والأثرمين وإياس بن قبيصة وعارق .

يقول الدكتور / حسين محمد نقشة : (هذا الفخر بطئ لا يصدر إلا من طائى كما اعتقد)[1] وكيف لا وهو الذى ارتضع لبان الجود وتربى في بنى طئ ، فأخذ منهم صفاتهم ، وله فى ذلك القدوة والمثل من إياس وحاتم .... إلخ وهؤلاء الرجال بمنزلة النجوم الطوالع والجبال الشاهقة والغيوث الهاطلة – والسيول الجارفة فلكثرة ما احتضنوا المكرمات وتواصوا بها ؛ صارت لهم عادة وخلقا ، وصارت لمن بعدهم شرعة ومنهاجا ، فأصبح كل جواد في الأرض مسبوقا بهم ، وما جوده إلا مشتق من جودهم ، وأخيراً يصرح أن ما تقدم من فخر إنما هو لطئ **فيذكر ذلك صراحة في قوله** :

إذا طـئ لـم تطـو منشـور بأسـها ... فأنف الذى يهدى لها السخط جادع[2]

وقال يفخر بقومه عند انصرافه من مصر بقصيدة بدأها بقوله :

تصدت وحبل البين مستحصد شـزر ... وقد سهل التوديع ما وعر الهجر[3]

فقال :

وهل خاب من جذماه فى ضنء طـئ ... عدى العديين القلمس أوعمرو ! ؟[4]

لنـا غـرر زيديـة أدديـة ... إذا نجمت ذلت لها الأنجم الزهر

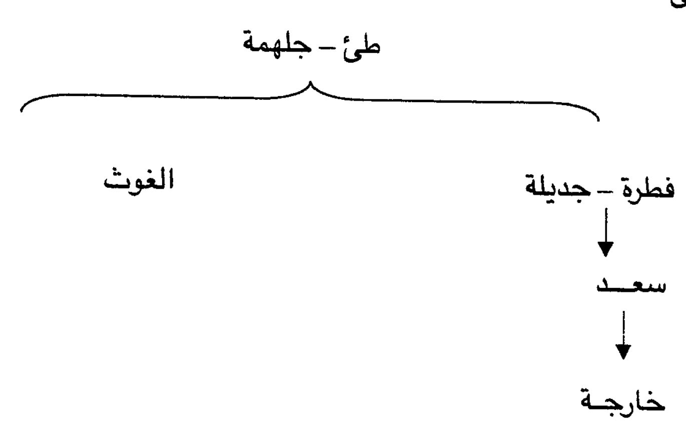
لنا جوهر لو خالط الأرض أصبحت ... وبطنانها منـه وظهرانهـا تبـر

---

١)- حماسة أبي تمام وشروحها – حسين نقشة ص ٦٢ ط الهيئة العامة للكتاب.
٢)- شرح الديوان ج ٤ ص ٥٨٨ .
٣)- تصدت : تعرضت . مستحصد: أي محكم الفتل ، الشزر: الشديد الفتل والمعني : سهل بالالتقاء للوداع ما كان توعر. شرح الديوان ج٤ ص ٥٦٧.
٤)- جذماه: مثني جذم وهو الأصل – وعدي العديين – أي هذا الرجل الذي يقال له "عدي" رئيس لكل من سمي بهذا الاسم ، وهو (عدي بن نصر بن ربيعة) والد الملوك المناذرة ملوك الحيرة، وعمرو هو عمرو بن الغوث الطائي أول ملوك الحيرة من المناذرة ، والقلمس : الكثير العطاء / شرح الديوان ج ٤ ص ٥٧٢ بتصرف.

جديلة والغـوث اللــذين إليهمــا صغت أذن للمجد ليس بها وقر
مقاماتنا وقف على الحلم والحجى فأمردنا كهــل واشــيبنا حبــر

فمن افتخاره بطائيته، واعتزازه بها جعل (جذماه) أى أباه وأمه كليهما من قبيلة طئ ورمز بـ (أدد) إلى القبائل اليمنية جميعا ويعلن أن هذا الأصل وهذا الجوهر لو مزج بالناس كلهم لاستحالوا أشرافا عظماء، ولو كان بنو طئ عنصراً طبيعياً ثم مزج هذا العنصر بمادة الأرض لأصبحت الأرض كلها تبر وأشار بـ (جديلة) إلى (جديلة بنت سبيع) وهى امرأة من حمير، ولم تلد أحداً من بطون الغوث فلذلك أفردها منهم، وإنما ولدها المنسوبون إلى خارجة بن سعد بن فطرة بن طئ [1].



(فلو كانت نسبته إلى طئ باطلة لما ثبت الناس على مثل هذا الشعر ولأنكروا فخره هذا ونسبته هذه)[2].

---

١)- شرح الديوان ج ٤ ص ٥٧٢.
٢)- أعلام الشعراء العباسيين – سلمان هادي الطعمة ص ٦٢ ط بيروت .

وانبرى أبو تمام يأتى بالحجج الدامغة ، والبراهين الساطعة على عروبته وطائيته ، وأزاد على ذلك فجعل الطائى مفضلاً على كل بنى حواء وجعل العرب منزهة تجل عما يلحق غيرها من البشر ، فالكرم صفة من أسمى صفاتهم ، ومثلهم الأعلى (حاتم الطائى) أجود العرب الذى صار كرمه وجوده مثلاً يضرب . يقول :

لينجح بجود من أراد فإنه ... عوان لهذا الناس وهو لنا بكر

جرى حاتم فى حلبة منه لو جرى ... بها باذلاً فانظرلمن بقى الزخر!

فمن شاء فليفخر بما شاء من ندى ... فليس لحى غيرنا ذلك الفخر[1]

فالطائية والعروبة نسب جعل أبا تمام يستعلى ويتيه على من سواه وهذا ما حداه أن يقول مفتخراً على رجل من تميم :

جمعت جمع العرب الأشدا

جمعا يلد الظالم الأشدا

يهد أركان الجبال هدا

كان تميم لأبينا عبدا

أسود نضاح المقد جعدا[2]

ونحن كنا للنبى جندا

يوم بزاخات وردن وردا[3]

وعد لى بدرا وعد أحدا

وطئ قد ألبستنى بردا

---

١)- شرح الديوان ج ٤ ص ٥٧٥ .

٢)- المقد : القاع والنضح: ما بقي .عليه من أثر الطين او الدم ، وجعد : اي قصير.

٣)- يوم بزاخة يوم كانت للمسلمين به وقعة في خلافة أبي بكر الصديق.

حتى فخرت فهزمت العبدا(١)

وظني أنه بعد سماع هذا الفخر من أبي تمام لا يرتاب ، ولا يشك شاك في عروبته الخالصة التي لا تشوبها شبهة ، فقد قال هذا الشعر في عهد بني العباس ، وفي وقت كان الشعراء لا يتحرجون من إظهار الشعوبية(٢) مثلا أو الزندقة ، فلو قال ذلك في عهد بني أمية مثلاً : لقلنا كان قوله تقية من أن يوقع به أحد الخلفاء عقابا ، أو يمنعه من قربى إلى خليفة أو يحتوشه من حظوة لدى وزير ، أو على الأقل يحول بينه وبين مهنة يمتهنها .

على هذه الوتيرة وهذا النحو سار فخر أبي تمام فتارة يفخر بطيئ وأخرى باليمن وثالثة بهما من مثل قوله :

هل اجتمعت عليا معد ومذحج	بملتحم إلا ومنا أميرها ! ؟(•)
بل اليمن استعلت لدى كل موطن	وصار لطيئ تاجها وسريرها
محرمة أكفال خيلي في الوغى	ومكلومة لباتها ونحورها
حرام على أرماحنا طعن مدبر	وتندق بأسا في الصدور صدورها(٣)

ووسط هذا كله من المديح والفخر لطيئ وبها وللعروبة والإسلام وبه ، لم نجد له سقطة لسان واحدة تقول بغير عروبته وإسلامه ومن المعروف أن صدق اللسان دليل صدق القلب وأيضاً فلم تمدح طيئ ولم يفتخر بها ولا باليمن كلها بمثل شعر أبي تمام فيهما ولا استشعر أحد من أبنائهما مفاخر قومه على نحو ما استشعرها أبو تمام ، فلو أن مؤرخيه لم ينصوا على يمنيته وطائيته ، لكان في هذه الأشعار ،

---

١)- شرح الديوان ج ٤ ص ٥٦٦ .
٢)- الشعوبية: نزعة ظهرت في العصر العباسي تقضي بتفضيل غير العرب علي العرب.
•)- معد ومذحج أسماء قبائل يمينة .
٣)- شرح الديوان ج ٤ ص ٥٧٩ .

وما يماثلها مما يصدر فيها أبو تمام صدورا طبيعياً عن دخائل وأعماق نفسه وقلبه الدليل الحى على أرومته العربية الأصيلة . وعلى أية حال فقد كان الشعراء قبل أبى تمام ألسنة قبائلهم يسجلون مفاخرها ويذيعون على الدنيا مآثرها أما هو فبدأ مثلهم بهذه الصورة الضعيفة وهى مدح القبيلة ثم أخذت العروبة تتسع فى نفسه وتتعمق حتى شملت جميع القبائل اليمنية والعدنانية ويصور ذلك فى بعض أشعاره فيقول :

بزهر والحذاق وآل برد	ورت فى كل صالحة زنادى[(١)]
وإن يك من بنى أدد جناحى	فإن أثيث ريشى من إياد
غدوت بهم أمد ذوى ظلا	وأكثر من ورائى ماء واد

وواضح بأنه يجاهر بأن اليمن التي رمز إليها بـ (أدد) إن كانت هي التي أنبتت جناحه فإن عدنان التي رمز لها (بإياد) هي التي أنبتت الريش فى جناحه ووهبته القوة على النهوض والطيران وبهما غدا أفضل معاصريه ولاحقيه ، وتحس وأنت تسمع هذا الفخر من أبى تمام وكأنه أراد أن يملأ به الدنيا جلجلة وضجيجا على شاكلة قوله :

سافر بطرفك فى أقصى مكارمنا	إن لم يكن لك فى تأسيسها سفر
هل أورق المجد إلا فى بنى أدد	أو اجتنى منه لولا طيئ ثمر
لولا أحاديث بقتها مآثرنا	من الندى والردى لم يعجب السمر[(١)]

١)- الأبيات من قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز الطائي ، وقد ذكرت الأبيات في باب المديح ، إلا أنني آثرت ذكرها في باب الفخر ثانية لما فيها من نغمة الفخر القوية.

المبحث الرابع

مظاهر أخرى للعروبة فى شعر أبى تمام

ظاهرة عامة لشعر العروبة عند أبى تمام

استعماله لغة طيئ:-

لقد أكثر أبو تمام من استخدامه لغة[1] طيئ في شعره بشكل عفوى وذلك ملحظ جدير بالاهتمام من شأنه أن يوثق عرى طائيته وعروبته التى تملى عليه لهجتها دون اعتمال وتكلف ومن أمثلة ذلك قوله :

أغرت همـومى فاسـتلبن فضـولها ... نومى ونمن على فضول وسـادى[2]

فقال (فاستلبن) وفى وراية أخرى للبيت (فاصطحبن) وفى كلتا الروايتين ياتى بنون الجمع فى الفعل وهى اللغة التي يعبر عنها النحاة بلغة (بنى الحارث بن كعب) اولغة (أكلونى البراغيث)[3] ويعبر عنها (ابن مالك)[4] فى كتبه بلغة (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار......... الحديث).

يقول المرزوقى : (وقوله : فضولها ، ارتفعت (باصطحبن) والنون منه لم تجئ للضمير وإنما هى علامة تؤذن بالجمع كالتاء في (قامت هند)[5] وهو كثير الاستعمال لهذه النون من مثل قوله :

شجا فى الحشا ترداده ليس يفتر ... به صمن آمالى وإنى لمفطـر

---

١)- اعني باللغة هنا اللهجة السائدة في القبيلة.
٢) البيت من قصيدة يمدح أبا المغيث موسي بن ابراهيم الرافقي / شرح الديوان ج ٢ ص ١٢٨ .
٣)- وهذه اللغة تجيز إلحاق علامة التثنية أو الجمع إذا أسند الفعل لاسم ظاهر مثني أو جمع مثل – قاما الزيدان – أقبلوا الزيدون – قمن الهندات . وهي لغة طيئ وازد شنوءه.
٤)- هو الإمام الحجة الثبت / أبو عبد الله محمد جمال الدين بن مالك صاحب الالفية المعروفة.
٥)- شرح الديوان ج ٢ ص ١٢٨ .

ينقل التبريزى عن أبى العلاء في الكلام عن هذا البيت قوله :

(يبين فى كلام الطائى أنه كان يختار إظهار علامة الجمع فى الفعل ، مثل قوله (صمن آمالى) ولو قال (صام آمالى) لاستقام الوزن[1] وقد جاء بمثل ذلك في غير هذا الموضع[2] ومثل ما تقدم قوله :

وأكـــيس بمجـــد عـــاد فيـــه نوالـــه   وشاعر قوم عدن فيـــه قصـــائده[3]

قال (عدن قصائده ، وأتى بالنون في الفعل).

يقول الدكتور / نجيب البهبيتى في معرض استعمال أبى تمام للغة طيئ (وفى مقابل هذا يحذف علامة التانيث التى تلحق الماضى ، حين يكون فاعله جمعا لغير العاقل ، واستشهد بقول الشاعر :

كم أنجبوا قمـــرا جـــلا أفعالـــه   قمرا ، ومكرمة تناغى الفرقـــدا

قال - ولو قال : (جلت أفعاله لاستقام الوزن)[4] ولكن صحة البيت في الديوان هكذا :

كم أنجمو قمـــرا حمـــى بفعالـــه   قمرا ومكرمة تناغى الفرقدا[5]

وعلى ذلك لا يكون في البيت حذف ، ولا يقوم شاهدا على استعمال الشاعر للغة طيئ .

- ومن استعمال الشاعر للغة طيئ أيضا : استعماله (ذو) اسماً موصولاً ، وهى ما يسميها النحاة بـ (ذو) الطائية يقول :

أنا ذو عرفت فإن عرتك جهالـــة   فأنا المقـــيم قيامـــة العـــذال[6]

---

١)- معني استقامة الوزن هنا : ليس الوزن العروضي وإنما المعني أنه لم تلجئه الضرورة الشعرية لذلك.
٢)- شرح الديوان ج ٢ ص ٢١٤ . والبيت من قصيدة له في جعفر الخياط.
٣)- السابق ج ٤ ص ٦٣٤ . والبيت من قصيدة يمدح بها آل عبد العزيز الطائي بقزوين.
٤)- أبو تمام الطائي ص ٧٥ .
٥)- شرح الديوان ج ٢ ص ١٠٣ . والبيت من قصيدة في مدح أحمد بن عبد الكريم الطائي.
٦)- السابق ج ٣ ص ٧٦ . والبيت من قصيدة في مدح الحسن بن الرجاء.

• ومن أمثال العرب التى جاءت على هذه اللغة قولهم (أتى عليه ذو أتى على الناس) أى الذى أتى عليهم :

قال أبو منصور : وهى لغة طيئ وذو بمعنى الذى [1].

• ويقول قوم من طيئ (دفن البناه من المكرماه) موضع قول غيرهم (دفن البناتُ من المكرمات) فيقول أبو تمام :

إحدى بنى بكر بن عبد مناه   بين الكثيب الفرد فالأمواه

ألقى النصيف فأنت خاذلة المها   أمنية الخالى ولهو اللاهى[2]

• فقول أبى تمام (عبد مناه) على أنه أجراه في الوصل مجراه في الوقف فجعله هاء ثم حركه كما حرك في قوله :

يا مر حباه بحمار عفرا

وكأن أبا تمام أراد أن يهتدى لمثل هذه الاشياء التى تقل وتعز، وفى شعره من لغة طيئ أيضا قوله :

وبقيت لولا أننى فى طيئ   علم لقال الناس أنت جرير

ياعبرة الله التى من طرزها   نشأوا فكانا القرد والخنزير

يقول التبريزى شارحه في تعليقه على البيت الأخير : (قوله نشأوا قدم الضمير فى الفعل المتقدم كما قال الآخر) .

ألفيتا عيناك عند القفا   أولى فأولى لك ذا واقيه

---

١)- شرح ابن عقيل ج ١ ص ٤٨ دار التراث – ويعني بأبي منصور أي الثعالبي.
٢)- شرح الديوان ج ٣ ص ٣٤٣ . والأبيات من قصيدة مدح في يحي بن عبد الله.

وهذا أوجه من أن يثنى (نشأ) أو يوحد (كان)[١] لأن ذلك يؤدى إلى تعسف فى اللفظ ، وبعض النحويين لا يجيزه ، وعلامة التثنية فى هذا البيت قد لحقت (كان) و (نشأ) جميعا)[٢].

ولست أدرى لماذا قال التبريزى (علامة التثنية) مع أن الذى لحق (نشأ) هى علامة الجمع لا التثنية وأظن أن الشيخ وقع فى ذلك سهوا.

وقد أورد الدكتور / نجيب البهبيتى[٣] البيت الأخير في كتابه هكذا :

يا خلقة الله التى من طرزها ... نشأا فكان القرد والخنزير

وعلق عليه بقوله : (وما أشبه (فكان) بأن تكون زائدة فى البيت فتصبح العبارة : (نشأا القرد والخنزير) من لغة طيئ السالفة الذكر)[٤].

ويبدو أن استعمال المثنى عند أبى تمام واضح جدا وبكثرة ونجد ذلك في قوله :

لولا قبولى نصح العزم مرتحلا ... لراكضانى إليه الرحل والجمل[٥]

وهذا البيت صريح فى أنه من لغة طيئ ، ومع أن أبا تمام استعمل لغة قومه فى كثير من أبيات شعره إلا أننا نجده فى بعض الأبيات يخالف تلك اللغة ولا يتحراها ومن ذلك قوله :

هل أورق المجد إلا فى بنى أدد ... أو اجتنى منه لولا طيئ ثمر

---

١)- في نسخة المدينة من شرح الصولي (كان) موحدة و (نشأ) مثناة ، والأبيات من قصيدة له في هجاء عياش بن لهيعة بعد موته - . الديوان ج ٤ ص ٣٦٠ .

٢)- شرح الديوان ج ٤ ص ٣٦٠ .

٣)- أبو تمام ص ٧٧ .

٤)- يعني بها لغة أكلوني البراغيث ، ونري أن البيت أورده الدكتور البهبيتي كما في نسخة المدينة (نشأ) مثناة وكان موحدة وعلي تلك الرواية يكون كلام التبريزي / صحيح بالنسبة ل (نشأ) أما علي ما أورده التبريزي في شرحه في غير نسخة المدينة يكون كلامه غير صحيح لأن نشأ لحقتها علامة الجمع.

٥)- شرح الديوان ج ٣ ص ١٠ . والبيت من قصيدة في مدح المعتصم.

ينقل التبريزى عن أبى العلاء المعرى في الكلام عن هذا البيت قوله :

إذا كان أخر الفعل الماضى ياء وقبلها كسرة فطيئ تقلبها ألفا فيقولون (اجتنى) في (اجتنى) و (اقتدى) في (اقتدى) ومن العرب من يسكن الياء هاهنا ولم يستعمل اللغة الطائية)[1] .

ولعل أبا تمام أراد بذلك أن يثبت معرفته بلهجات القبائل ، أما لغة قومه فيستعملها متى شاء ويتركها متى أراد .

ظاهرة عامة لشعر العروبة عند ابى تمام

● القص والتاريخ

كان أبو تمام مؤرخ عصره ومصوره يستخدم الحوادث أدوات تعينه في الوصول بدقة إلى ما يهدف ، خاصة إذا كان لها علاقة مباشرة بممدوحه أو بآله أو بقبيلته وقومه ، ولم يقتصر بذلك على قصيدة واحدة ، ولكنه يدخل باب التاريخ الواسع ويحول أحداثه شعراً حتى تبدو الحوادث عنده وهجا يمده بحياة جديدة ، ودفق شعرى يفوح منه عطر الماضى وعبق الحاضر يقول الدكتور / نجيب البهبيتى (وأغرب ما في هذا الرجل هو استغلال الواقع في شعره استغلالاً يبعث في النفس الدهشة ويساعد المحقق التاريخى أثمن مساعدة)[2].

وكيف لا ؟ وهو الذى تخذ من الأحداث العارمة غذاء لشاعريته ومداداً يستمد منه موضوعات شعره ، وظلت هذه الأحداث يتردد أثرها في شعره فهو إذا مدح الخليفة المأمون ذكر ما كان من شأنه مع عظيم الروم (تيوفيل) وجنوده وكيف أنه ردهم مهزومين منكسى الرؤوس ممزقى الثياب تلعنهم وجوه الأرض **يقول** :

لما رأيتهم تساق ملوكهم   حزقاً إليك كأنهم أنعام

---

١)- شرح الديوان ج ٢ ص ١٩٠ .
٢)- أبو تمام الطائي . ص ١٤٢ .

جرحى إلى جرحى كأن جلودهم	يطلى بها الشيان والعلام(١)
متساقطى ورق الثياب كأنهم	دانوا فأحدث فيهم الإحرام
أكرمت سيفك غربه وذبابه	عنهم وحق لسيفك الإكرام
فرددت حد الموت وهو مركب	فى حده فارتد وهو زؤام(٢)
أيقظت هاجعهم وهل يغنيهم	سهر النواظر والعقول نيام ؟
جحدتك منهم ألسن لجلاجة	أقررن أنك فى القلوب إمام
اسلم أمير المؤمنين لأمة	نتجت رجاءك والرجاء عقام(٣)

وهذه الوقائع وغيرها قد أعطت شعر أبى تمام لوناً جديداً ، ذلك أن شعره قبلها كان لا يكثر فيه وصف الحرب أما بعد هذه الوقائع فقد كثر كثرة جعلته من مميزات شعره .

وفى مدحه خالد بن يزيد الشيبانى يحاول أبو تمام أن يجلو نسبه في أجمل إهاب ويكسوه من المجد أغلى ثياب إذ يذكره بأيام أبائه وأجداده الذين انتصروا على الفرس في موقعه (ذى قار) فيقول :

لهم يوم (ذى قار) مضى وهو مفرد	وحيد من الأشباه ليس له صحب(٤)
به علمت صهب الأعاجم أنه	به أعربت عن ذات أنفسها العرب
هو المشهد الفصل الذى ما نجا به	لكسرى بن كسرى لا سنان ولا صلب(٥)

وفي قصيدة أخرى فى مدح خالد أيضاً يصف ممدوحه بأجداده وبأبيه الكريم وأنه ورث مجد آبائه وأجداده الذين حفظوا الدين ، وحفظه بعدهم وبذل من أجله

---

١)- الشيان : دم الأخوين – والعلام : الحناء . والمعني تطلي جلودهم بالدم أو الحناء ولكنه قلب المعني.
٢)- زؤام: موت سريع ولا يوصف بهذه الصفة إلا الموت.
٣)- شرح الديوان ج ٣ ص ١٥٧ .
٤)- ذو قار : معركة خاضتها تميم وانتصرت فيها علي الفرس.
٥)- شرح الديوان ج ١ ص ١٨٨ .

نفسه وكذلك أعطى المال للمحتاجين وبهذا يكون الممدوح قد جمع السماح والسماحة والقوة والندى والفداء لأنه حارب أعداء الإسلام والمشركين **فيقول** :

مطر أبوك أبو أهلة وائل ملأ البسيطة عدة وعديداً

أكفاءه تلد الرجال وإنما ولد الحتوف أساودا وأسودا[1]

ومنها :

ورثوا الأبوة والحظوظ فأصبحوا جمعوا جدودا فى العلى وجدودا[2]

وفى حروب المسلمين مع (بابك) وأتباعه الخرمية أو (تيوفيل) عظيم الروم نجد أبا تمام وقد ذكر ما رآه بعينيه وما سمعه بأذنيه فجعل من فنه الشعرى سجلا للواقع التاريخى من غير خروج عليه أو تزييف فيه فلا تكاد تبحث عن حادثة من الحوادث التى وقعت فى أيامه نقلا عن التاريخ إلا وجدتها فى قصائده :

قال يمدح المعتصم ويذكر فتح الخرمية :

آلت أمور الشرك شر مآل وأقر بعد تخمط وصيال

غضب الخليفة للخلافة غضبة رخصت لها المهجات وهى غوالى

لما انتضى جهل السيوف لبابك أغمدن عنه جهالة الجهال

فلأذربيجان اختيال بعد ما كانت معرس عبرة ونكال[3]

يقول الدكتور : الهبيتى (والقصيدة مثل من أسمى ما بلغ إليه فن القصص الشعرى فى العربية ، فهو يذكر فيها قصة ثورة بابك من يوم اتصل بها وهزائمه ، وصراعه فى أرشق ، وموقان وما كان بالبذ ومحاولته الهرب وكيف أوقعه أجله الدانى وهو لا ينسى صغيرة ولا كبيرة ولا يكذب ولا يغلو وأن الإنسان ليجده يسير

---

١)- الأساود: جمع أسود وهو العظيم من الحيات . والحتوف : جمع حتف وهو الموت.

٢)- الجدود الأولى جمع جد وهو أب الأب ، والجدود الثانية جمع جد وهو الحظ . شرح الديوان ج ١ ص ٤١٥ .

٣)- شرح الديوان ج ٣ ص ١٣٢ .

فى حدود ما ذكره التاريخ ولكنه يغمر الأحداث بفيض حسه ، وبفهمه لخفايا النفس ويعمل خياله فى الإبراز للوقائع ولكنه لا يغير حقيقتها) [1].

ولعل أروع نموذج في شعر أبى تمام يمثل هذا النوع من القص أو التاريخ هو قصيدة (عمورية) فقد تجلت فيها مقدرته الشعرية فى الرسم بالكلمات تعبيراً عن كل ما ترمقه العين أو تسمعه الأذن وهى قدرة فائقة فى الوصف قلّ أن نجد نظيرها حتى ليخيل للمتلقى أن هذه الحروب – بغبارها ودخانها وقعقعة أسلحتها ولون الدماء على الأرض – تحدث أمامه ويراها رأى المشاهد المعاين يقول :

يا يوم وقعة عمورية انصرفت	منك المنى حفلا معسولة الحلب[2]
أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد	والمشركين ودار الشرك فى صبب[3]
أم لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا	فداءها كل أم برة وأب

في هذا اليوم أدرك بنو الإسلام غاية العلا وصار خصومهم فى الدرك الأسفل من البشر ، وهذه القلعة الحصينة هى من القلاع العزيزة على قلوب الروم يفدونها – لو استطاعوا – بالأباء والأمهات لقد وقفت فى وجه الأكاسرة وعجز الأسكندر عن تذليلها وارتدت صروف الدهر عنها خائبة مندحرة ، فلما انتوى الخليفة فتحها خلعت عليه حجابها وكأنما امتنعت على من قبله حتى لا تفتح إلا له فكأنما جمع الله الأمجاد والعظائم ومخضها ليكون هذا الفتح هو فتح الفتوح يقول أبو تمام :

وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها	كسرى وصدت صدودا عن أبى كرب[4]
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد	شابت نواصى الليالى وهى لم تشب

---

1)- أبو تمام الطائي ص ١٣٨ .

2)- الحفل: جمع حافل : وهي الناقة التي حفل ضرعها باللبن . الحلب : ما يحلب منه . معسولة : يخالطها العسل.

3)- الجد: الحظ . الصبب: الانحدار

4)- البرزة: الحسنة الوجه الجميلة . كسري ملك فارس. أبو كرب : ملك يمني.

بكر فما افترعتها كـف حادثـة ولا ترقت إليها همـة النـوب
حتى إذا مخـض الله السـنين لهـا مخض البخيلة كانت زبدة الحقـب

والخليفة إنسان متدين مؤمن بالإسلام دين الله وهو منتقم له ما ينى أن يسمع صوت امرأة تصيح (وامعتصماه) حتى يجيش الجيوش لنصرتها يقول أبو تمام :

لبيـت صـوتا زبطريـا هرقـت لـه كأس الكرى ورضاب الخرد العـرب[1]
عداك حر الثغور المستضامة عـن برد الثغور وعن سلسالها الحصب
أجبته معلنـا بالسـيف منصـلتا ولو أجبت بغير السيف لم تجب
حتى تركت عمود الشرك منعفـرا ولم تعرج على الأوتاد والطنب[2]

ويقول مشيراً إلى عدد من كان بعمورية من الرجال وما كان من قولهم (إن مدينتهم لا تفتح قبل نضج التين والعنب فجعل تسعين ألفا من محاربى الأعداء تنضج جلودهم قبل نضج التين والعنب .

تسعون ألفا كآساد الشرى نضـجت أعمارهم قبل نضج التين والعنـب

ويقول :

والحرب قاسمة فى مـأزق لجـج تجثوا القيام به صغرا على الركب
كم نيل تحت سناها من سـنا قمـر وتحت عارضها من عارض شنب
كم كان فى قطع أسباب الرقاب بها إلى المخدرة العذراء من سبب[3]

وهذه المقارنة بين القصيدة والتاريخ نُرى مبلغ ما كان أبو تمام يعتمد على الواقع في نظم شعره وأن فنه كان في صياغة هذا الواقع صياغة شعرية فهو في فنه أشبه بالقاص الذى يصف ما رأى وما سمع)[4] .

---

١)- الخرد : الحييات والعرب جمع عروب وهي المتحببة إلي زوجها.
٢)- المنعفر : الملتصق بالتراب وهو العفر.
٣)- شرح الديوان ج ١ ص ٧١ .
٤)- أبو تمام الطائي ص ١٤٣ . البهبيتي.

الفصل الثالث

الدراسة الفنية لشعر العروبة عند أبى تمام

- ويشتمل على ثلاثة مباحث .
- **المبحث الأول** : الصورة الأدبية.
- الأساليب – الألفاظ والمعانى – بناء القصيدة .
- **المبحث الثانى** : العاطفة والخيال .
- **المبحث الثالث** : الموسيقى .

المبحث الأول

الصورة الأدبية (الألفاظ والأساليب)

● الصورة الأدبية:-

في تقدمة سريعة نبين المقصود بالصورة الأدبية وإن كان تحديد مفهومها في سطور أو فقرات من الصعوبة بمكان ، لأن ذلك قد يقلل من شأن المقصود بقولنا (الصورة الأدبية) ويحد من رحابة مفهومها ، إذ أن مصطلح (الصورة الأدبية) لا يخضع لإيجاز المناطقة ولا لتركيز العلماء والرياضيين وحسبنا أن نعلم أن مصطلح (الصورة الأدبية)تردد فى أقوال وكتب المتقدمين فضلا عن المتأخرين.

ولسنا الآن بصدد التأريخ لهذا المصطلح ولا بصدد تتبع معناه خلال العصور المتعاقبة ؛ وإنما بصدد الكشف عن معناه القريب وبيان مظهر الجمال فيه وتوضيح مغزاه وأثره .

(فكلمة الصورة تستعمل – عادة – للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسى ، وتطلق أحياناً مرادفة للاستعمال الاستعارى للكلمات)[1].

يقول الزيات : (والمراد بالصورة : إبراز المعنى العقلى أو الحسى في صورة محسة ، والصورة عنده خلق المعانى والأفكار المجردة أو الواقع الخارجى من خلال النفس خلقا جديداً لتبرز إلى الوجود مستقلة عن حيز لتجريد المطلق ، وتتخذ لها هيئة وشكلا يأتى على نمط خاص وتركيب معين بحيث تجرى فيها – على هذا النسق – الحياة والروح والقوة والحرارة والضوء والظلال والبروز والأثر وبذلك يتلقى السمع من الصورة أصوات الفكرة وترى العين ألوانها وترقب حركاتها وتحس

---

١)- الصورة الأدبية د/ مصطفي ناصف ص ٣ دار مصر للطباعة.

النفس نسيمها وانطلاقها وتستروح الآناف رائحتها وتستعذب الأذواق طعومها)[1].

ويرى **أحمد الشايب** : أن الصورة لها معنيان حسب نوعية الجنس الأدبي :

أحدهما : هي منهج الكتاب – أو خطته العامة من حيث المقدمة والفصول والخاتمة وتناسقها معا وبراءتها من الشذوذ والاضطراب وذلك يكون في الشعر التمثيلي وما يشبهه من النثر الفني كالقصة والأقصوصة والرواية والمسرحية النثرية وهي بهذا المعنى لا دخل لها فيما نحن بصدده .[2]

ثانيهما : اللغة والخيال ، وتقابل المادة وهي الفكرة والعاطفة [3].

فالصورة هي المادة التي تتركب من اللغة بدلالاتها اللغوية والموسيقية من الخيال الذي يجمع بين عناصر التشبيه والاستعارة والكناية والطباق وحسن التعليل[4] ثم يزيد الشايب **قائلا** : (فمن البديهي أن مقياس الصورة الأدبية هو قدرتها على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة ، والصورة هي العبارة الخارجية وهذا هو مقياسها الأصيل ، وكل ما نصفها به من جمال إنما مرجعه إلى التناسب بينهما وبين ما تصور من عقل الكاتب ومزاجه تصويراً دقيقاً خالياً من الجفوة والتعقيد فيه روح الأديب وقلبه كأنا نحادثه ، ونسمعه كأنا نعامله)[5].

وأما المازني : فيرى أن الصورة الأدبية غير فن التصوير والرسم ، فهي غنية بالحركة والحيوية وتعاقب الزمن وقتاً بعد وقت حتى يأتي الشاعر على الحركة المقصودة من الصورة بينما فن الرسم جامد ليس له إلا لحظة واحدة من الزمن

---

١)- دفاع عن البلاغة : ص ٦٣ الطبعة الثانية ، الناشر عالم الكتب القاهرة.
٢)- أصول النقد الأدبي / أحمد الشايب ص ٢٥١ .
٣)- السابق ص ٢٤٢ .
٤)- السابق ص ٢٤٨ وما بعدها.
٥)- السابق ص ٢٥٠ .

وهى تلك اللقطة التى يختارها الرسام من الزمن ليودعها فنه وريشته ، كما أن الصورة الأدبية تنفرد أيضاً بخاصية لا توجد فى فن التصوير وهى أن الشاعر ينقل للقارئ المنظر المراد تصويره من خلال مشاعره وخواطره ويلونها من داخل نفسه فتؤدى عند القارئ إلى اثارة مثل هذه الأحاسيس والمعانى والآمال والخوالج **يقول** :

(إنما يسع الشاعر أن يفضى إليك بوقع هذا المنظر وبما يثيره فى النفس من الإحساسات والمعانى والذكر والأمال والالآم والمخاوف والخوالج على العموم بأوسع معانى هذا اللفظ وعلى العكس من ذلك يسع الشاعر أن يصف لك الحركات المتعاقبة فى الزمن وأن يحضرها إلى ذهنك ويمثلها لخاطرك وذلك ما لا سبيل إليه فى التصوير)[1].

وأما العقاد : فيرى أن الصورة الأدبية عند الشاعر تتجلى في (قدرته البالغة على نقل الأشكال الموجودة كما تقع في الحس والشعور والخيال ، أو هى قدرته على التصوير المطبوع لأن هذا فى الحقيقة هو فن التصوير كما لا يتاح لأنبغ نوابغ المصورين)[2].

وبعد هذه التقدمة نلفت النظر إلى أبى تمام فى ألفاظه وأساليبه .

أسلوب أبى تمام

الأسلوب : هو المظهر المادى لإنتاج الأديب والصلة بينه وبين المخاطبين أو هو طريقة المتكلم الخاصة في نقل أفكاره إلى الناس وصوغها في جمل وعبارات روعى فيها تحقيق ما ينبغى في صياغة الصور والخيالات الجزئية كما روعى فيها تنظيم أجزاء الموضوع وحسن تنسيقها .[3]

---

١)- حصاد الهشيم: المازني ص ١١٨ .
٢)- ابن الرومي – حياته من شعره – العقاد ص ٢٠٧ .
٣)- النقد الأدبي عند العرب : د/ محمد طاهر درويش. ص ٢٣٧. ط دار المعارف.

ويقول الدكتور / محمد الصادق عفيفى عن الأسلوب (هو القالب الذى تفرغ فيه الفكرة والصورة أو المنوال الذى تنسج فيه التراكيب الوافية بصورها الصحيحة وأفكارها المقصودة الواضحة)[١] .

وقال الزيات : (الأسلوب هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام ، وهذه الطريقة فضلاً عن اختلافها في الكتاب والشعراء تختلف في الكاتب أو الشاعر نفسه باختلاف الفن الذى يعالجه والموضوع الذى يكتبه والشخص الذى يتكلم بلسانه أو يتكلم عنه) [٢] .

ومثل هذا ذهب إليه الدكتور مندور في قوله : (ليس المقصود بالأسلوب طرق الأداء اللغوية فحسب بل المقصود منحى الكاتب العام وطريقته في التأليف والتعبير والتفكير والإحساس على السواء بحيث إذا قلنا إن لكل كاتب أسلوبه يكون معنى الأسلوب كل هذه العناصر التى ذكرناها)[٣] .

من هذا نرى أن الأساليب لم تخرج كثيراً عما قاله الإمام عبد القاهر الجرجانى فى كلمته الموجزة من (أن الأسلوب هو المذهب من النظم والطريقة فيه) [٤] .

وللأسلوب خصائص يجب توافرها فيه منها : الصحة ، والوضوح ، والدقة أما صحته فهى أساس جودة الكلام وتستلزم هذه الصحة أمورا منها : صحة استعمال الكلمات التى تربط الكلام بعضه ببعض ، وكذلك تسمية الأشياء بأسمائها ثم لا بد من مراعاة قواعد اللغة فى الألفاظ مؤنثها ومذكرها مفردها ومثناها وجمعها .

---

١)- النقد التطبيقي والموازنات د/ محمد الصادق عفيفي ص ٢٠٠ الناشر مؤسسة الخانجي / مصر.
٢)- دفاع عن البلاغة – الزيات ص ٥٦ .
٣)- في الأدب والنقد د / محمد مندور. ص٦ ط نهضة مصر.
٤)- دلائل الإعجاز . ص ٣٦١ . مطبعة الشرقي – مصر.

وأما وضوحه فشرط جودة الأسلوب لأن الكلام الذى يعجز عن أداء معناه فى وضوح يفوت الغرض منه .

وأما دقته : فهى أن تتجنب فيه ما لا مبرر له من ابتذال أو سمو[1] ولما كان أبو تمام رائدا من رواد التجديد فى الشعر العربى كان لا بد أن يكون له أسلوب خاص تميز به عمن سواه وما ذلك إلا لأنه شاعر عب من معين الثقافات السائدة فى عصره من فارسية ويونانية وهندية وقبلها جميعا العربية وهذا ما جعله سيد أرباب القول فى عصره ، إلى جانب ذلك فقد أخذ نفسه بحفظ أغلب دواوين الشعر القديم ومحاكاته ، ولا سيما شعر البوادى فجاء شعره مليئا بالألفاظ الوعرة وما ذلك إلا لولعه بالاصطناع والتكلف من باب التجديد ، لذا نراه يصطدم بمن يتهمه بالضعف أحيانا أو بالعبث أحيانا أخرى وبخاصة من النقاد المحافظين الذين عابوا عليه غلبة الصناعة وتكلف البديع وإظهار نفسه فى كثير من قصائده بمظهر المكد الكادح .

ونستطيع الحكم على أسلوب أبى تمام إذا وضع فى كفة ميزان مقابلا لأحد شعراء عصره الذين لم ينالوا شهرته ؛ لنعلل بذلك السبب الذى نهض بأبى تمام وقعد بغيره .

لقد أتاحت الحياة لأبى تمام أسباب النبوغ وعوامل الإجادة وميادين السبق فلم يقصر في غاية ولم يضعف في غرض وقد أفاده تنقله في جوانب الدولة(حاضرة وبادية) ومشافهته الأعراب وانتجاعه إلى الأمراء والخلفاء وطموحه إلى المجد الشئ الكثير في أسلوب شعره ، وقوة ملكته ، ونضج قريحته ، واتساع أفقه ،

---

١)- النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمي هلال ص١٢٢ ، ١٢٣ بتصرف – الطبعة الثالثة – ط مطابع الشعب.

فاستقام لسانه وقوى بيانه وحلّق خياله وفاضت شاعريته واتجه اتجاه (صريع الغوانى)[١] في البديع والتعمق فى التأنق ومزج المجاز بالبديع فجاء شعره ظاهره براعة الألفاظ وباطنه خفيات المعانى ، ودل على ما عنده من أصالة الملكة الشعرية وتمكن المقدرة البيانية من لسانه وسلامة الأسلوب ، وسهولة قرض النظم للكلام ، فأصبح شعره خليقا باسم السهل الممتنع .

أما سهولته فإن أول ما يطالعنا منه سرعة انسياق معانى الألفاظ إلى الذهن مع ترادفها على السمع .

وأما امتناعه فلما يردفه من أخيلة وصور يظن من يسمعها – للوهلة الأولى – أنها من أودية بعيدة ، وجهات نائية ، ولكن بعد التتبع لها سرعان ما نجدها مرتبطة مقرونة فى خيط واحد . وللابتكار فى الأسلوب أثره البالغ فهو يصدر عن موهبة وطول مران ، وخير الكلام ما فيه ابتكار يوصلنا إلى أفكار جديدة ، ولا بد أن يراعى فى ذلك كله الشكل العام الذى يصاغ فيه ذلك الابتكار وتلك الأفكار ورعاية هذه الروابط ضرورية إذ لا يكفى أن يعرف المرء ما ينبغى أن يقال ، بل يجب أن يقول كما ينبغى ، ولا يخرج بذلك عن حدود المألوف ولذلك كان الأسلوب وطيد الصلة باللغة (فاللغة فى الشعر هى أول ظاهرة تحتاج إلى النظر)[٢] لأن لها شخصية كاملة تتأثر وتؤثر وهى تنقل الأثر من المبدع إلى المتلقى نقلا أمينا .

وقد اعتز الأقدمون بالأسلوب اعتزازاً كبيراً وتبين لنا هذا من كلامهم فى اللفظ والمعنى وما تداولوه حولهما من الآراء ومن وراء هذا الاعتزاز بالأسلوب بدا الاهتمام الشديد بالنظر فيه وتقويمه ونقده ، وقد تناول هذا النقد بالطبيعة

---

١)- هو الشاعر العباسي:: مسلم بن الوليد اشتهر بحبه للنساء وولع بغزلهن حتي لقب بهذا اللقب.

٢)- الأسس الجمالية في النقد العربي د / عز الدين إسماعيل ص ٣٤٨ . ط دار الشئون الثقافية العامة – العراق – بغداد.

الكلمات والألفاظ باعتبارها مفردات تتكون منها العبارات ولبنات يقوم بها البناء فوضعوا لتقويمها ونقدها مقاييس ومعايير.

● اللفظ عند أبى تمام

اللفظ هو اللبنة الأولى التى تبنى بها القصيدة وهو صورة صاحبه ، بل هو صورة العصر الذى أخذ منه يصور الحياة سواء أكانت خشنة بدوية أو رقيقة مترفة (ولفظ أبى تمام مثل فنه ، نتاج عوامل منها الموهوب ومنها المكسوب)(١)

فمن العوامل الموهوبة (الموهبة والبديهة)

فقد كان أبو تمام ذا قريحة وقادة أوتى حظا وافرا من الموهبة الفطرية والبديهة الحاضرة حتى روى عنه أنه كان إذا كلمه إنسان أجابه قبل انقضاء كلامه وكأنه كان على علم بما يقول فأعد جوابه .

ومن العوامل المكسوبة

ثقافته : فقد كان أبو تمام ملتقى ثقافات شتى سادات فى عصره إذ كان عصره من أزهى عصور التأليف والترجمة وتعددت نواحى ثقافته ما بين تأثر بكتاب الله وتأثر بالتاريخ بكل قصصه وأساطيره وأيامه إلى جانب ذلك من الشعر والفقه والحديث والفلسفة .

رحلاته وتنقلاته :

فقد (جاب أقطار العالم العربى طلبا للعلم أو المال والشهرة وقد أتاحت له هذه الرحلات فرصة الاتصال بالخلفاء والوزراء والولاة والقواد فضلا عن الشعراء والأدباء ، مدح من مدح وهجا من هجا ، ووصف المعارك الحربية وتغنى بالبطولة

---

١)- أبو تمام / البهبيتي ص ٢٣٣ .

العربية ورثى القواد الذين سقطوا فى الميادين ، ومن ثم كانت هذه الأشياء ميدانا تدريبيا حرك مشاعره فجال فيها وصال)[1] .

يقول طه حسين : (ومما لا شك فيه أن هذا السفر المتصل إذا صادف عقلا كعقل أبى تمام وقلبا كقلبه وشعورا رقيقا حاداً كشعوره ترك في هذا القلب وفي هذا العقل والشعور أشد الأثر وأحده وظهر هذا كله فى شعره)[2] .

وخلاصة القول أنه كان كما قال :

وغربت حتى لم أجد ذكر مشرق وشرقت حتى قد نسيت المغاربا

وكانت هذه أهم العوامل التى أثرت في شعر أبى تمام فطرية ومكتسبة (ولقد تضافرت هذه العوامل على إنتاج فن مركب معقد حتى يستطيع أن يرضى كل مطالب هذه الحياة المعقدة في ذلك العصر الحافل وكما كانت القصيدة في مجملها والصورة في تفاصيلها أثر من آثار هذا التكوين كان اللفظ كذلك ، فهو عند أبى تمام المادة الأولى في بناء قصيدته وهو ممن يعتنون به وينصبون الوقت لتزيينه واختياره والنظر فى محاسنه وبديعه والتأنق فيه لأنه تصوير لحياة أنيقة مترفة ، وهو لذلك مظهر من مظاهر تركيبه النفسى)[3] .

* ملحظ آخر جدير بالاهتمام وهو أن أبا تمام فى أغلب ألفاظه كان شغوفا بالإغراب ميالاً إليه ذا ولع باللفظ الغريب بل وبالتركيب المفتعل أحياناً ، ولقد حفل شعر العروبة عند أبى تمام بمثل تلك الألفاظ ونحن نعلم أن الاهتمام باللفظ يسميه الآمدى (طريقة العرب) كما يسمى المهتمين به (أهل العلم بالشعر) فلا شك فى صدق ما أجراه الآمدى على لسان صاحب أبى تمام (إنما

---

١)- معالم الشعر وأعلامه/ محمد نبيه حجاب. ص ٢٤٩ .
٢)- من حديث الشعر والنثر ص ٩٩
٣)- أبو تمام / البهبيتي ص ٢٣٤ .

أعرض عن شعر أبى تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ، وفهمه العلماء والنقاد فى علم الشعر ، وكان مثال ذلك ما جرى يوم قصد أبو تمام عبد الله بن طاهر وأنشده :

هـــن عـــواد ى يوســـف وصـــواحبه

فقال له كاتبا عبد الله (لم تقول يا أبا تمام ما لا يفهم ؟ فأجابهما فورا : (لم لا تفهمان ما يقال ؟ فكان هذا مما استحسن من جوابه)[١] .

لقد أنصف صاحب كتاب (العمدة) حين قال : (فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها ، يأتى للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة)[٢] .

يقول الدكتور / محمد نبيه حجاب : (وليس بصحيح ما قيل إن ذلك كان يأتيه عفوا لطول قراءاته للشعر القديم[٣] وكيف نسلم بذلك وهو يصف شعره يقول :

فكأنما هى فى الســماع جنـــادل وكأنما هى فى القلوب كواكــب

وغرائـــــب تأتيــــك إلا أنهــــا لصنيعك الحسن الجميل أقارب[٤]

---

١)- الموازنة – ص ٨ ، ٩ .

٢)- العمدة ج ١ ص ١٣٠

٣)- يشير د/ حجاب بهذه العبارة إلي ما أورده د/ عبده بدوي في كتابه (أبو تمام وقضية التجديد)من قوله: (والذي لا شك فيه أن كثيراً من الألفاظ الحوشية تصاعد إليه بتأثير قراءاته الطويلة المستوعبة لشعراء الجاهلية بصفة خاصة – ونحن نعرف أنه كان وراء تراث غليظ يتمثل أكثر ما يتمثل في (الأراجيز) التي يقال إنه حفظ منها أربعين ارجوزة ، ومن المعروف أن الرجازين يتقعرون في اللغة ويغوصون غوصاً شديداً علي الغريب وقد كان هذا وراء قاموسه الغريب الذي نعرف منه ألفاظاً مثل اسحنفر – ابذعر – طلخف – اشمعل / ص ١٢١ .

٤)- معالم الشعر وأعلامه ص ٢٥٢ .

ولكن الدكتور / فروخ يرى رأيا آخر يخالف ذلك إذ يقول :

(وأرنى لا أميل إلى قول أبى هلال العسكرى (كان أبو تمام يتتبع وحشى الكلام ويدخله في شعره) لما في ذلك من قصر النظر في الأمور، أفترى أبا تمام ينظم القصيدة ثم يبدل كلامها السهل المألوف بالغريب الوحشى ؟

كلا لعمرى وإلا لكانت كل قصائده كذلك ، غير أنى أعتقد ذهاب الناس بقول ابن رشيق القيروانى (وللشعراء ألفاظ معروفة ، وأمثلة مألوفة لا ينبغى للشاعر أن يعدوها ولا أن يستعمل غيرها) فأنت ترى إذن فى هذه الفقرة عقلية بعض الناس بجلاء ، إنهم يحبون ما ألفوه ولو كان غثا بارداً ويعرضون عما يحتاج فى جنيه إلى قليل من التعب)[1].

والدكتور / فروخ في رأيه السابق جد محاب لأبى تمام جد متحامل على أبى هلال العسكرى لأن أبا تمام قد يعمد لإدخال ألفاظ غريبة فى شعره ليدلل بذلك على علمه باللغة وبكلام العرب لدرجة أنه يخالف القياس أحياناً ففى مدحه لعياش بن لهيعة نجده يختم قصيدته بقوله :

شامت بروقك آمالى بمصر ولو أصبحت بالطوس لم أستبعد الطوسا

فقد أدخل (ال) على طوس ، وهو اسم بلدة وقال : عبد مناه بدلاً من عبد مناة في قوله :

إحدى بنى بكر بن عبد مناه بين الكثيب الفرد فالأمواه

● المعانى عند أبى تمام

لأن المعنى وثيق الارتباط باللفظ آثرت أن أتبع الكلام عن الألفاظ بالكلام عن المعانى فملاءمة اللفظ والمعنى مسألة هامة عنى بها نقاد العرب وحثوا عليها كثيراً في كلامهم ، وليس هنا مجال الوقوف عند اللفظ والمعنى وإلا لأكثرنا من آراء

---

١)- أبو تمام – فروخ ص ٤٠ .

العرب في ذلك لأهمية هذه القضية قديماً وحديثا في النقد الأدبى عموماً وفي الأسلوب خصوصاً .

عد عن ذا إلى أبى تمام قصدت ، فقد أستاثر أبو تمام منذ القرن الثالث الهجرى باهتمام النقاد والشراح ، وتمادى ذلك بعد وفاته أمدا طويلاً ، ولم تقدر شهرة المتنبى ولا أبى العلاء أن تحد من إقبال الناس على شعره والكلام فى معانيه ، ذلك لأن أبا تمام يمثل منعطفا في تاريخ الشعر العربى قام فيه النظم أساسا على الاستعارات والمحسنات البديعية بطريقة مبالغ فيها لم يألفها الناس من قبل فكان أن قامت – من أجل ذلك – معركة أدبية حامية الوطيس انقسم الناس فيها طائفتين مناصرة لأبى تمام ومعارضة له .

أما المؤيدون – من أمثال الصولى فقد رأوا فى الطائى (رأسا في الشعر مبتدأ لمذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغه فيه حتى قيل مذهب الطائى وكل حاذق بعده ينسب إليه ويقفى أثره)[1] .

أما المتعصبون عليه – وهم كثر – فقد طعنوا فى مذهبه وألحوا على نقائصه **فقال الآمدى** (............ لأن أبا تمام شديد التكلف صاحب صنعة ومستكره الألفاظ والمعانى وشعره لا يشبه أشعار الأوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعانى المولدة ....)[2] .

وقال فيه الجرجانى (.......... فإنه حاول بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه فحصل منه على توعير اللفظ وتبجح فى غير موضع من شعره فتعسف ما أمكن ، وتغلغل في التصعب كيف قدر ، ولم يرض بهاتين الخلتين حتى

---

١)- أخبار أبي تمام ص ٣٨ .
٢)- الموازنة ص ٢ ، ٣ - ط محمد علي صبيح .

اجتلب المعانى الغامضة ، وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقيل وأرصد لها الأفكار بكل سببيل ، فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر وهذه جريرة التكلف)[١].

نخلص من ذلك إلى أن حجم العناية التى أولتها كتب النقد الأدبى الكبرى في القرنين الثالث والرابع الهجريين لشعر أبى تمام يعد دليلاً على أهمية هذا الشعر ومكانته وإنه لواضح من قراءة كتاب (البديع) لابن المعتز و (أخبار أبى تمام) للصولى و (الموازنة) للآمدى و (الوساطة) للقاضى الجرجانى أن شعر أبى تمام كان يمثل تحديا للمفهوم العربى الكلاسيكى (التقليدى) عن القصيدة بل يأتى شعر أبى تمام بمثابة التحدى الحقيقى للنتاج الشعرى العربى التقليدى بأكمله في أساليبه ومعانيه .

(وقال بعض من نظر بين أبى تمام وأبى الطيب : إنما حبيب كالقاضى العدل : يضع اللفظة موضعها ويعطى المعنى حقه بعد طول النظر ، والبحث عن البينة أو كالفقيه الورع : يتحرى فى كلامه ويتحرج خوفاً على دينه ، وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهرا وعنوة أو كالشجاع الجرئ : يهجم على ما يريده لا يبالى ما لقى ولا حيث وقع)[٢].

يقول طه حسين : (كان أبو تمام حاد الشعور وكان يحس الأشياء حسا سريعاً ويتأثر بها تأثرا عميقا ثم لم يكن ذكاؤه يمتاز بهذه الحدة فحسب ، وإنما كان يمتاز بشئ من العمق لم يكن لغيره من الشعراء ، فأبو تمام لم يكن كغيره إذا تعرض لشى أخذ من ما يبدو أخذاً سريعا ولكنه كان إذا تعرض لمعنى من المعانى تعمقه

---

١)- الوساطة – ص ٥٩ .
٢)- العمدة ج ١ ص ١٢٣ .

وكان هذا التعمق من مزايا أبى تمام ومن عيوبه فى وقت واحد ، من مزاياه لأنه من أظهر الدلائل على قوة العقل ومن أحسن الوسائل لفهم الأشياء ومن أقوم الطرق التى تحول بين الإنسان وبين الخطأ فى الفهم وفى التقدير.

ولكنه في الوقت نفسه كان يضطره إلى ألوان من الإغراب فى المعانى وفى الألفاظ أيضا فكان يصل إلى أشياء لم يتعود الناس أن يروها ولا أن يصلوا إليها ، كان يدهش الناس بما يظهر من هذه المعانى المختلفة ثم كانت تعوزه اللغة أيضاً)[1] .

وعن عمق المعانى عند أبى تمام **يضيف طه حسين قائلا** :

(كان الناس قد تعودوا أن يدلوا باللغة على معان قريبة لا سيما فى الشعر وكانوا قد ألفوا – ولا سيما فى هذا العصر – أن يجدوا التعمق والتقصى وتخير الألفاظ والمعانى الجديدة عند الفلاسفة وعند المتكلمين فلما رأوه عند شاعر كأبى تمام يجد من اللغة مشقة فيتكلف بعض الغريب أو يحمّل الألفاظ أكثر مما تحمل وجدوا فى ذلك حرجا ومشقة ولذلك أنكروا على أبى تمام هذا الإغراب وهذا التكلف في التعبير ، فقد كان اذن هذا الذكاء الحاد مصدر مزية ومصدر عيب يأخذون به أبا تمام)[2] .

وهذا الذكاء الحاد الذى استخدمه أبو تمام استخداما واسعا في تمثل الشعر الذى سبقه من قديم وحديث فقد وعى وعياً دقيقاً صورة الشعر العربى بجميع خطوطها وألوانها وكل ما يجرى فيها من أضواء وظلال وانتحى ناحية (مسلم بن الوليد) في تصنيعه إذ كان ذوقه ذوق نحات أصيل فهو يقيم قصائده وكأنه يرفع

---

١)- من حديث الشعر والنثر ص ٩٧ .
٢)- السابق ص ٩٩ .

تماثيل باذخة ولذلك لا نعجب حين نجده يتمسك بالأسلوب الجزل الرصين فهو الذى يلائم ما يريد من ضخامة البناء ومتانته وقوته ، وقد تحولت عنده معانى الشعر إلى ما يشبه جذاذات العلماء ، فهو يتناولها ممن سبقوه ويخرجها إخراجا جديدا يستعين فيه بدقة فكره وروعة خياله مضيفا إليها كثيراً من دقائق ذهنه وبدائع ملكاته .

● بناء القصيدة عند أبى تمام

لم تكن أوائل العرب تخص ترتيب المعانى بفضل مراعاة ، وإنما حفل بها المحدثون منذ العصر العباسى فأخذوا يهتمون بالبدء وبالانتقال منه إلى الغرض ثم بالخاتمة لأنها المواقف التى تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء .

(وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع أخره على ما ينسقه قائله فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل) (١).

وطالما كانت مطالع القصائد مثار خصومة بين أنصار الجديد وأنصار القديم من الشعراء والنقاد ، فقد عنى النقاد والأدباء بأمر الابتداءات فى الشعر والنثر على السواء ومن ذلك (براعة الاستهلال) وهو أن يأتى الناظم أو الناثر فى بدء كلامه ببيت أو قرينة تدل على مراده ، ثم التخلص أو الخروج وهو أن يكون ما فى مقدمة القصيدة من الأغراض ممتزجا بما بعده ويتصل بذلك ما يسمى الاستطراد وصحة التقسيم والاستيعاب ثم براعة الختام وهو أن يكون آخر الكلام الذى يقف عليه المترسل أو الخطيب أو الشاعر مستحسنا عذبا لأنه آخر ما يبقى منها في الأسماع .

---

١)- عيار الشعر- محمد بن أحمد بن طباطبا ص ١٢٦ ط القاهرة ١٩٥٦ والعبارة في ظاهرها تلتبس بما يسمي "الوحدة العضوية" ولكنها تنبه أيضا إلي ضرورة حسن الابتداء "المطالع" والخروج والخاتمة.

وبناء القصيدة عند أبى تمام متقلب مثل تقلب شخصيته هو، فقد زاوج في بناء قصائده بين طريقة الأقدمين – من الابتداء بمخاطبة الأطلال والتحسر لمرآها أو الغزل ثم الانتقال والتخلص إلى غرض آخر ومن مطالعه في ذلك قوله :

أرامة كنت مألف كل ريم ... لو استمتعت بالأنس القديم

وهو مطلع قصيدة له فى مدح بنى عبد الكريم الطائيين وقوله :

أظن دموعها سنن الفريد ... وهى سلكاة من نحر وجيد

لها من لوعة البين التدام ... يعيد بنفسجا ورد الخدود

وهو مطلع قصيدة له فى مدح أبى سعيد الثغرى وقوله :

على مثلها من أربع وملاعب ... أذيلت مصونات الدموع السواكب

وهو مطلع قصيدة مدح فى أبى دلف القاسم بن عيسى العجلى وقوله :

ألا صنع البين الذى هو صانع ... فإن تك مجزاعا فما البين جازع

وهو مطلع قصيدة له فى الفخر بقومه وقوله :

أما الرسوم فقد أذكرن ما سلفا ... فلا تكفن عن شأنيك أو يكفا

لاعذر للصب أن يقنى الحياء ولا ... للدمع بعد مضى الحى أن يقفا

وهو مطلع قصيدة له فى مدح أبى دلف العجلى وقوله :

تصدت وحبل البين مستحصد شزر ... وقد سهل التوديع ما وعر الهجر

وهو مطلع قصيدة في الفخر بقومه وذلك كثيراً جداً في شعره .

وطريقة المحدثين (المولدين) – وهو على رأسهم – من الحيد عن نمط الأقدمين فيبدأ قصائده بالوصف أو الخمر وقد يجمع بين الطريقتين في قصيدة واحدة فأصبح كالبوتقة التى تنصهر فيها كل تجارب الأقدمين والمولدين ثم تخرج على صورة أخرى جديدة بعد ما يضفيه عليها من دقة فكره وروعة خياله وبدائع

ملكاته فتصبح القصيدة بعد ذلك كالتمثال الباذخ أو كالعلم الشامخ الذى لا تتطاول إليه الأعناق .

وقد كان أبو تمام موفقا كل التوفيق فى صنع مطالع قصائده بطريقة لافتة للنظر مسترعية للانتباه ، ففى المواقف التى تأخذ النفس وتبلغ فيها العاطفة أقصى جيشانها نراه يندفع كالسيل الجارف فى ابتداءه بما يجيش بنفسه فيهجم على غرضه هجوماً لا هوادة فيه ، ولا له تمهيد من مثل قوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

توفيــت الآمــال بعــد محمــد وأصبح فى شغل عن السفر السفر

وهو مطلع قصيدة يرثى بها محمد بن حميد الطوسى وكذلك قوله في رثائه أيضاً :

أصم بك الناعى وإن كان أسمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

للحد أبى نصــر تحيــة مزنــة إذا هى حيت ممعراً عاد ممرعا

وكقوله في مدح المعتصم :

السيف أصدق أنباء من الكتــب فى حده الحد بين الجد واللعــب

فلا خمر ولا أطلال ولا وصف وهو على ذلك يمضى حتى ينتهى .

وكقوله في مدح المعتصم أيضاً وذكره أمر الأفشين :

الحق أبلــج والسـيوف عــوار فحذار من أسد العــرين حــذار

وكقوله في رثاء خالد الشيبانى :

نعــاء إلــى كــل حــى نعــاء فتى العرب احتل ربــع الفنــاء

وتلك عبقرية من أبى تمام لأن المطالع أول ما يقرع الآذان من القصائد فإذا كان المطلع حلو الألفاظ واضح المعانى متين التركيب ترك فى النفس أثراً قد لا يمحى .

أما حسن التخلص أو الخروج فالشاعر هو الذى يجيد الوصل بين الأغراض فبينما هو فى غرض يتكلم فيه إذ هو يأخذ في معنى غيره من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغا فيكون الكلام بعضه آخذا برقاب بعض وكانت العرب في جاهليتها تنتقل فجأة بقولها :

(دع ذا) أو (عد عن ذا) أو (إلى فلان قصدت) وما شاكل ذلك بل كانوا ينتقلون أحيانا دون شئ من ذلك وأبو تمام من أولئك الشعراء الذين أجادوا حسن الخروج من فن إلى فن وبخاصة فى القصائد التى يبدأها بغير غرضه الأصلى ومن هذا عانيت كثيراً خلال هذه الدراسة لشعر العروبة عنده إذ كنت أتحير كثيراً عندما أحاول اجتزاء أبيات العروبة من قصائده فلا أدرى من أين أبدا ولا أين انتهى وذلك لأن أبياته كلها حيكت بمهارة وذلك مما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه .

أما القصائد التى بدأها مباشرة بالإعراب عن غرضه ومقصوده فليس فيها تخلص أو خروج إذ القصيدة من أول بيت إلى آخر بيت تدور فى فلك واحد وحول معنى مترابط الأجزاء لا ينتهى منه حتى يعود إليه وهو نفس ما يسميه النقاد المحدثون (الوحدة العضوية) للقصيدة لا وحدة البيت الواحد .

أما براعة الختام أو النهاية فقد كان أبو تمام موفقا أيما توفيق ، فلم يساير الجاهليين فيقطع قصيدة دون خاتمة لها وإنما علم أن الخاتمة آخر ما يبقى فى الأسماع من القصيدة فختم قصائده بما يؤكد ما أراده من معان خلالها وبما يحرك ألسنة السامعين بالثناء والإعجاب ، وكانت خواتمه تشبه إلى حد كبير (الحكمة) في جلال معناها وسهولة أسلوبها من مثل قوله في ختام قصيدته في رثاء ابن حميد :

إن كان ريب الدهر اثكلنيهم   فالدهر أيضاً ميت مثكول

وقوله :

لا غرو أن قتلوا صبرا ولا عجب فالقتل للصبر فى حكم القنا تبع

وقوله في ختام قصيدة له في مدح عياش الحضرمى :

وهاتا ثياب المدح فاجرر ذيولها عليك وهذا مركب الحمد فاركب

وقوله في قصيدة له في رثاء ابن حميد :

عليك سلام الله وقفا فإننى رأيت الكريم الحر ليس له عمر

وقوله في ختام قصيدة له في مدح أحمد بن عبد الكريم الطائى :

لا تعدمنك طيئ فلقلما عدمت عشيرتك الجواد السيدا

نخلص من ذلك إلى أن الشعر الذى توافر فيه مبدأ(التحام النظم والتئامه) يوشك أن تكون القصيدة منه كالبيت والبيت كالكلمة ، تسالما لأجزائه وتقاربا وجد عند أبى تمام فلم يستسلم لتقاليد القصيدة العربية منذ الجاهلية من الوقوف على حد اللفظة أو الجملة أو البيت الواحد بل جعل القصيدة وحدة فنية تتألف من عناصر مختلفة كثيرة متماسكة متوازية متداخلة على نحو لا يمكن معه تصور كل منها على حده ، وبذلك نستطيع القول بأن شاعرنا كان يفكر طويلا فى موضوع قصيدته وفى منهجها وفى الأثر الذى أراد أن يتركه فى جمهوره وفى الأجزاء التى تتعاون فى إحداث هذا الأثر متمشية مع البناء الكلى للقصيدة وفى الأفكار والصور التى يشتمل عليها كل جزء ملاحظا فى ذلك التتابع المنطقى وتسلسل الأفكار والأحداث ووحدة الطابع فجاءت القصيدة كما أراد .

المبحث الثانى
العاطفة والخيال

العاطفة عند أبى تمام:-

العاطفة هى تلك القوة النفسية التى تثيرها مؤثرات وميول خارجية مختلفة فتظهر في صورة انفعالات شتى كالحب والبغض والسرور والحزن والرجاء والخوف والوفاء وهى بذلك من دواعى الشعر التى تهيجه ، وينابيعه التى ينبجس منها ، فمن كان ذا فطرة شاعرة وموهبة أدبية ، استحثته إلى قول الشعر دواعيه وأمدته فيها عواطفه وهو فى ظل هذه العاطفة أصدق شعوراً وأجمل تعبيراً وأغزر معينا[1] فللشعر دواع تحث البطئ وتبعث المتكلف[2] منها :

الشراب ومنها الطرب ومنها الطمع ومنها الغضب ومنها الشوق كما يقول ابن قتيبة[3] :

والعاطفة هي التي تمنح الأدب الصفة التي نسميها الخلود ، فنظريات العلم ليست خالدة والسبب في ذلك أن العلم خاضع للعقل ، والعقل سريع التغير حتى في الإنسان الواحد من صباه إلى شبابه إلى شيخوخته ، فقد يرى الرأى في زمن ثم يرى غيره في زمن آخر ، وهكذا أما العاطفة فلا تتغير إلا قليلا وإذا تغيرت كانت في أشكالها دون أساسها ، وقد عرف الشعراء في أنفسهم دواعي الشعر وبواعثه ألا وهى هذه الانفعالات والعواطف ، كما أقرها كذلك نقاد العرب واعترفوا بها كما عرفوا صلة هذه العواطف بالشعر والأدب وأثرها فيما تبعث في فنونه (فمع الرغبة

---

١)- النقد الأدبي عند العرب / محمد طاهر درويش ص ٢١٩ .
٢)- طالبه : الذي يرغب فيه.
٣)- الشعر والشعراء – ابن قتيبة ص ٨ .

يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع)(١) .

وقد وضع النقاد للعاطفة مقياساً وهو الصدق والكذب مما لا شك فيه أن عاطفة الشاعر إذا كانت قوية صادقة تركت أثرها قوياً واضحاً فى شعره وبعث فيه من الحرارة وصدق التأثير ما هو جدير بأن يحرك عواطف الناس وأن يشعل فى نفوسهم من الانفعالات مثل ما لدى الشاعر وأن يجعلهم – من حيث لا يشعرون – شركاءه فيما يعبر عنه من مشاعر عامة كالحب والحنين والشوق والحزن والأسف .

أما إذا كانت العاطفة كاذبة فقد فقدت خاصيتها ، وعجزت عن إثارة المشاعر وعاد نسج الشعر تبعا ضعيفا لا روح فيه (وعلى الجملة فإثارة العواطف هي العنصر الظاهر فى الأدب فإذا كانت هذه الإثارة هي أهم غرض للكاتب أو الأديب كان لنا من هذا شعر أو أدب كفن من الفنون الجميلة)(٢).

ومما يسم شعر العروبة المنتشر في ديوان أبى تمام - كمظهر عام- انصهار حسه وعقله وفكره وشعوره في بوتقة العروبة ثم تستحيل هذه الحواس سهاماً مصمية يسددها إلى صدور أولئك الذين يشككون فى عروبته على هيئة كلمات فأبيات يجلى بها وجه العروبة عنده .

فهو إذا مدح يشيد أولاً بالسجايا والصفات العربية ويعليها قبل أن يسمى ممدوحه – وإذا افتخر يشيد بالوقائع التى كان النصر فيها للعرب على غيرهم وللإسلام على الكفر بشتى صوره ، ويحاول التذكير من خلال تلك الوقائع بالأيام

١)- العمدة – ابن رشيق ج ١ ص ١٢٠ ط دار الجيل .
٢)- النقد الأدبي / أحمد أمين ص ٢٣ الناشر – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة.

التي انتصر فيها العرب قديما على أعدائهم ، وإذا رثى نعى إلى العروبة أبطالها وقواد معاركها الشجعان الذين سقطوا في الميادين .

ولكنهم بذلك كانت لهم اليد الطولى في كتابة ذلك النصر المؤزر على أعداءها وتحس منه وهو يدافع عن العروبة باللسان ؛ لا يفترق قيد أنملة عن أولئك الذين يدافعون عنها بالسنان في الساحات الحربية ، وذلك كله صادر عن عاطفة دفاقة صادقة خالطت جنان الشاعر ووجدانه وفجرت ذلك الينبوع العذب على لسانه وأعانها فى جلاء الصورة وحسنها ما استمده من بيانه ، فهتف بما يجده في نفسه فغدا هذا الشعر لسان حاله وترجمان هواه وعواطفه ، فتناقلته الأجيال حريصة عليه ضنينة به لحنا حلوا وأنشودة بارعة ترددها الأفواه وتطرب لها القلوب قبل الأسماع وتطيب بها النفوس .

وعاطفة الأعتزاز والانفة - المعروفة عند العرب - تستحوذ على أبى تمام وتستولى على أقطار نفسه فإذا ما اضطر إلى مديح غير العرب تخلص من ذلك ؛ بأن يبدأ مديحه للعرب وكذلك يختم مدحه لهم وفي وسط ذلك يمدح غيرهم وكأنى به يستنكف أن يكون مدحه خالصاً لغير العرب .

يقول جامع ديوان أبى تمام : (إن أبا تمام كان بنيسابور على باب عبدالله بن طاهر فخرج أبو العمثيل حاجبه برقعة فيها بيتان من شعر قالهما عبد الله فقال لأبى تمام : قل في معنى هذين البيتين ووزنهما وهما في الأفشين وكان يحارب بابك في مدينة أرشق والأفشين وجه إلى حرب بابك سنة ٢٢٠ وفيها كانت موقعة أرشق المذكورة وكأنما كان عبد الله يريد بذلك إرغام أبى تمام على مدح أعجمى قح انتقاما منه وتنكيلا بتلك العصبية التى دفعت **بأبى تمام إلى قول شعره** :

وأنت وقد مجت خراسان داءها   وقد نغلت أطرافها نغل الجلد

وأوباشها خزر إلى العرب الألى لكيما يكون الحر من خول العبد

وما قصدوا إذ يسحبون على المنى برودهم إلا إلـى وارث البـرد

وراموا دم الإسلام لا من جهالة ولا خطأ بل حاولوه على عمـد

فمجوا بها سما وصابا ولو نـأت سيوفك عنهم كان أحلى من الشهد(١)

فإذا قال أبو تمام عن فرس خراسان (أوباش) أحس عبد الله أمر ما يحسه الإنسان ذا مست قوميته وإذا قال أبو تمام :

ليالي بات العز فـي غيـر أهلـه وعظم وغد القوم في الزمن الوغد

وكان الأمير عبدالله من هؤلاء الذين يدعوهم أبو تمام (الأوغاد) فإن هذا يصبح جارحا ثقيلا فلما أحس أبو تمام من عبدالله أنه يريد إرغامه على مدح أعجمي قال قصيدته :

غدا الملك معمور الحـرا والمنـازل منور وحف الروض عذب المناهـل

وهذه القصيدة أول شعر قاله في مدح الأفشين وكأنما أحس أبو تمام لذلك كرها فبدأ القصيدة بمدح الخليفة وختمها كذلك بمدح الخليفة ومدح فيما بين ذلك الأفشين فقال:

غدا الملـك معمـور الحـرا والمنـازل منور وحسف الروض عذب المناهل(٢)

بمعتصـم بـالله أصـبح ملجـأ ومعتصما حرزا لكـل موائـل

لقد ألـبس الله الإمـام فضـائلا وتابع فيها باللهى والفواضـل(٣)

فأضحت عطايـاه نـوازع شـرداً تسائل في الآفاق عن كل سائل(٤)

---

١)- شرح الديوان ج ٢ ص ١٢٢ والأبيات من قصيدة في مدح حفص بن عمرو الأزدي.

٢)- شرح الديوان ج ٣ ص ٧٩ : الحرا أو الحراة / الناحية ، والوصف من النبات: السريان.

٣)- البسه : أي خصه بالفضائل أي الجود والبأس والتقي ، واللهي : العطايا.

٤)- نوازع : من قولهم ناقة نازع وكذلك الجمل. أي أنها تحن إلي العافين فتسير إليهم.

ومدح الأفشين فقال :

لقد لبس الأفشين قسطلة الوغى ... محشا بنصل السيف غير مواكل[1]

وسارت به بين القنابل والقنا ... عزائم كانت كالقنا والقنابل

تراه إلى الهيجاء أول راكب ... وتحت صبير الموت أول نازل

تسربل سربالا من الصبر وارتدى ... عليه بعضب فى الكريهة قاصل

ثم ختم قصيدته بمدح الخليفة فقال :

فتوح أمير المؤمنين تفتحت ... لهن أزاهير الربا والخمائل

وعادات نصر لم تزل تستعيدها ... عصابة حق فى عصابة باطل

وما هو إلا الوحى أو حد مرهف ... تميل طباه أخدعى كل مائل[2]

ألا يروعك هذا الحس الرقيق الدقيق عند أبى تمام والذى أظهر خبيأة نفسة فلم يترك لعربى ولا غيره مجالاً للشك فى عروبته المتغلغلة فى عروقه وكأنما ارتضعها مع لبانه وهو صغير ؟!

أسلوب الاستفهام

الاستفهام لون من ألوان التعبير ينقل أدق المشاعر وأعمق الأحاسيس ويبث أخفى الخواطر والهواجس باعثاً في نفس المتلقى شتى الايحاءات المتوهجة المتداخلة ، هذه المشاعر والأحاسيس والدلالات التى يوحى بها الاستفهام تعرف من الموقف الذى يساق فيه ، وحال المخاطب والجو الشعورى المسيطر على الموقف فتحس نبض القلوب في نبض الكلمات وحرارة الانفعالات في التعبيرات التى تنتفض حرارة وحياة .

---

١)- تعطل : الغبار ويجوز تانيثه : وهو كمحش النارخ تنوذه واصطلانه نار الحرب المواكل: الذي يكل أمره إلي غيره.

٢)- شرح الديوان ج ٣ ص ٨٦ – الوحي :/ أراد به القرآن ، والظبا جمع ظبة وهي حد السيف ، والأخدعان : هما جانبي الرقبة.

وسر جمال الاستفهام البلاغى أنه يعطى الكلام حيوية ويزيد من الإقناع والتأثير به كما أنه فيه إثارة للسامع وجذبا لانتباهه وإشراكا له في التفكير ليصل بنفسه إلى الجواب دون أن يملى عليه .

والاستفهام الأدبى لا يطلب به جواب وإنما يحمل من المشاعر ما يخرج به إلى أغراض بلاغية متعددة مثل التشويق والإنكار والنفى والتمنى والتعظيم والاستبعاد والحسرة والتسوية وغيرها من الدلالات التى يوحى بها الاستفهام وتعرف من سياق الأسلوب بمعونة القرائن .

● **الاستفهام فى شعر العروبة عند أبى تمام**

لما كان فن المديح قائماً أصلاً على الإخبار بالمحاسن ودفع المخازى ، وجدنا أن الأساليب الإنشائية بعامة والاستفهام بخاصة لم تدخل شعر العروبة عند أبى تمام إلا لماماً ومنها على سبيل المثال لا الحصر قوله مفتخرا مادحا طئ .

هل أوراق المجد إلا فى بنى أدد ... أو اجتنى منه لولا طئ ثمــر ؟

فالاستفهام هنا له وقعة الخاص حيث قصد به النفى بل وطلب من مخاطبه أن يقر ويذعن بذلك وليس من شك أن الاستفهام هنا أفضل من الإخبار إذ لو قال :

لم يورق المجد إلا في بنى أدد ولم يؤتى ثماره لولا طئ لكان الكلام عرضة للتصديق والتكذيب ولكنه ساقه مساق المسلمات اسمع إليه يقول لما انتصر أبو سعيد الثغرى على جنود بابك الخرمى :

تالله ندرى : أالاســلام يشــكرها ... من وقعة أم بنو العباس أم أدد ؟

والاستفهام تعجبى وكأنه من شدة عجبه متحير لمن ينسب هذا النصر المبين؟!

ولما فتحت عمورية – وكان المنجمون قد تنبئوا بعدم التمكن من فتحها – يأتى أبو تمام فيتحدث عن علم التنجيم هذا الحديث الساخر الذى يفضل فيه السيف على الكتب والقوة على العقل ويستمر فيهزأ بما يذكره المنجمون من أيام السعد والنحس وما يذهبون إليه من تقسيم الأبراج إلى ثابتة ومتقلبة وتحكّمها في طوالع الناس والأحداث فيقول :

أين الروايــة أم أيــن النجــوم ومــا صاغوه من زخرف فيهاومن كذب ؟

لقد أراد أبو تمام أن يقول : إن العلم في الفعل لا في القول وأقصد بالفعل (الحرب) وبالقول التنجيم ، والعصر يذكرلنا أن التنجيم كان قضية مطروحة على الناس في ذلك الزمن في الجانب الرومى وفي الجانب العربى وهذا يؤكد وقفة الشاعر الطويلة عنده وكيف أن نظرته المتلاقية مع نظرة المعتصم كانت علمية وكانت تحديا للآراء الشائعة ، وعلى ما يبدو لقد كان أبو تمام على دراية بعلم الفلك ، وظهر ذلك في شعره وحديثه عن المذنب في قوله :

وخوفوا الناس مــن دهيــاء مظلمــة إذا بدا الكوكب الغربى ذو الـذنب[1]

حيث يلتقى ذلك بالآراء التى ذكرت أن ظهوره كان في الأفق الغربى عام ٢٢٣ ثم كان اتجاهه إلى المشرق واستمراره أربعين ليلة وكان بالغ الطول [٢] .

* ومن الاستفهام في رثائه خالدا الشيبانى :

على أى عرنين غلبنــا ومــارن وأية كف فارقتنــا وســاعد ؟!

وهو استفهام ظهرت فيه ألوان قاتمة من الحسرة والأسى لموت خالد الشيبانى وقوله متعجبا من حال الموت :

فماذا أحضــرت بــه حاضــرا وماذا خبأت لأهل الخبــاء ؟ !

---

١)- الديوان ج ١ ص ٤٤ .
٢)- أبو تمام د/ عبده بدوي ص ٢٢٧ .

يقول الصولي : يخاطب الموت ويقول ما صنعت بأهل البدو والحضر(١)

وفي رثائه لابن حميد الطائي يقول :

وأنى لهم صبر عليه وقد مضى إلى الموت حتى استشهدا هو والصبر ؟

فينفى الصبر عن أهله ويتساءل متعبا كيف يصبرون بعد موته وقوله :

أمن بعد طي الحادثات محمدا يكون لأثواب الندى أبدا نشر؟ !

إذا شجرات العرف جذت أصولها ففي أي فرع يوجد الورق النضر ؟

وهنا نرى استفهامين يحملان مشاعر الأسى والحسرة على من مات الكرم بموته وسر الإعجاب في هذين الاستفهامين أن الشاعر يستثير بهما السامع ويحثه على مشاركته في أساه وحسرته عن طريق دليل حي هو شجرات الطيب التي جذت أصولها وجفت فروعها فأصبح عسيرا أن ينبت بها الورق النضر.

● وفي فخره بقومه يقول مستفهما :-

فأي يد في المجد مدت فلم تكن لها راحة من جودهم وأصابع ؟

والاستفهام قصد به النفي والمعنى ما من جواد في الأرض إلا وجوده مشتق من جودهم ويقول :

وهل خاب من جذماه في ضنء طئ عدى العديين القلمس أوعمرو ؟

والاستفهام تعجبي وتشم فيه رائحة النفي وقوله :

فتى دخر الدنيا أناس ولم يزل لها باذلا فانظر لمن بقي الذخر؟

والاستفهام قصد به التقرير وقوله :

هل اجتمعت عليا معد ومذحج بملتحم إلا ومنا أميرها ؟

وهو استفهام قصد به النفي وهكذا نجد كل استفهام لأبي تمام مفعم بأصباغ أخرى راح يستخدمها ويأثر بها تأثيراً يخلد في أذهان سامعيه ويدلل بذلك

---

١)- الديوان ج ١ ص ٦ .

على ما عنده من موفور العواطف ويدلل أيضاً على شدة إحكامه لألوان فنه التى تروق من يسمعها .

● الخيال عند أبى تمام

الخيـــال ملكـــة ذات قيمـة كـبيرة في الأدب إن لم تكـن أقـوم الملكـات و(إن تعريفه ككل المعانى عسير ومن أسباب صعوبة التعريف أن الكلمة تستعمل في أنواع مختلفة من العمليات العقلية)[1].

وكل ضروب الأدب – ولا سيما الشعر – محتاجة إلى الخيال لأن ما يتوارد به من الصور يجعل الأمور المعنوية محسوسة لك ماثلة أمام عينيك فيها من الحركة والحياة ما يزيدك بها يقينا وما يزيدها فى نفسك استقرارا وتأثيراً ، والأدباء والبلغاء يرون الكلام المشتمل على الخيال أكثر روعة وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع .

(وللخيال الأدبى ارتباط كبير بالعواطف وكلما كانت العاطفة قوية احتاجت إلى خيال قوى يعين عليها وضعف أحدهما يؤثر أثراً كبيراً في ضعف الآخر)[2] لذا كان الخيال وعى ذو سلطان ثابت الدعائم ، لا يهتدى المرء إليه لأنه يعجز عن الوقوف على عظمته إلا إذا عرفه عن طريق الشعور (وفي هذا كله أصبح الخيال – في مجاله الفنى – ذا مكانة تفوق قوى العقل الأخرى على شرط أن تكون الصور التى ينتجها متسقة متآزرة تتآلف على تصوير الحقيقة)[3] .

وخير ما نقف به على روعة الخيال وتأثيره هو المجاز إذ إن النقاد قرروا أن المجاز أبلغ من الحقيقة أى أن العبارة ذات المجاز أفضل من العبارة نفسها

---

١)- النقد الأدبي – أحمد أمين ص ٣٤ .
٢)- السابق ص ٤١ .
٣)- النقد الأدبي الحديث – محمد غنيمي هلال ص ٤١٩ .

إذا التزمت طريق الحقيقة (والخيال الذى درسه العرب محصور فى أربعة أبواب : التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل) [١].

وسنحاول تطبيق ما شاع من هذه الأبواب على شعر العروبة عند أبى تمام.

التشبيه

التشبيه طريق من طرق البيان يلجأ إليه الأديب أو الشاعر أو اللغوى توضيحا لأفكاره ، وتجسيما للمعنوى في صورة المحسوس المشاهد ، ونقلاً من الغامض الخفى إلى الظاهر الجلى و (التشبيه علاقة موازنة تجمع بين طرفين لاتحادهما أو اشتراكهما فى حالة أو صفة أو مجموعة من الحالات أو الصفات وسواء أكانت تلك المشابهة بين الطرفين تقوم على أساس من الحس أو العقل فإن العلاقة التى تربط بينهما علاقة موازنة وليست علاقة اتحاد أو تفاعل بحيث يصبح هذا الطرف ذاك الآخر – كما في الاستعارة) [٢].

والحق أن واقع العرب بداوة وحضرا جاهلية وإسلاما يقرر أنهم كانوا أكثر خلق الله ابتكارا للتشبيهات (فلو قال قائل إنه أكثر كلامهم لم يبعد ذلك لأنه (باب لا آخر له) فالشعر يختار ويحفظ للإصابة فى التشبيه والبلاغة تعرف به وما أكثر ما قالوا : أحسن أهل الجاهلية تشبيها امرؤ القيس وأحسن أهل الإسلام تشبيها ذو الرمة)[٣].

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن التشبيه كان ميدان أبى تمام الفسيح – بعد الاستعارة – الذى اتخذه مركبا ليظهر سمات الشاعرية عنده بذكاء وفهم ، بيد أنه لم يكن ليسلك في ذلك الطرق السهلة المكررة في كلام الشعراء بل تفرد بصورة

---

١)- النقد الأدبي / محمد طاهر درويش ص ٢٢٩ .
٢)- الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمام / عبد الفتاح لاشين ص ٩٦ ط دار المعارف .
٣)- أبو تمام / عبده بدوي ص ١٨٨ .

تشبيهية خصبة المعانى متعددة الروافد والموارد وليست بسيطة ساذجة مكتملة الأركان بل أكسبها ضرباً من الروعة الفنية .

وليس من شك في أن هذه مقدرة ممتازة تلك التى استطاع بها أبو تمام أن يجعل بل ويحول قيثارته ريشة يرسم بها صورا يعبر بها عن مكنون نفسه ، ويزين بها شعره ويجمله ، وإذا أخذنا نبحث فى شعر العروبة عنده من صور التشبيه – على سبيل المثال لا الحصر – وجدناه يميل إلى التشبيه البليغ كما يسميه البلاغيون (المحذوف الوجه والأداة) بل والتشبيه المضمر (الضمنى) من مثل قوله :

أدار البؤس حسنك التصابى	إلى فصرت جنات النعيم

وقوله في مدح عمر بن عبد الكريم الطائى :

وسائل عن أبى حفص فقلت له	أمسك عنانك عنه أنه القدر
هو الهمام هو الصاب المريح هو الـ	حتف الوحى هوالصمصامة الذكر

نرى خمس تشبيهات رائعة في بيت واحد وجزء الأخر لم يفقد بعضها بعضا جماله ورونقه خاصة وأنه قد حذف الأداة والوجه في جميعها وفي هذا ما يشعر بدعوى الاتحاد بين الطرفين فشبه عمر بالقدر وبالهمام وبالصاب الذى أخرج سنبله ليجعله غاية في المرارة وبالحتف وبالصمصامة [1] .

وفي كل تشبيه يذكر المشبه (الضمير هو) وكان يكفيه حرف العطف بعد أن يذكره مرة واحدة أولا لأن العطف على نية التكرار والمحذوف لعلة كالثابت ، ولكنه آثر تكرار الضمير ليشعر أن الممدوح تفرد بهذه الصفات دون غيره .

---

١)- الصمصامة: اسم سيف لعمرو بن معد يكرب الزبيدي الفارس المشهور صاحب الغارات والوقائع في الجاهلية والإسلام . وحكي أن عمر بن الخطاب قال لعمرو ابعث لي الصمصامة . فبعث إليه به ، فلم يره كما بلغه ، فقال له في ذلك ، فقال : إني بعثت إليك الصمصامة ولم أبعث لك باليد التي تضرب به. هبة الأيام / ليوسف البديعي . بشرح محمود مصطفي ص ٢٣ .

ولما كانت الشجاعة من أجل الصفات التى يمدح من أجلها العربى نراه يمدح عياشا ويقول :

همام كنصل السيـف كيف هزرتـه وجـدت المنايا منه في كل مضرب

فيشبه عياشا بأنه كنصل السيف الذى لا يكل عن الضريبة بل ويجعله ليثا من فيقول :

ليث ترى كل يـوم تحـت كلكلـه ليثاً من الإنس جهم الوجه مفروسا

وفي مدحه للخليفة المأمون أثبتت تلك الصفات له – وكيف لا ؟ وهو الذى رفض مهادنة الرومان وتقدم بجيشه يزلزل الأرض وأخذ يوقع الهزائم بهم الواحدة تلو الأخرى ومن المبالغة فى السير فقد اسودت وجوه فرسانه فأصبحوا وكانهم من أولاد السودان فيقول :

سفع الدءوب وجـوههم فكـأنهم وأبـوهم سـام وأبـوهم حـام

أرأيت هذا البياض الأسود ؟ ، إن حقائق الأشياء تتغير في شعر أبى تمام فالأبيض قد تحول إلى أسود ولا أقول أسودا مشوها بل أسود مزين حقا إن أبا تمام كان أستاذا ماهرا في فن مزج الألوان فقد مزج البيان في البديع ثم يقول فيهم :

مسترسلين إلى الحتـوف كأنمـا بين الحتوف وبيـنهم أرحـام

فيشبههم وهم يلقون بأنفسهم في أحضان الموت كهيئة من عاد من من سفر يستحثه الشوق إلى ذى رحمه فيرتمى في أحضانه لا من ضعف ألم بهم وإنما هم :

آساد موت مخـدرات مـا لهـا إلا الصـوارم والقنـا آجـام

ومن الملاحظ فى غالبية تشبيهات أبى تمام عدم استعماله للأداة – كما سبق – وإن استعملها كانت (كأن) ومن المعلوم أن (كأن) أقوى وأبلغ في الدلالة على الحاق المشبه بالمشبه به من غيرها أسمع إليه يقول في مدح خالد الشيبانى :

ولما رأى توفيل راياتك التي إذا ما اتلأبت لا يقاومها الصلب

تولى ولم يأل الردى فى اتباعه كأن الردى فى قصده هائم صب

كأن بلاد الروم عمت بصيحة فضمت حشاها أورغا وسطها السقب

إن الإنسان حين يسمع هذه الأبيات وما فيها من تشبيهات توحي بالحركة في اقتفاء الموت لأثر (تيوفيل) الرومي وبالصوت الشديد في صياح ولد الناقة ليخيل إليه أن أبا تمام قد استوعب جميع صور التشخيص والتجسيم والخيال الرائع مع إلحاحه الشديد على الجانب الحسي من الصورة التشبيهية .

اسمع إليه يقول في فريدته في فتح عمورية مخاطبا المعتصم :

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى يشله وسطها صبح من اللهب

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

فيجعل ليل عمورية يتحول إلى ضحى بل إلى صبح تلوح فيه التباشير أو كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها ، أو كان هذه الصورة تشبه يوم يوشع الذى ورد في قصته أن الشمس تأخرت له عن مغربها .

ومن التشبيهات الدقيقة الرائعة قوله في وصف ربع (عمورية) :

ما ربع مية معمورا يطيف به غيلان أبهى ربى من ربعها الخرب

ولا الخدود وقد أدمين من خجل اشهى إلى ناظر من خدها الترب

وشبه ربع (عمورية) على ما به من الخراب وما أصابه في خدوده من خدوش النار وتشويه الدخان بربع (مية) في عين (ذى الرمة) الذى عاش يتعبد جمالها ويتغنى بوصفها ومع أن الحرب والنار والدخان والخراب أشياء كريهة سمجة ؛ إلا أنها – بفضل ذلك التشبيه – تصبح أجمل وأبدع منظر يتمنى الإنسان رؤيته .

وفي رثائه لابن حميد الطوسي يقول :

ونفس تعاف العار حتى كأنه هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

ويجعل العار (الفرار من الميدان) هو الكفر بل لعل الكفر دونه

وفي القصيدة نفسها يقول :

كأن بني نبهان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر

قال أبو بكر الصولى[1] ومن أعجب العجب وأفظع المنكر أن قوما عابوا قول أبى تمام :

كأن بنى نبهان .... البيت

فقالوا : أراد أن يمدحه فهجاه كأن أهله كانوا خاملين بحياته فلما مات أضاءوا بموته وقالوا : كان يجب أن يقول كما قال الخزيمى[2]:

إذا قمر منهم تغور أو خبا بدا قمر فى جانب الأفق يلمع

ولكن الصولى رد عليهم رداً عنيفا واتهمهم بالعصبية على أبى تمام وانحراف حكمهم فقال (ولا أعرف لمن صح عقله ، ونفذ في علم من العلوم خاطره عذرا في مثل هذا القول ولا أعذر من يسمعه فلا يرد عليه اللهم إلا أن يكون يريد عيبه والطعن عليه ولم يعرض من يذهب عليه لعلم الشعر والكلام في معانيه وتميز ألفاظه؟ أتراهم يظنون أن من فسر غريب القصيدة أو أقام إعرابها أحسن أن يختار جيدها ويعرف الوسط والدون منها ويميز بين ألفاظها ؟

والمعنى الذى أراده أبو تمام ليس ما أراده الخزيمى لأن أبا تمام قصد التفضيل في السؤدد والخزيمى أراد التسوية فيه وأبو تمام يقول : مات سيد وقام سيد دونه ثم ختم حديثه بقوله (وفي ذلك كفاية لمن خلع ثوب العصبية وأنصف من نفسه ونظر بعين عقله وتأمل ما قلت بفكره) .

---

١)- أخبار أبي تمام / ١٢٦ .

٢)- أبو يعقوب : اسحاق بن حسان المعروف بالخزيمي ، من شعراء الدولة العباسية (تاريخ بغداد ٦ / ١٣٢٦).

والصولى في رده على عائبى أبى تمام قد أنصفه وأنصف الحقيقة معه ، فالبيت وفيّ المعنى المراد من تفضيل المتوفى عن بقية قبيلته وأهله في السؤدد والمجد فقد أراد أبو تمام تفضيله عليهم وإن كانوا أفاضل وليس ضياء البدر يذهب بالكواكب جملة ولكن المستضيئ به أبصر من المستضيئ بالكواكب فإذا فقد البدر استضاء بها وهى دونه ، وكأن أبا تمام قال : إن ذهب البدر منهم فقد بقيت فيهم الكواكب .

والتشبيه في فخره لا يقل روعة عنه في سابقه اسمع إليه وهو يفتخر بقومه :

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم ... وسمى فيهم وهو كهل ويافع

وبعد هذا البيت بيتين يقول :

نجوم طوالع جبال فوارع ... غيوث هوامع سيول دوافع

ويأتى بتشبيهات جميلة زاد من جمالها مزجها بألوان البديع كالسجع وحسن التقسيم وكأن الأفكار تدور في وعاء التصوير (التشبيه) البيانى ثم يغمس في أصباغ البديع فيعطى مزيجا جميلاً تسكن إليه النفس .

ثم يواصل ذلك ويقول :

مضوا وكأن المكرمات لديهم ... لكثرة ما أوصوا بهن شرائع

أرايت كيف جعل المكرمة خلقا لأهله شريعة ومنهاجا تتبع لمن بعدهم ؟ وعلى هذه الشاكلة تسير تشبيهات أبى تمام.

الاستعارة

وهى لون من ألوان المجاز احتاج إليه كلام العرب لوفرة ألفاظهم على معانيهم وهى قائمة على التوسع في مدلولات الألفاظ متى كان هناك مشاكلة

ومشابهة بين المستعار منه والمستعار له ومتى كان هناك كما يقول الإمام عبد القاهر : (اعتماد على الأفهام لا الأسماع والآذان)[١] .

(ومن المعروف أن الاستعارة ليست زخرفة للعمل الشعرى أو نقشاً عليه ذلك لأنها لحمه ودمه ، وحاملته إلى الآفاق البعيدة والأغوار العميقة وهى في الوقت نفسه تنظم العمل الشعرى وتحدث نوعاً من التزاوج والتفاعل – في حالات التوافق والتضاد – بين المشبه والمشبه به بحيث يكون من المستطاع إدراك علاقة عامة تكمن تحت الظواهر وتنتظمها جميعاً)[٢] .

وقد جعل النقاد ميزان الاستعارة هو ميزان القدماء لها فما تعارفوا عليه وألفوه وما ورثناه عنهم – هو المقياس الصحيح والميزان المقبول وتوصف الاستعارة بالجودة وتوسم بالقبح بقدر قربها أو بعدها من هذا المعيار[٣] .

(وفي ضوء هذا قامت ثورات على أبى تمام وذلك لأنه كان ينساب على كل ميادين الاستعارة ويقف طويلا عند الذى يستصعبه القراء والنقاد فلقد كان يستعمل منها "الكثيف" وهو استعارة الأسماء للأسماء واستعمل منها "اللطيف" وهو استعارة الأفعال للأسماء)[٤].

وقد بلغ أبو تمام فى استعاراته الغاية فقد خرج على الناس بنوع جديد من الشعر أخرجه من عقله لا من قلبه ، فقد كان يغوص على المعانى ويعمل فيها خياله البعيد فتم له نوع من الشعر لم يسبق إليه .

---

١)- أسرار البلاغة ص٤٤

٢)- أبو تمام د/ عبده بدوي ص ١٩٤ .

٣)- اشترط النقاد لجمال الاستعارة اموراً فيها – القرب ، الرفعة ، الخصوصية ، الطرافة ، تجاهل التشبيه. فالقرب يكون بالوضوح والبعد عن الخطأ والإحالة والرفعة : البعد عن العامية والابتذال – والطرافة هي الجدة – وتجاهل التشبيه بترك ما يشير إليه في اللفظ.

٤)- أبو تمام / عبده بدوي ص ١٩٥ بتصرف .

خلاصة القول :

أن حسن الاستعارة يكون بمقدار ما بين المشبه والمشبه به من التقارب والتماثل وتصور الجمع بينهما فى الذهن ليصور المشبه فى صورة تحقق غرض القائل ولذلك كان الأدب المسمى بالرمزى بعيداً عن البلاغة لأن الألفاظ فيه تستعمل كثيراً فى معان يصعب إدراك الصلة بينهما وبين المعانى الأولى لهذه الألفاظ، وعلى ضوء هذه الموازين وعلى هدى من تلك المقاييس نناقش بعض استعارات أبى تمام مثل قوله :

هل أورق المجد إلا فى بنـى أدد ... أو اجتنـى لـولا طـئ ثمـر

وليس من شك في أن هذا تشخيص رائع فهو يتصور المجد شجرة تخرج الأوراق والثمار ويقول :

يا دار دار عليك إرهـام النـدى ... واهتز روضك فى الندى فترأدا

وكسيت من خلع الحيا مستأسـدا ... أنفا يغـادر وحشـه مستأسـدا

وواضح أنه يمثل الدار امرأة تتمايل في خلع الربيع وكأنها عروس تتثنى في حليها وتتكسر في زينتها، وقد ذهب أبو تمام يعمم هذا التشخيص في جميع صوره وأفكاره ولم يقف به عند هذا الجانب من شعر الطبيعة بل نشره في جميع جوانب شعره(١).

اسمع إليه يقول في مدح أحمد بن عبدالكريم الطائى :

شق الربيـع مضـايق الحجـب ... وبـدا بوشـى شـقائق قشـب

ولما بكت مقـل السـحاب حيـا ... ضحكت حواشى خـده التـرب

والبيت الأخير طريف جد الطرافة إذ جعل الشاعر للسحاب مقل تبكى وجعل له خدودا تضحك وليس من شك في روعة هذا التشخيص بيد أننا لا بد أن

---

١)- الفن ومذاهبه ص ٢٣٥ .

نعلم (أن هذا الصنيع كان محور حملة شديدة عليه حملها النقاد والمحافظون من أمثال الآمدى وقد فتح فصلا في كتاب " الموازنة " استعرض فيه طائفة من أبيات هذا الصبغ وصفها بالقبح غير أن القبح عند الآمدى لا يعنى قبح الصورة إنما يعنى – كما يقول – خروج أبى تمام على تقاليد العرب في استخدام الاستعارة إذ هم يستخدمونها فيما يقارب المشبه ويدانيه أو يشبهه في بعض أحواله أو يكون سبباً من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشئ الذى استعيرت له وملائمة لمعناه ، ولعل التبريزى كان أكثر دقة من الآمدى حين قال : إن أبا تمام له مذهب خاص في الاستعارة وما دامت المسألة مسألة مذهب فقد كان يحسن بالآمدى وأمثاله من النقاد المحافظين أن يخضعوا لهذا المذهب الجديد وأن يعرفوا أن هذا نوع آخر في الاستعارة ليس هو الاستعارة المألوفة .

وهنا سؤال يطرح نفسه ألا وهو :

هل ينبغى على الشاعر دائما أن يقف عند حدود الذوق القديم ؟ وهل ليس من حقه أن يتزعم مذهبا لبدع جديد ؟ ! وما أجمل تعليق الدكتور / ضيف على ذلك حين قال : (ومهما يكن فقد كان أبو تمام يحاول أن يبتكر في الصور وأن يغرب فيها ، وما فائدة الرقى العقلى الحديث الذى أصابه الشاعر العباسى في القرن الثالث إن لم يستوعب في شعره مثل هذه الصورة الجديدة ؟)[1].

وهل لشاعر يلعب العمق والخفاء في شعره وتلعب الفلسفة والثقافة في فنه أن يعبر تعبيراً مألوفا ؟!

ولا يزال أبو تمام يفتن بهذا الخيال الرائع الذى تنتقل في مباهجه فيصور "تيوفيل" وقد فر من وجه أبى سعيد الثغرى فيقول :

---

١)- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٣٩ .

فمر ولو يجارى الـريح خيلـت لديه الريح ترسف فـى القيـود

فيعقد بذلك مقارنة بين سرعة تيوفيل ممعنا في الهرب ، وسرعة الريح فتظهر الريح كأنها ترسف في القيود .

ويقول :

وقد كانت الأرماح أبصرت قلبه فأرمدها ستر القضـاء الممـدد

فجعل الرماح تبصر ، ورشح ذلك بذكر الرمد في البيت فما أجمل هذا التشخيص الذى استخدمه الشاعر في هذا البيت ومن قبله التجسيم في البيت السابق ، ويتجلى ذلك في قوله – والبيت في قصيدته في فتح عمورية ".

من عهد إسكندر أو قبـل ذلـك قـد شابت نواصى الليالى وهى لم تشـب

فجعل لليالى نواصى وجعل النواصى تشيب امتدادا للصورة ، وعلى هذه الشاكلة شاعت الاستعارات في شعر أبى تمام الذى استطاع عقله أن يحيلها ويطوعها وفق مراده ويمزحها بالتصوير حتى لتحس أنه يرسم صورة قلمية – لا تقل في دلالتها وايحائها عن تلك الصور الزيتية – لإيصال ما أراد لقارئه وسامعه .

اسمع إليه يقول :

كم بين حيطانها من فارس بطل قانى الذوائب من آنى دم سرب

بسنة السيف والحناء مـن دمـه لا سنة الدين والإسلام مختضب

لقد تركت أمير المـؤمنين بهـا للناريوما ذليل الصخر والخشب

يقول الدكتور / ضيف : (وإذا مضينا في القطعة وجدناه يعنى بالتدبيج إذ يقف عند الدم السرب وحينئذ يعمد إلى المقابلة فهذا الخضاب على الرؤوس ليس خضاب سنة وإنما هو خضاب سيوف وأنت ترى في ذكر السنة هنا شيئاً من العناصر الإسلامية ثم يتحدث عن اليوم الذى حرقت فيه عمورية فيصفه بأنه يوم ذليل الصخر والخشب وهى ذلة غريبة فكيف يذل الصخر والخشب ؟

ولكنه عنصر عربي يستغله في التعبير عما أصابها من ذلة وهو إذ يرى العرب يقولون فلان اذل من الوتد)[1] **ويضيف قائلاً:**

(أرايت كيف يمكن استغلال العناصر البدوية القديمة في الرمز والتعبير عن الأفكار الحديثة ؟ لقد كان أبو تمام زعيم المجددين في عصره ولكنه لم يكن يعتمد في تجديده على رفض العناصر القديمة بل كان يستعين بها في فنه كما كان يستعين بكل ما يمكن من العناصر الحديثة فلسفة وغير فلسفة)[2].

وفي قصائد أبى تمام ترد الأخيلة البارعة جنبا إلى جنب مع المحاسن البديعية في نسيج متين لا خلل فيه كاللحمة وسداها أو كالقلائد يصوغها الصائغ الحذق وذلك **مثل قوله :**

وسائل عن أبى حفص فقلت لــه	امسك عنانك عنه إنــه القــدر
هو الهمام هو الصاب المريح هو الــ	حتف الوحى هو الصمصامة الـذكر
فتى تراه فتنفى العســر غرتــه	يمنا وينبع من أسرارها اليســر

فنراه بعدما شبه عمر بن عبدالعزيز الطائى بالقدر وبالهمام والصاب وبالموت السريع وبالسيف الصارم يأتى بضرب من التجنيس ظريف فيقول " فتى تراه " فنون " فتى " وهو بذلك يكون مشابها لصدر قوله " فتنفى " وهو من تجنيس التركيب لأنه ركب الفاء مع التاء والنون من " تنفى " فصار فى لفظ قولك " فتى " إذا نونت وفى مدحه بنى عبد الكريم الطائيين نراه يكرر بعض الألفاظ قاصداً بذلك لونا من ألوان بديعه وهو ما يسمى رد الأعجاز على الصدور كما أطلق عليه القدماء **وذلك على شاكلة قوله :**

أدار البؤس حســنك التصــابى	إلى فصــرت جنــات النعــيم

---

[1])- الفن ومذاهبه ص ٢٦٠ .

[2])- السابق ص ٢٦٢ .

لئن أصبحت ميدان السوافى لقد أصبحت ميدان الهموم

وقوله :

يكاد نداه يتركه عديما إذا هطلت يداه على عديم

وهذا اللون من البديع يشيع فى شعر العروبة عنده مدحاً ورثاء وفخرا وذلك مثل قوله :

غريم للملم به وحاشى نداه من مماطلة الغريم

سفيه الرمح جاهله إذا ما بدا فضل السفيه على الحليم

وقوله :

نعم الفتى عمر فى كل نائبة نابت وقلت له " نعم الفتىعمر "

وقوله :

من كان أحمد مرتعا أو ذمه فالله أحمد ثم أحمد أحمدا

أضحى عدوا للصديق إذا غدا فى الحمد يعذله صديقا للعدا

وقوله :

سافر بطرفك فى أقصى مكارمنا إن لم يكن لك فى تأسيسها سفر

وهكذا يكثر التكرار في شعره ولكنه ليس من قبيل الهذيان باللفظ الواحد إطالة للقول ، ولا سترا لخلة العجز حين يفتقر القائل الى الفكرة بل تجميل منه لأسلوبه بالمحسنات البديعية معنوية كانت أو لفظية موسيقية .

(ونحس كأن الشعر أصبح تنميقا وزخرفا خالصا فكل بيت في القصيدة إنما هو وحدة من وحدات هذا التنميق والزخرف وهو ليس زخرفا لفظيا فحسب بل هو زخرف لفظى ومعنوى يروعنا فيه ظاهره وباطنه وما يودعه من خفيات المعانى وبراعات اللفظ)(١).

---

١)- الفن ومذاهبه في الشعر – شوقي ضيف ص٢٢٣ .

يقول ابن المعتز عن أشعار أبى تمام: (إن له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة وأكثر ما له جيد ، والردئ الذى له إنما هو شئ يستغلق لفظه فقط ، فأما أن يكون في شعره شئ يخلو من المعانى اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا ، وقد أنصف البحترى لما سئل عنه وعن نفسه فقال : جيده خير من جيدى وردیئى خير من رديئه وذلك لأن البحترى لا يكاد يغلظ لفظه ، إنما ألفاظه كالعسل حلاوة فأما أن يشق غبار الطائى في الحذق بالمعانى والمحاسن فهيهات بل يغرق في بحره)(١)

الطباق

ليس بخاف أن المطابقة هى الجمع بين المعنيين المتقابلين أى أن يؤتى بالكلمة ثم بما يقابلها في المعنى فيشتد رسوخها فى النفس ، ولا تكون المطابقة فنية مستحسنة إلا إذا كانت تقتضيها الفكرة ولا تجلب لمجرد الصنعة .

ولما كان الضد يظهر حسن ضده كان جمال الطباق نابعاً من عرض المتضادات في نسق مؤلف يثير الانتباه إلى الفكرة ، ولكل مطابقة جمال خاص بما تضفيه على الكلام من دلالات ومشاعر ، وأبو تمام كان رأس مدرسة خرجت منتصرة وسار على منوالها العديد من الشعراء وأنها كانت متناغمة مع طبيعة العصر الذى عاش فيه فالقارىء لشعره لابد أن يشحذ عقله ووجدانه ولابد أن يوطن نفسه على أنه سيجد ما يصدمه وما لم يرد عليه من قبل ، وما يصيبه بالدوار في بعض الأحيان فهو رجل يستغرق فى صناعته إلى الحد الذى تختفى فيه ملامح هذه الصنعة .

(ويجب ألا يغيب عنا أن مذهبه في الشعر كان معينا للشراح والنساخ والمنشدين على تحريفه وتصحيفه فقد جاء بالبعيد من المعانى والغريب من الاستعارات

---

١)- طبقات الشعراء ص ٢٨٦ .

بالإضافة إلى الألوان المتعددة من البديع وفى مقدمتها الطباق والجناس وكل هذا مما تعثرت به الأفهام وتلعثمت به الأقلام وكثر من أجله التأويل)[1].

(يلقى الطباق ضوءاً باهراً على شاعرية أبى تمام فلقد وجد فيه تلك الإداة الطيعة التى تقدم الكثير للتجربة الشعرية وقد ساعده على هذا أن الفلسفة في عصره قد أخذت بفكر "المضادة " التى تتقاسم النفس مبتعدة عن رأى أرسطو)[2].

ومن أمثلة الطباق في شعر العروبة عند أبى تمام قوله في مدح ابن عمرو بن عبد الكريم :

سفيه الرمح جاهله إذا ما   بدا فضل السفيه على الحليم

فإننا نرى طباقا بين السفيه والحليم فالسفيه هو الطائش اللب الخفيف العقل والحليم نقيضه وقوله :

فروع لا ترف عليك إلا   شهدت لها على طيب الأروم

ويطابق بين قوله " فروع ، أروم " والأروم هى الأصل أوالجرثومة وقوله في مدح أحمد بن عبد الكريم :

أضحى عدوا للصديق إذا غدا   فى الحمد يعذله صديقا للعدا

ويطابق فيه بين العداوة والصداقة و لم يكن أبو تمام يستخدم الطباق استخداما ساذجا بسيطا بل كان يستخدمه استخداما معقدا إذ يلونه بأصباغ فلسفية قاتمة ما تزال تغيرفى إطاره بل فى داخله تغيرات تنفذ به إلى لون جديد مخالف للطباق ، فإذا هو من طراز فلسفى إن صح هذا التعبير، ففيه تناقض وفيه تضاد وفيه هذه الصور الغريبة وكان أبو تمام يستخدمه قاصداً إليه عامداً)[3].

---

١)- أبو تمام وقضية التجديد في الشعر / عبده بدوي ص١٨١ .
٢)- السابق ص٢٠٢ والنفس عند أرسطو صورة للجسم كأي كائن طبيعي توجد مع البدن وتفني بفنائه.
٣)- الفن ومذاهبه في الشعر العربي / شوقي ضيف ص ٢٥٠ .

اسمع إليه يمدح عياش بن لهيعة ويقول :

فقومت لى ما أعوج من قصد همتـــى　　وبيضت لى ما اسود من وجه مطلبى

فنرى طباقاً بين التقويم والاعوجاج أولا ثم طباقا آخر بين البياض والسواد

ويقول أيضاً :

فاضت سحائب من نعمائه فطمـــت　　نعماه بالبؤس حى اجتثت البوســـا

ويطابق بين النعمى والبؤس وسار أبو تمام يورد العديد من صور الطباق في أبياته من مثل قوله في مدح الخليفة المأمون :

فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه　　حسن اليقـــين وقـــاده الإقـــدام

وقوله :

ملأ الملا عصبا فكاد بأن يـــرى　　لا خلـــف فيـــه ولا لـــه قـــدّام

وقوله في مدح خالد الشيباني :

فتى عنده خير الثـــواب وشـــره　　ومن الإباء الملح والكرم العذب

وقوله :

جفا الشرق حتى ظن من كان جاهلا　　بدين النصارى أن قبلته الغرب

ويتصل بالطباق كذلك ما يسميه البلاغيون "السلب والإيجاب " وهو أن تبنى الكلام على نفى الشئ من جهة وإثباته من جهة أخرى كقوله :

وقائع أصل النصر فيها وفرعـــه　　إذا عدد الإحسان أو لـــم يعـــدد

وكما أكثر أبو تمام من استعمال الطباق في مدحه فإنه كذلك لم يقلل من استعماله في رثائه إبرازا لعاطفته الجياشه من حزنه على أبطال العروبة الذين سقطوا شهداء فى ميدانها كأن يقول في رثائه لخالد الشيباني :

كأنا فقـــدنا ألـــف ألـــف مـــدجج　　على ألف ألف مقرب لا مباعد

فيا وحشة الدنيا وكانـــت أنيســـة　　ووحدة من فيها لمصرع واحـــد

وقوله في رثاء محمد بن حميد الطوسى :

وقد كان فوت الموت سهلا فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر

وربما استخدم أبو تمام مع الطباق ما يسمى " التدبيج " وهو أن يذكر في معنى من المدح أو غيره ألوانا بقصد الكناية أو التورية وقد استخدم أبو تمام هذا اللون تعبيراً عن أفكاره البعيدة **على نمط ما يقوله في رثاء ابن حميد الطوسى :**

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى لها الليل إلا وهى من سندس خضر

فقد جنح الشاعر إلى التدبيج يستمد منه مايريد من الرمز عن أفكاره ، ألا تراه يعبر عن قتل ابن حميد بتلك الثياب الحمراء التى غرقت فى أصباغ الدم على سبيل الكناية حتى إذا دجى الليل وأظلم القبر صارت تلك الثياب سندسية خضراء ليكنى بذلك عن رضوان ربه ودخوله الجنة .

* وفخر أبى تمام كذلك لم تخل صفحة من صفحاته إلا وظهرت فيها هذه الأضداد إذ اعتمد على التدبيج أيضا في التعبير عن أحوال الجود في أهله وعشيرته.

اسمع إليه يقول :

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم وسمى فيهم وهو كهل ويافع

كل هذا يظهر – كما يقول عبد العزيز الجرجانى :(إن للمطابقة شعبا خفية وأنه ربما التبست بها أشياء لا تتميز إلا للنظر الثاقب والذهن اللطيف)[1].

وقد يكون الطباق عند أبى تمام بسيطا غير مكثف كقوله :

تصدت وحبل البين مستحصد شزر وقد سهل التوديع ما وعر الهجر

وكقوله :

لنا جوهر لو خالط الأرض أصبحت وبطنانها من ظهرانها تبر

وقوله :

مقاماتنا وقف على الحلم والحجى فأمردنا كهل وأشيبنا حبر

---

١)- الوساطة ص ٢٤ .

وقوله :

ليـــنجح بجـــود مـــن أراد فإنـــه عوان لهذا الناس وهو لنا بكر [1]

وأخيرا فإن فكرة التضاد عند أبى تمام تقوم على ناحية جمالية أساسها التعادل في العبارة والتوازن بين جميع أجزاء الجملة .

---

١)- العوان: من البقر وغيرها : النصف في سنها ، وقيل العوان من البقر والخيل التي نتجت بعد بطنها البكر – لسان العرب ج ٤ ص ٣١٧٩ ط دار المعارف.

المبحث الثالث
الموسيقى الشعرية

الموسيقى الشعرية:-

عنصر الموسيقى من أهم المقاييس في ميدان النقد والتقويم ؛ وما ذلك إلا لأن العمل الفنى مزيج من اللفظ والعبارة والصورة الشعرية ولكل من هذه الاشياء دوره فى تكوين ذلك النسيج المتداخل المكون للعمل الفنى ، وإلى تلك العناصر جميعا يضاف عنصرالموسيقى لكى يكتمل البناء الفنى ومن خلاله نستطيع معرفة مدى قدرة الشاعر على الملائمة بين عواطفه وموضوعه ، حيث إن هناك من يضرب على وتيرة واحدة ويلبس جميع الموضوعات لبوسا واحدا ويوقعها على نبرة واحدة ، وهناك من يعدد هذه الأنغام بحسب ما يجيش بها خاطره دون تفكير فى نمط معين ، والموسيقى عنصر حيوى من عناصر الصياغة الشعرية ، له أثره البالغ فى التأثير النفسى ، إذ أن الشعر " موسيقى ذات افكار " وليست الموسيقى مجرد قالب خارجى تصب فيه التجربة ، بل هى أثر من اثار العاطفة ، لانها تدرك بالاحساس ، وهى أيضاً من اقوى وسائل التأثير فى الشعر ولا يخلو الشعر أيا كان نوعه من هذه الموسيقى ؛ ظاهرة كانت أو خفية ؟

فالظاهرة : ما يرجع إلى الوزن والقافية ، وأنواع من البديع كالجناس وكل ما له جرس صوتى تحسه الآذان كحسن التقسيم والتصريع .

والخفية الداخلية : هى التى تشيع فى كل القصيدة ، ولا يتحدد موضعها ، وهى التى تمثل – بحق – روح الشاعر وبراعته وتنبع من اختيار الشاعر لألفاظ ذات وقع خاص ، وحسن تنسيقها وترابط الأفكار وروعة التصوير ، وقد فطن العرب القدامى إلى تلك الموسيقى التى تظهر في تجانس الحروف

وملائمة الكلمات لبعضها داخل القصيدة ولهذا وضعوا لها ضوابط في الشعر والنثر وضبطوا من القصيدة عروضها وقوافيها في علمين مستقلين .

يقول الدكتور / شوقى ضيف :(على أن موسيقا الشعر لم يضبط منها إلا ظاهرها ، وهو ما تضبطه قواعد علمى العروض والقافية ووراء هذه الموسيقى الظاهرة ، موسيقى خفية تنبع من اختيار الشاعر لكلماته ، وما بينها من تلاؤم فى الحروف والحركات ، وكأن للشاعر أذناً داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة وكل حرف وحركة بوضوح تام وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء)[1].

إذن فالموسيقى الظاهرة وكذلك الخفية صنوان لا يفترقان في إحداث التأثير النفسى لدى المتلقى ، وأبو تمام من الشعراء البارزين الذين وضحت في شعرهم موسيقى اللفظ والعبارة والبيت بالإضافة إلى الوزن والقافية **يقول الدكتور / عبده بدوى** (والثابت أن موسيقى أبى تمام كانت ريانة ومسترسلة حين يطلق لوجدانه العنان ولكن حين يتحكم فيها العقل نحس بنوع من الخفوت والرتوب الموسيقى ، وبخاصة حين ينساق الشاعر – كالمغيب – وراء محفوظه الكثير من التراث[2] وفيما يلى بيان لمسببات الموسيقى في شعر العروبة عند أبى تمام .

الوزن

منذ وجد الشعر وجدت معه الأوزان فالشاعر لا ينطق بكلامه في لغة عادية وإنما ينطقه موزونا[3] وللوزن قيمة كبرى في الشعر ، حتى عد أهم فارق بينه وبين النثر ، حيث عرف النقاد القدامى الشعر بأنه " الكلام الموزون المقفى " فحددوا بذلك عناصر أساسية فى كيان الشعر منها " الوزن " وهو قالب موسيقى راقص ،

١)- في النقد الأدبي ص ٩٧ ط دار المعارف.
٢)- أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ص ١٥٢ .
٣)- في النقد الأدبي/ شوقي ضيف ص ٩٩ ط دار المعارف.

عبارة عن وحدات صوتية خاصة والبحث في أوزان الشعر من حيث أصولها وقواعدها لا يعنينا هنا بقدر ما يعنينا تناول الوزن باعتباره ظاهرة موسيقية من ألزم العناصر للغة الشعر وأسلوبه ، ومن أدق مقاييسه النقدية [١] .

أما عن الموسيقى الشعرية عند أبى تمام فإننا نلاحظ أنه استخدم البحور الطويلة بكثرة – بحيث تتضاءل أمامها نسبة البحور القصيرة ، ومن البحور الطويلة التى استخدمها أبو تمام .

١- بحر الكامل[٢] ومنه قوله في مدح أحمد بن عبد الكريم :

يا دار دار عليك إرهـــام النـــدى   واهتز روضك فى الثرى فترأدا

٢- بحر البسيط[٣] ومنه قوله في مدح عمر بن عبد العزيز الطائى :

يا هذه أقصرى مـــا هـــذه بشـــر   ولا الخرائد من أترابها الأخـــر

٣- الوافر[٤] ومنه قوله في مدح بنى عبد الكريم الطائى :

أرامة كنـــت مـــألف كـــل ريـــم   لو اســـتمتعت بـــالإنس القـــديم

٤- الطويل[٥] ومنه قوله في الفخر بقومه :

تصدت وحبل البين مستحصد شزر   وقد سهل التوديع ما وعر الهجـــر

٥- الخفيف[٦] ومنه قوله في مدح أبى سعيد الثغرى :

من ســـجايا الطلـــول ألا تجيبـــا   فصوب من مقلـــة أن تصـــوبا

---

١)- أصول النقد الأدبي / أحمد الشايب ص ٣١٨ بتصرف ط النهضة المصرية الحديثة.
٢)- من البحور ذوات التفعيلة الواحدة المكررة، وأجزاؤه هي متفاعلن ست مرات في كل شطر ثلاث.
٣)- من البحور ذوات التفعيلتين المكررتين وأجزاؤه هي مستفعلن فاعلن – مستفعلن فاعلن – مرتين.
٤)- من البحور ذوات التفعيلة الواحدة المكررة وأجزاؤه هي مفاعلتن ست مرات في كل شطر ثلاث.
٥)- من البحور ذوات التفعيلتين المكررتين وأجزاؤه هي فعولن – مفاعيلن – فعولن – مفاعيلن مرتين.
٦)- من البحور ذوات التفعيلات المختلفة ، وأجزاؤه هي فاعلاتن مستفع لن – فاعلاتن – مرتين.

٦- المتقارب[١] ومنه قوله في رثاء خالد الشيباني:

نعـــاء إلـــى كـــل حـــى نعـــاء فتى العرب احتل ربـــع الفنـــاء

ومن البحور القصيرة التى استخدمها - بحر الرجز المشطور[٢] وذلك حين افتخر على رجل من تميم قائلا :

لما رأيت الأمر أمرا جدا

ولم أجد من القيـــام بـــدا

من هذا نعلم أن أبا تمام كان فى أوزانه محافظا على ما اثر عن العرب مستخدماً للبحور الطويلة حين يتطلب المقام الإطالة مدحا وفخرا ورثاء ومستخدما للبحور القصيرة حين يتطلب المقام الإيجار والقصر.

القافية

وهى العنصر الثانى من العناصر التى تشكل إيقاع الشعر العربى بعد الوزن وهى عبارة عن اتفاق المقطوعة أو القصيدة في الحرف الأخير وفي صورته " أى الحركة التى تشغله من ضم أو فتح أو كسر أو سكون (ولم تعرف لغة من اللغات القديمة كل هذا النظام الدقيق للشعر وإيقاعاته واختتام هذه الإيقاعات بالقوافى . ولعل ذلك كان أهم سبب في أن الشعر العربى ظفر بكل شعر لقيه بعد الفتوح الإسلامية)[٣] والقافية من لوازم الشعر العربى وجزء من موسيقاه بها تتم وحدة القصيدة وتتحقق الملاءمة بين أواخر أبياتها ، وقد درج الشعر غالبا على وحدة الوزن والقافية فى كل قصيدة حتى عصرنا الحديث .

١)- من البحور ذوات التفعيلة الواحدة المكررة وأجزاؤه هي فعولن – فعولن – ثماني مرات في كل شطر أربع.
٢)- من البحور ذوات التفعيلة الواحدة المكررة وأجزاؤه هي مستفعلن ثلاث مرات.
٣)- في النقد الأدبي – ص ١٠٢ .

(وكأن الشعراء أحسوا في عمق أن هذا النظام أرفع ما يصل إليه الشاعر في تعبيره الموسيقى الذى يؤثر به في العقول والقلوب والافئدة فالألحان تنفرج وتبتعد لتتلاقى في نسق صوتى يأخذ بعضه بتلابيب بعض ، نسق ينتهى دائما بقافية واحدة)(١).

ومن حيث القافية عند أبى تمام – نلحظ أن أبا تمام لم يتخلص من القافية نهائيا إذ أنها تمثل عنده بعداً موسيقيا أثيرا ، وقد كان أبو تمام في حفاظه على القافية ينّوع ما بين حروف الروى التى تبنى عليها القصائد ليخلق بذلك جوا من الألفة بين موضوع القصيدة وبين الحرف الذى تختم به الأبيات وجوا من الألفة بينه وبين المتلقى .

موسيقا العبارة والبيت

قد تتسبب العبارات فى إحداث موسيقا فى القصيدة ، هذه الموسيقى تنبع من فقرة معينة أو جملة خاصة أو شطرة أو ربما البيت كاملا .

ولاشك أن للالفاظ داخل العبارة أثرا واضحا فى إحداث الموسيقى بل إن حركات الألفاظ لها دورها الكبير فى تلك الموسيقى ألا ترى أثر (التنوين) **في قوله :**

* فتىً تراه فتنفى العسر غرته *

وكيف أحدث التنوين موسيقى بين الأسم (فتى) والفعل (فتنفى) وهو ما **يسمى (الجناس) :**

وقوله :

لكل من بنى حواء عذر ولا عذر لطائى لئيم(٢)

وقوله :

والعيب منتقب وإن لها وجها نقيا غير منتقب

---

١)- السابق ص ١٠٣ .

٢)- لا عذرٌ خطأ – والصحيح لا عذرَ لأن (لا) نافية للجنس عاملة عمل إن الناصبة لتوافر شروطها.

وصـــداقها غـــال ولا عجـــب إذ حسنها عجب مـــن العجـــب

فنرى أن التنوين لعب دورا في تكوين موسيقا الأبيات السابقة في قوله (فتى – عذر – مكررة – منتقب – وجها نقيا – غال – عجب (مكررة) وهذا كثير ما يقع في شعره ، وأيضا فقد يذكر اللفظ في البيت أكثر من مرة سواء على نفس صورته أو في صورة أحد مشتقاته وقد أغرم بذلك كثيرا وولع به حتى لنجده يكرر اللفظ في بيت واحد أكثر من مرة على **شاكلة قوله** :

من كان أحمد مرتعـــا أو ذمـــة فالله أحمد ثـــم أحمـــد أحمـــدا

فيذكر الفعل (أحمد) أكثر من مرة ويجانس بينه وبين اسم الممدوح (أحمد) فمع هذا التوزيع الموسيقى للفظ الناتج من تكراره نجد موسيقا التقديم والتأخير فى قوله (فالله أحمد) وكذلك موسيقى الجناس بين (أحمد – أحمد) ومثل ذلك **نراه في قوله** :

وأنا الفداء إذا الرماح تشـــاجرت لك والرماح من الرماح لك الفدا

ومثل قوله في عقب ذلك البيت :

وسلمت أنـــا لا تـــزال ســـوالما آمالنا بك ما سلمت من الـــردى

فكرر اللفظ فى صورة بعض مشتقاته (سلمت – سوالما) ومثال آخر من التكرار نراه **في مدحه لعياش إذ يقول** :

أخو أزمات بذله بـــذل محســـن إلينا ولكن غدره غـــدر مـــذنب

فتحس في هذا التكرار ضربا من التوزيع الموسيقى للفظ فيه تساو وتقسيم دقيق يفتقده ذلك الضرب السابق من التكرار، ومع موسيقا التكرار نرى موسيقى أخرى ، وهى موسيقى التصريع أو الجناس أو غيرها لقصد إعطاء ذهن المستمع شحنة موسيقية يدرك بها تساويا في النغم بين الشطرين أو بين اللفظتين ويغلب **ذلك في بدايات قصائده من مثل قوله** :

الحق أبلـــج والســـيوف عـــوار فحذار من أسد العـــرين حـــذار

وقوله :

السيف أصدق أنباء من الكتـــب   فى حده الحد بين الجد واللعـــب

ويجانب التصريع بجانس بين الحد والجد ويقدم الجار والمجرور فى حده لافادة القصر ويفصل بين الجملتين لاتحادهما فى الخبرية والأولى منهما مثيرة لسؤال صلحت الثانية أن تجيب عن هذا السؤال وهو ما يسمى عند البلاغيين " شبه كمال الاتصال " ويأتى التصريع في أول القصيدة وفقط بل قد يأتى به في وسط القصيدة تشطيرا للأبيات أو إتماماً لموسيقى التصريع الأول يقول :

يا دار دار عليك إرهـــام النـــدى   واهتز روضك فى الثرى فترأدا

وكسيت من خلع الحيا مستأســـدا   أنفا يغـــادر وحشـــه مستأســـدا

يقول بعض شراح ديوانه وهو " المعرى " (وليس التصريع في غير الأوائل فضيلة وإنما أخذ من مصراعى الباب ، وقال بعض المتكلمين في هذا الفن إنما بدء بالتصريع في أول القصيدة لأن القائل أراد أن يعلم السامع أن كلامه منظوم فجاء بكلمة تدل على أنه مقف)[1].

وفي قصائد أخرى نرى ضروبا وأشكالا لذلك النوع من الصنعة المولدة لموسيقى اللفظ ، يقول في قصيدة يفخر فيها بنفسه وبقومه :

نجـــوم طوالـــع جبـــال فـــوارع   فيوث هوامـــع ســـيول دوافـــع

مضوا وكأن المكرمـــات لـــديهم   لكثرة ما وصوا بهـــن شـــراع

نجد أن الشاعر قد زاوج بين التصريع وحسن التقسيم ومضموما إليهما أربع تشبيهات بليغة غاية في الروعة وكذلك السجع الذى يلعب بالأفهام لما يحدثه من موسيقى مؤثرة تطرب لها الآذان ، وتهش لها النفس فتقبل عليها دونما ملل ، لقد

---

١)- شرح الديوان / ٢ / ٣٢٢ .

أتى الشاعر بالبيت الأول مقسم إلى فقرات متساوية متشاكلة المقاطع متشابهة الأوزان متناسقة النغم ، وهذا كله مؤداه ربط الكلام وتلاحمه .

ثم أتى في البيت الثانى بالتشبيه مضموما إليه القصر الناتج من تقديم ما حقه التأخير ، وكأنى بأبى تمام وقد أراد أن يستظهر مقدرته الأدبية على تلاعبه باللفظ فهو يقدم ويؤخر بين لفظة وأخرى ويقابل كذلك في الموسيقى بين شطر وآخر ، حتى لتكاد تحس تساويا تاما بين الشطرين ، وأبو تمام بذلك داع من دعاة التجديد فى الشعر العربى ، وشعره يحفل بالعديد من الصور الجديدة المبتكرة ، ولذلك نزل شعره كالصاعقة على رؤوس أعدائه الذين يرون شعره مجافيا لطباع الشعر العربى ، وهو بذلك أيضا رائد لمدرسة في الشعر العربى تجمع بين خصائص الشعر القديم وتمزج به الثقافة المكتسبة في العصر الذى حفل بالعديد من الثقافات .

ودائما يقدم أبو تمام صورة له ولشعره – ربما كان ذلك راجعا إلى إحساسه بالتفرد عمن حوله – أو ربما كان لإحساسه بالاغتراب عمن عايشهم ولا يقدرون شعره حق قدره يقول :

فمن شاء فليفخر بما شاء من ندى فليس لحى غيرنا ذلك الفخر

● ملحظ أخر له أثره فى موسيقى الشعر

وهذا الملحظ هو الأثر النابع من الناحية الصوتية عند إنشاد الشعر فمخارج الحروف ووضعها في موضعها الصحيح ، وخاصة في حالات التثنية والجمع واستخدام نون النسوة وحالات أخرى مشابهة ، تجعل الجرس الموسيقى يؤثر في موسيقى القصيدة نفسها .

ولعل هذا ما جعل بعض الشعراء يتخذ لنفسه غلاما ينشد شعره وبخاصة إذا كان صوت الشاعر نفسه ليس معينا على إظهار ما فى شعره من جمال صوتى كأن تكون عنده حبسة أو تمتمة .... الخ.

ومما جاء في وصف أبى تمام كان أبو تمام طويل القامة ، أسمر اللون ، فيه تمتمة يسيرة (فإذا أنشد استوى لسانه ، وكان لفظه لفظ أعراب)[1] .

إذن فالناحية الصوتية لها دور جد مهم في موسيقي الشعر ، يقول العقاد (وهذا الإعراب المفصل في هذه اللغة الشاعرة هو آية السليقة الفنية في التراكيب العربية المفيدة ، توافرت لها جمل مفهومة بعد أن توافرت لها حروف تجمع مخارج النطق الإنسانى على أفصحها وأوفاها وبعد أن توافرت لها مفردات ترتبط فيها المعانى بضوابط الحركات والأوزان .

فليس أوفق للشعر الموزون من العبارات التى تنتظم فيها حركات الإعراب وتتقابل فيها مقاطع العروض وأبواب الأوزان وعلامات الإعراب ، فإن هذه الحركات والعلامات تجرى مجرى الأصوات الموسيقية وتستقر في مواضعها المقدورة على حسب الحركة والسكون في مقاييس النغم والإيقاع ، ولها بعد ذلك مزية تجعلها قابلة للتقديم والتأخير في كل وزن من أوزان البحور)[2] وبهذا نعرف أن القافية لم تقف مفردة في إحداث الموسيقى عند شاعرنا بل نراها وقد انضم إليها أوصاف أخرى شاعت في كل جزء من أجزاء الأبيات .

---

١)- أوراق ملحقة بشرح التبريزي لديوان أبي تمام "دار الكتب تحت رقم " ٥٠ أ د ب ش .
٢)- اللغة الشاعرة /٢١ الناشر مكتبة غريب – القاهرة.



خاتمة بأهم نتائج البحث

الحمد لله نحمده وهو المستحق للحمد والثناء ، ونستعين به في السراء والضراء ونستغفره ونستهديه لما يقربنا إليه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، في جميع حالاتنا ، ونصلى ونسلم على أفضل مبعوث للعالمين وأول مشفع في يوم العرض والحساب سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبع هديه إلى يوم الدين .... وبعد .

فقد كانت عجلة الكتابة في هذه الدراسة " العروبة في شعر أبى تمام " تسير سريعا اقتضت الظروف أن يكون ، وربما كان ذلك بعض الأسباب في أن يكون هناك بعض التقصير أو النقص في تناول الموضوعات ، وإيفائها حقها من البحث والبيان ، وقد كنت مع السرعة التى دفعت إليها ضرورة تلك الظروف أحاول الطى والإجمال ، والإيجاز ، ثم أحاول – مع ذلك – ألا تكون الدراسة على شكل الكتابات المختصرة – أو المذكرات المدرسية ، وإنما تكون دراسة بكل ما تحمله كلمة " دراسة " من عنوان .

والتوفيق – هكذا – بين أمرين كل منهما يتعارض مع الآخر أو يناقضه ، ربما كان من الأمور المتعذرة ، خاصة وأن الحديث في العصر العباسى يعذب رجعه ، ويجمل صداه ، ويحسن الاسترسال فيه ، ويتسع للإفاضة والتكرار والإعادة ، ومن حق موضوع من موضوعاته أن يستبد بجهد كبير من غير أن يعترى هذا الجهد الملل أو يستولى عليه السأم ، أو يصيبه فتور وكسل ، غير أن المنهج الذى ارتبطت به ، والخطة التى ألزمتها ، أن أعطى من الوقت والجهد شيئاً يشبه إلمام الصديق الذى لا يثقل ، والضيف الذى لا يمله المضيف ، والرفيق الذى يشقى به رفيقه .... وبعد.

فإن جودة الشعر وحسنه ، وأخذه بتلابيب النفس وزمام القلب ، متوقف على قوة فاعليته ، وعظيم تأثيره ، ومدى روعته ، وهذه كلها إنما تجئ من بناء سليم ، وجرس طيب ، وموسيقى أخاذة ، ومعنى يهز الخاطر ، ويروى ظمأ الروح ، والخيال من فوق ذلك ، وقد توافرت هذه الأشياء كلها للشعر العربى منذ أن اختلط العرب بغيرهم ، وأضافوا إلى ثقافتهم ثقافات أخرى ، فقد كان الشعر أبرز أنواع المعرفة التى استفادت من اختلاط العرب بغيرهم .

ولما كان التجديد سنة الحياة في كل جيل وقبيل كان أبو تمام من أولئك الشعراء الذى اعترف لهم خصومهم – فضلاً عن مؤيديهم – بالزعامة في عصره ، والتى لم يزاحمه فيها أحد ، والحق ما شهدت به الأعداء .

وأبو تمام – بالغا ما بلغ قدره – مدين للعصر الذى نشأ فيه وللثقافات التى انتشرت في أروقته ، ومن ثم فقد استخلص منها وجدانا مشتركا يرتكز على ثمرة القرائح الإنسانية عامة وقد أفادته قراءاته ، وكثرة محفوظه ، ومعارفه الواسعة المتنوعة على إذكاء خياله الشعرى ، والإضافة إليه ، ومهما يكن من شئ فقد جاء أبو تمام في آونة ، فاستغنى وذاع صيته ، ولو تأخر حتى كان في عصرنا لأكل الفقر أو أكله الفقر ، ولكنه رزق عصره قدَره وقدْره ، وأتاح له أن يغنى وينوح فأشجى القلوب ، وأبكى العيون ، وسر الأصدقاء ، وكبت الحساد ، ولقد ذهبت طئ بالفخرين ، من جود حاتم على الناس ، وشعر أبى تمام ، حتى صح لنا أن نقول : إن جود حاتم على الناس قد استرده أبو تمام من الناس ، بل نيف عليه وزاد ، فلم تخسر طئ ما جادت به من مال ولكنها غنمت الحمدين وربحت الحسنيين من جود البنان وجود البيان .

والحديث عن أبى تمام حديث عن شاعر استطاع أن يفرض نفسه على التاريخ ، ويملى أخباره على الناس ، ويذيع على الدنيا شعره ، ويجعل لأدبه الخلود مالم يستطع سواه أن يصل إليه بقوة السيف ، ولا بسطوة الملك ، ولا بعنفوان الجاه ومهما تطاول الزمن وتوالت الأيام ، واختلفت معايير الحسن والقبح ، يبقى أبو تمام كالطود الشامخ ، لا تهدمه المعاول ، ولا تجر عليه الأجيال ذيول التغاضى والنسيان ، وإن وقف الخصوم فى وجهه وكادوا له – ولا أدل على ذلك من أننا نتحدث عنه اليوم وبعد مرور القرون الطويلة على موته ، ودع عنك قول من يقول إنه غير عربى فأولئك ما أظنهم إلا أن اعتادوا أن ينسبوا كل فضل وكل عبقرية لغير العرب ، وكأنما العروبة قد عقمت ؛ فما تستطيع أن تلد من يرفع لواءها ! ولا من يعلى بناءها ، وذهبوا يتلمسون الُادلة في كل سبيل ، أو دعوى مغرضة ؛ تخرج من أحضان العروبة عبقرية نابهة ، وشاعرية فذة ، وخيال يطوف ما بين السماء والأرض فقد أثبت شعره غير ذلك .

* فقد أغرم بمدح العرب دون غيرهم ، وما بين دفتى ديوانه يشهد بذلك ، وإن مدح غير العرب – مضطرا – كان ذلك في ثنايا مديحه للعرب كما فعل في مدحه للأفشين ، ثم إنه مدح وأعلى وزاد في مديحه إعلاء للسجايا العربية حتى أوصلها إلى عنان السماء ، كل ذلك في عصر لم يكن غير العربى يتحرج من المجاهرة بغير ذلك ، بل ويجد في ذلك ميزة له على العربى ، وهو ما عرف بـ " الشعوبية " فلو كان ذلك – مثلا – في العصر الأموى لقلنا كان فعل ذلك من الشاعر تقية ، وخوفا لأن الأمويين عرفوا بالنعرة العربية العارمة ، والتنكر لمن سواهم .

أما أن يحدث ذلك من شاعر عباسى – عاش في ظلال العباسيين الذين أفسحوا صدورهم ، وبذلوا ودهم ، وعملوا على تقريب المسافة ، ورأب الصدع وإذابة

الفوارق بينهم وبين غيرهم من غير العرب ، فظنى أن هذا الكلام لا يخرج إلا من نفس عربى قح ، ومن قال بغير ذلك ففى كلامه نظر .

* ثم إن من قال بنصرانيته نقول له ، هل الوصف بالعروبة يتنافى مع الوصف بالنصرانية ؟ - وإن كنت لا أميل إلى ذلك - أليس من العرب من هو نصرانى ؟ !

ينقل ابن المعتز عن محمد بن قدامة أنه قال : (دخلت على حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يرى ، فوقفت ساعة لا يعلم بمكانى لما هو فيه ، ثم رفع رأسه ثم نظر إلىّ وسلم على ، فقلت له : يا أبا تمام إنك لتنظر في الكتب كثيرا ، وتدمن الدرس ، فما أصبرك عليها !

فقال : والله ما لى إلف غيرها ولا لذة سواها ، وإنى لخليق أن أتفقدها أى أحسن وإذا بحزمتين : واحدة عن يمينه ، وواحدة عن شماله ، وهو منهمك ينظر فيهما ويميزها من دون سائر الكتب فقلت : ما الذى أرى عنايتك به أوكد من غيره ، قال : أما التى عن يمينى فاللات وأما التى عن يسارى فالعزى ، أعبدهما منذ عشرين سنة فإذا عن يمينه شعر مسلم بن الوليد " صريع الغوانى " وعن يساره شعر أبى نواس " (١) .

وقد أخذ خصوم أبى تمام من هذا النص أنه كان يخل بفروضه بل ادعى بعضهم عليه بالكفر .

لكن الصولى نبه إلى ناحية ، ولعله أول من يشير إليها ألا وهى - معتقد أبى تمام الدينى - وقد كان بعض الناقدين يتخذ منها منفذا للطعن على أبى تمام .

---

١)- طبقات الشعراء ص ٢٨٤ .

وقد دافع الصولى عن أبى تمام من زاوية النقد الأدبى ، ومن زاوية صحة الخبر ، **فقال مصورا موقفه النقدى** : (وقد ادعى قوم عليه الكفر بل حققوه وجعلوا ذلك سببا للطعن على شعره وتقبيح حسنه ، وما ظننت أن كفرا ينقص من شعر ، ولا أن إيمانا يزيد فيه) .

ثم حاول أن ينفى عنه التهمة فقال : (فكيف يصح الكفر عند هؤلاء على رجل شعره كله يشهد بضد ما اتهموه به)[١].

ثم إنه لو كان نصرانيا – أوكان يظهر الدين الاسلامى بهذه الهالة القدسية في كل موقعة يظفر فيها بالشرك والكفر – ممثلا كلا من الإسلام والكفر في إبنائه وذويه ، والمدافعين عنه ؟ وفوق ذلك كله علمه الشديد بدقائق الدين ووقائعه وغزواته القديمة – قبل عصره – التى لا يتثنى علمها إلا لمن نشأ نشاة إسلامية بحتة وظلت تلك الوقائع تتردد على آذانه .

وبعد ذلك علمه القوى الراسخ الملم بأيام العرب ووقائعهم وغزواتهم ، والتى كان النصر فيها لهم ، أولغيرهم سواء قبل الإسلام أو بعده .

ثم إن أغلب الشعراء الذين اختار لهم شعرا وضمنه حماسته كانوا ينحدرون من أصول عربية ، بينما كانت القلة القليلة مولدة " محدثة " وذلك مما يشهد بالعروبة لأبى تمام غير شعره .

(وكفاه فخرا أنه إذا استشفع به المذنبون قبلت شفاعته فيهم . ولقد حدث أن بعض من لا يعرف الشعر كان يدخل على المجالس ومعه شعر صنعوه له ليتكسب به ، فكان يدعى أنه لأبى تمام الطائى ليحتل مركزا في القلوب)[٢] .

---

١)- أخبار أبي تمام ص ١٧٢ - ١٧٣.
٢)- عبقرية أبي تمام ص٦٧ .



المصادر والمراجع

١- أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم – عمر فروخ – مطبعة الكشاف – القاهرة

٢- أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره – نجيب محمد البهبيتى – دار الثقافة – الدار البيضاء .

٣- أبو تمام وقضية التجديد فى الشعر – عبده بدوى – الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤- أبو تمام – عصره – حياته – شعره – محمد رضا مروة – دار الكتب العلمية – بيروت .

٥- ابن الرومى – حياته من شعره – عباس العقاد – مكتبة غريب – القاهرة .

٦- أخبار أبي تمام - أبو بكر الصولى – نسخة مودعة بدار الكتب المصرية .

٧- أسرار البلاغة – الإمام عبد القاهر الجرجانى – مطبعة الشرقي – مصر .

٨- الأسس الجمالية فى النقض العربي – عز الدين اسماعيل – دار الشئون الثقافية – العراق .

٩- أصول النقد الأدبى – أحمد الشايب – مكتبة النهضة المصرية الحديثة .

١٠- أعلام الشعراء العباسيين – سليمان هادى الطعمة – بيروت .

١١- الأغـانى – أبـو الفـرج الأصـفهانى – تحقيـق محمـد عبـد السـلام هـارون – دار الكتب العلمية – بيروت .

١٢- تاريخ الأدب العربي – أحمد حسن الزيات – دار نهضة مصر .

١٣- تـاريخ الأدب العربي – الأعصر العباسية – عمر فروخ – دار العلم للملايـين – بيروت .

١٤- تاريخ الأدب فى العصر العباسي الأول – محمد عبد المنعم خفاجى – مكتبة الكليات الأزهرية – مصر .

١٥- تـاريخ بغداد – أبـو بكر بن أحمد بن على الخطيب البغدادى – دار الكتب العلمية – بيروت .

١٦- تاريخ دمشق – ابن عساكر – دار احياء التراث العربي .

١٧- تاريخ الموصل – الأزدى – تحقيق على حبيبة .

١٨- حصاد الهشيم – المازنى – المطبعة المصرية .

١٩- حماسة أبي تمام وشروحها – محمد حسين نقشة – الهيئة العامة للكتاب .

٢٠- خزانة الأدب – عبد القادر بن عمر البغدادى – تحقيق عبد السلام هارون – دار الكتاب العربي – القاهرة .

٢١- الخصومات البلاغية والنقدية فى صنعة أبي تمام - عبد الفتاح لاشين - دار المعارف .

٢٢- دراسات فى الفكر العربي - ماجد فخري - بيروت .

٢٣- دفاع عن البلاغة - أحمد حسن الزيات - عالم الكتب - القاهرة .

٢٤- دائرة المعارف الإسلامية - عبد الحميد يونس - دار الشعب - القاهرة .

٢٥- دلائل الاعجاز - عبد القاهر الجرجانى - مطبعة الشرقي - القاهرة .

٢٦- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزى - تحقيق محمد عبده عزام - دار المعارف - مصر .

٢٧- الرثاء - شوقي ضيف - دار المعارف .

٢٨- سرح العيون - شرح رسالة ابن زيدون - ابن نباتة المصرى - ط مصطفي البابي الحلبي .

٢٩- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - بهاء الدين بن عقيل - دار التراث - القاهرة .

٣٠- شزرات الذهب فى أخبار من ذهب - أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلي - مكتبة القدسي - مصر .

٣١- الشعراء المحدثون فى العصر العباسي - العربي حسن درويش - الهيئة العامة للكتاب .

٣٢- الشعر والشعراء - ابن قتيبة - تحقيق أحمد محمد شاكر - دار التنراث العربي .

٣٣- الصورة الأدبية - مصطفي ناصف - دار مصر للطباعة .

٣٤- ضحى الإسلام - أحمد أمين - مطبعة النهضة المصرية الحديثة .

٣٥- ظهر الإسلام - أحمد أمين - مطبعة النهضة المصرية الحديثة .

٣٦- عبقرية أبي تمام - عبد العزيز سيد الأهل - دار العلم للملايين - بيروت .

٣٧- العقد الفريد - ابن عبد ربه الأندلسي - ط الجمالية - القاهرة .

٣٨- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده - ابن رشيق القيروانى - دار الجيل - بيروت

٣٩- عيار الشعر - محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى - ط القاهرة .

٤٠- الفقر والحماسة - حنا الفاخورى - دار المعارف .

٤١- الفن ومذاهبه فى الشعر العربي - شوقي ضيف - ط دار المعارف .

٤٢- فى الأدب والنقد - محمد مندور - نهضة مصر .

٤٣- الكامل فى التاريخ - ابن الأثير - دار بيروت .

٤٤- لسان العرب - ابن منظور - دار المعارف .

٤٥- اللغة الشاعرة - مزايا الفن والتعبير فى اللغة العربية - عباس العقاد - مكتبة غريب - القاهرة .

٤٦- مجانى الأدب فى حدائق العرب - الأب لويس شيخو اليسوعى - مطعة الآباء اليسوعيين .

٤٧- المختار من كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكرى - وزارة الثقافة .

٤٨- مدرسة أبي تمام بين قدامى المولدين والمتأخرين - عبد المتعال الصعيدى - دار الكتب المصرية .

٤٩- المديح - سامى الدهان - دار المعارف .

٥٠- مروج الذهب - المسعودى - دار الفكر - بيروت .

٥١- معالم الشعر وأعلامه فى العصر العباسي الأول - محمد نبيه حجاب - دار المعارف

٥٢- معجم البلدان - ياقوت الحموى - دار احياء التراث العربي .

٥٣- من حديث الشعر والنثر - طه حسين - دار المعارف .

٥٤- الموشح - أبو عبد الله المرزبانى - دار نهضة مصر .

٥٥- الموازنة بين الطائيين - الآمدى - الناشر محمد على صبيح - القاهرة .

٥٦- النقد الأدبي – أحمد أمين – مكتبة النهضة المصرية الحديثة .

٥٧- النقد الأدبي الحديث – محمد غنيمى هلال – مطابع الشعب .

٥٨- النقد الأدبي عند العرب – محمد طاهر درويش – دار المعارف .

٥٩- النقد التطبيقي والموازنات – محمد الصادق عفيفي – مؤسسة الخانجى – مصر.

٦٠- النقد المنهجى عند العرب – محمد مندور – دار نهضة مصر.

٦١- هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام – يوسف البديعى – مطبعة العلوم – القاهرة

٦٢- الوساطة بين المتنبي وخصومه – القاضي عبد العزيز الجرجانى – ط القاهرة .

٦٣- وفيات الأعيان – أبو العباس شمس الدين بن خلكان – تحقيق احسان عباس – دار صادر – بيروت .